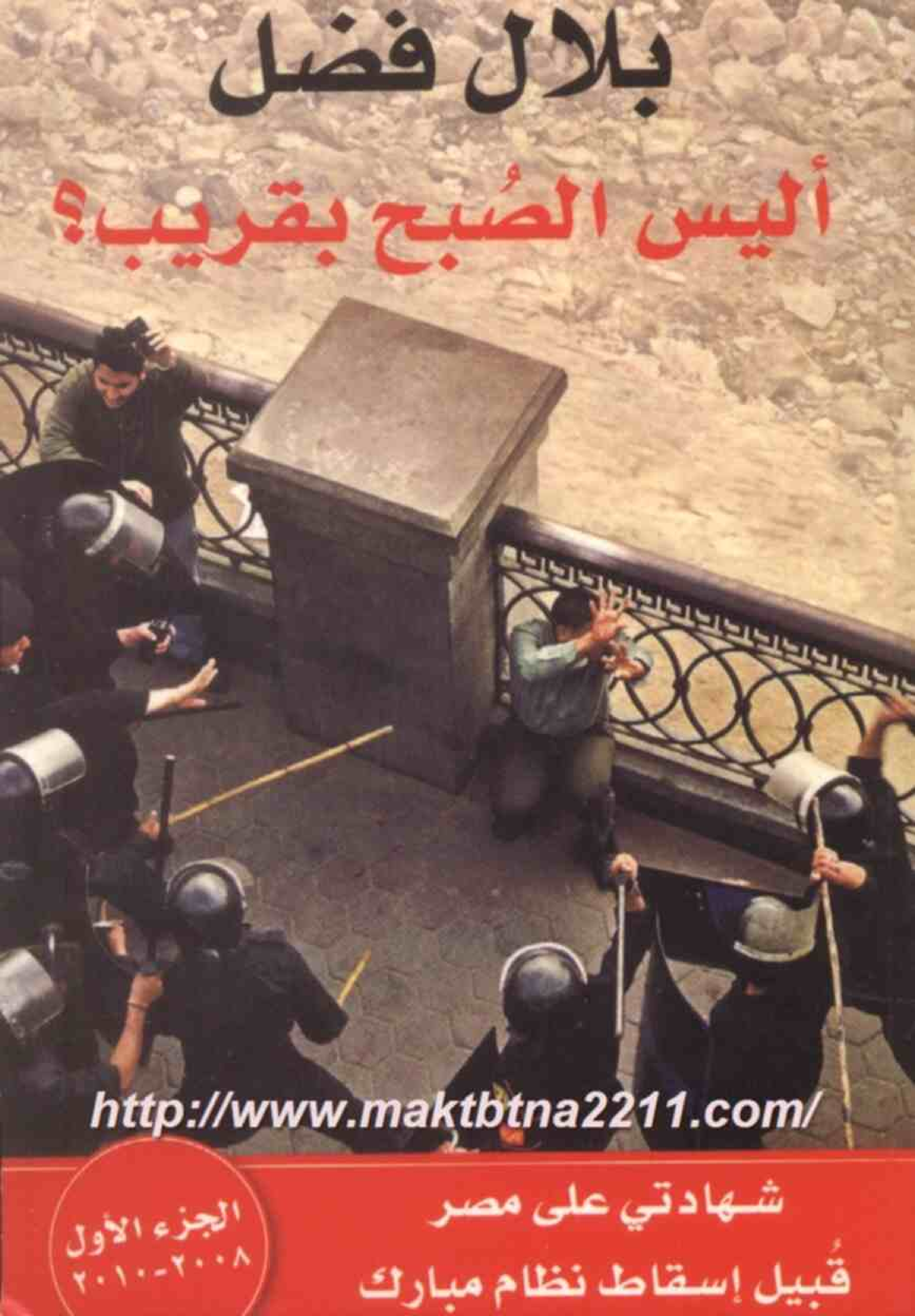

بلال فضل
أليس الصُبح بقريب؟
http://www.maktbtna2211.com/
شهادتي على مصر
قُبيل إسقاط نظام مبارك
الجزء الأول
٢٠٠٨-٢٠١٠

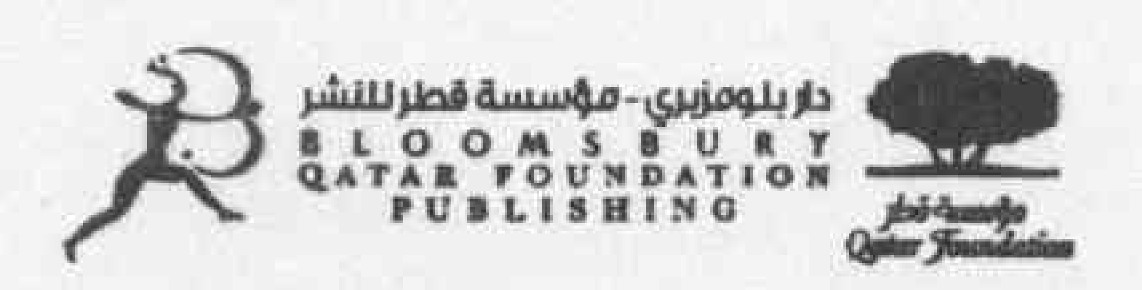
أليس الصبح بقريب؟

بلال فضل

أليس الصبح بقريب؟

شهادتي على مصر قُبيل إسقاط نظام مبارك

(٢٠٠٨-٢٠١٠)



إلى مصر..

التي ضحكت أخيرًا

وستضحك كثيرًا

بإذن الله

وإرادة الشعب.

المحتويات

الشعب أجدع من أي مُقدمة!

تعودت على ألا أكتب مُقدمات لكتبي، وأن أكتفي باختيار مقطوعة شعرية أعشقها لكي أضعها في بداية الكتاب تحت عنوان ثابت «أجدع من أي مُقدمة»، إذا كنت قد تورَّطتَ في شراء كتاب سابق لي فأنت تعرف ذلك بالفعل، أما إذا كانت هذه ورطتك الأولى معي، فلا تبحث عن مقطوعة شعرية لأنك لن تجدها إلا داخل هذه السطور.

دعني أقل لك أولًا إن كثيرًا من فصول هذا الكتاب كان من المُفترض أن تَصدر في نهاية عام ٢٠١٠ ضمن كتاب يحمل اسمًا كئيبًا قاتمًا هو «أمسَتْ يبابًا.. مصر بعد ثلاثين عامًا من حكم مبارك». عندما نشرت قبل عامين فصلًا من الكتاب في صحيفة «المصري اليوم» ظن بعض الأصدقاء أن عنوان الكتاب مُقتبسٌ من قصيدة «الأرض اليباب» الشهيرة للشاعر العالمي «تي. إس. إليوت»، والتي كنت دائمًا أحرص على الاستشهاد بها في بعض جلساتي مع أصدقائي على أساس أنني قرأتها في لغتها الأصلية، مع أنني لم أقرأها حتى مُترجمة، لكنَّ العنوان كان مقتبسًا من قصيدةٍ لأمير الشعراء أحمد شوقي لا زلتُ أحفظها من أيام المدرسة، أظن أن عنوانها كان «تحية للعمال» أو حاجة من هذا القبيل. وكان أحمد شوقي يقول فيها:

أيُّها العُمَّال افنوا الـ ... عُمْرَ كـدًّا واكتسابا

واعْمُروا الأرض فلولا ... سَعيُكُم أمسَتْ يَبابا

كانت كلمة «يبابا» مثيرة لسخريتنا في تلك السن المبكرة، لكن الغريب أنها ظلت عند نشري لعنوان الكتاب مثيرة للسخرية والدهشة؛ بعض القُراء أرسل يسأل مُعلِّقًا على العنوان: «هل الكتاب كله عن توريث الحكم على أساس يا بابا مبارك وكده يعني؟».

وأنا رددت عليه أن الكتاب به فصول عن التوريث، لكن «يابا» غير يا بابا خالص، وإن كان توريث بابا لكرسي الحكم سيؤدي بمصر إلى أن تمسي «يابا» في نهاية المطاف.

لم أجد لذلك العنوان الكئيب مُقدمةً تلائم كآبته أنسب من قطعة شعرية حزينة يائسة كتبها الأشعر عبد الرحمن الأبنودي رضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مثوانا ومثواه في ملحمته الشعرية البديعة «الجزر والمد» يقول فيها:

«آهين يا رفاقة

لو كنت أعرف أرجَّع البَكَرة

واجيب بُكره

أرْسي في مواني الحلم من غير علم

من غير عذاب ولا تضحيات

ولا سجون ولا دم

واشوف نهاية الفيلم

الفيلم تافه.. سخيف

بطله المِفتَّح كفيف

شريفه هو المُطارد

ولِصُّه هو الشريف

ياما بَلِيدة يا خطوة التواريخ

فقيِرة الصورة

وباهظةِ التكاليف

تتعسني فكرة اني حاموت

قبل ما اشوف لو حتى دقيقة

رجوع الدم لكل حقيقة

ومَوت الموت!!

قبل ما تصحى

كل الكتب اللي قريت

والمدن اللي ف أحلامي رأيت

والأحلام اللي بنيت

والشُّهدا اللي هويت

والجيل اللي هداني

والجيل اللي هديت

قبل ما املِّس ع الآتي

واذْفِن كل بشاعة الماضي في بيت

حاقولها بالمكشوف

خايف اموت من غير ما اشوف.

تغيُّر الظروف

تغيُّر الوشوش

وتغيُّر الصنوف

والمحدوفين ورا

متبسِّمين في أول الصفوف

خايف اموت وتموت معايا الفكرة

لا ينتصر كل اللي حبيته

ولا يتهزم كل اللي كنت اكره

اتخيلوا الحسرة

اتخيلوا الحسرة

اتخيلوا الحسرة»

ثم جاءت ثورة أحرار المصريين، التي اندلعت شرارتها في الخامس والعشرين من يناير وما زالت جذوتها مشتعلة، وأظنها ستظل كذلك حتى يصبح ظاهر مصر أحب إلى المصريين من باطنها، فأطاحت بوشوش نظام مبارك وظروفه وصنوفه، وأطاحت أيضًا بعنوان الكتاب ومُقدِّمته، لكن مَتْنه كما أظن ما زال قابلًا للبقاء؛ كشهادة من كاتب مصري على آخر ستتين من سنوات عُمر نظام مبارك العجاف، حاول فيهما ألا يكون ظهيرًا للمُجرمين، مشاركًا بقدر طاقته وجهده في إنكار المُنكر، في ظل ظروف نَشرٍ شديدة الصعوبة والكآبة.

كنتُ قد حاولت في تجربة سابقة من خلال كتاب «قلمين» أن أنشر ما يمكن وصفه بـ«تأريخ ساخر لمصر في عهد مبارك في السنوات من عام ٢٠٠٥ وحتى عام ٢٠٠٨»؛ حيث قمت بتجميع الفقرات الساخرة التي كنت أكتبها تعليقًا على الأحداث السياسية والاجتماعية في تلك السنوات، وقد واصلت فعل ذلك بشكل أو بآخر من خلال كتابي: «السكان الأصليين لمصر» و«ضحك مجروح»، اللذين جمعت فيهما العديد من مقالاتي السياسية الساخرة خلال الفترة من عام ٢٠٠٥ إلى عام ٢٠١٠. واليوم أواصل توثيق شهادتي على مصر خلال العامين الأخيرين من عهد مبارك، جامعًا أبرز وأهم المقالات التي نشرتها في عمودي اليومي «اصطباحة»، الذي كان يُنشر في الصفحة الأخيرة من صحيفة «المصري اليوم» واسعة الانتشار، بدءًا من أول مقالة نشرتها في اليوم الأول من شهر نوفمبر عام ٢٠٠٨ وصولًا إلى آخر مقالة كتبتها في ذلك العمود عقب خلع مبارك من كرسي الرئاسة يوم الرابع عشر من فبراير ٢٠١١، عندما ظننت بتسرع المتشي بالانتصار أن مهمتي في الكتابة السياسية قد انتهت، قبل أن أعدل عن ذلك وأعود إليها من جديد حتى يقر الله عيني باكتمال ثورتنا بتداول السلطة السلمي لأول مرة في تاريخ مصر.

ستجد في نهاية كل مقالة تاريخ نشرها لكي يشكل ذلك عنصرًا مساعدًا لك إذا كنت ترغب في التعرف على تاريخ تلك الفترة العصيبة من حياة مصر. كنت قد فكرت في وضع هامش أسفل كل مقال يروي ما أثاره من ردود فعل أو تعليقات، أو حتى يشير إلى بعض المفاوضات التي جرت مع إدارة تحرير الصحيفة لحذف بعض كلماته أو سطوره،

خصوصًا أن كثيرًا من هذه المقالات أثار جدلًا حادًا في الأوساط السياسية والشعبية، وكان مصدر إزعاج لنظام مبارك ولإدارة تحرير الصحيفة نفسها، في ظل مناخ نشرٍ كان يتأزّم يومًا بعد يوم، حتى وصل التأزُّم إلى ذروته في العام الأخير من حكم مبارك الذي شهد اغتيال تجربة صحيفة «الدستور»، والتضييق على برامج «التوك شو»، وممارسة ضغوط عنيفة على الصُّحف ومحطات التلفزيون. لكنني ظننت أن الإسهاب في سرد ذلك كله غير مناسب، وأن تلك الوقائع يمكن أن تصلح موضوعًا لكتاب مستقل أروي فيه شهادتي على كواليس تلك الأيام سواء ما كان يخصني منها أو ما يخص غيري.

كانت المُقدمة القديمة التي أطاحت بها الثورة مقتطعة من قصيدة للخال الأبنودي، كتبها قبل اندلاع الثورة بثلاثين عامًا، بالتحديد في عام ١٩٨١، عندما كان يحكم مصر وقتها «حاكم صدفة» اسمه أنور السادات؛ لقي حتفه بعد نشر القصيدة بأشهر، ليحكم مصر بعدها «حاكم صدفة آخر» اسمه حسني مبارك، لم يتعلم من قتل سلفه أمامه سوى درس وحيد؛ هو أن يظل على كرسي السلطة «حتى آخر نَفَس» وأيًا كان الثمن. تلك القصيدة التي اختار لها الأبنودي وقت نشرها اسم «الجزر والمد»، كتبها مستلهمًا أحداث انتفاضة ٢١ فبراير العظيمة التي فجرها المصريون في عام ١٩٤٦ ضد «الظلم والخيانة والقيادات الجبانة نداغة الإهانة كريهة الريحة كريهة الصوت والبرلمانات الموت»، تلك الانتفاضة العظيمة التي فجرها الطلبة والعمال ثم تفاعل معها الشعب المصري كله ليزحف إلى ميدان التحرير الذي كان وقتها يحمل اسم ميدان الإسماعيلية، ليسقط فيه وفي كل أنحاء مصر عشرات الشهداء وآلاف الجرحى في حدث هزَّ العالم كله وقتها وأصبح يومًا عالميًا للشباب، قبل أن يتم تغييبه وإسقاطه عمدًا من ذاكرة المصريين؛ لكي ينسوا أنهم شعب ذو باع طويل في التمرد والثورة والغضب.

كان الأبنودي في ملحمته الشعرية الخالدة يستدعي مشهد المد المصري العظيم في عهد الجزر الانفتاحي التطبيعي الكريه، لكنه كان يبدو يائسًا من أن يجيء اليوم الذي يرى فيه «تغير الظروف والوشوش والصنوف». ولم يكن يعلم أن الله سيكون رحيمًا به وبمصر، وأنه سيُنجيه ويُنجينا من الحسرة التي ظن أنها قدره وقدر مصر، وأنه سيعيش اليوم الذي يرى فيه معنا «المحدوفين ورا متبسّمين في أول الصفوف»، وأنه سيرى تحقق نبوءته التي بشرت بها نهاية القصيدة، في نفس الميدان الذي أصبح رمزًا خالدًا لتحرير وطن بأكمله من اليأس والحسرة وجميع أصناف المحتلين المحليين والأجانب.

عندما قرر الخال الأبنودي أن يعيد نشر قصيدته بعد أسابيع من تحقيق الثورة لأول أهدافها بإطاحة مبارك، شرفني وطلب مني أن أكتب مقدمة لقصيدته العظيمة، ويومها كتبت:

«قطعًا ستندهش وأنت تقرأ هذه القصيدة لأنك ستشعر أنها كتبت في التوّ واللحظة وليس منذ ثلاثين سنة، لكن الأهم أن تحرص بكل ما في وسعك وطاقتك وجهدك ووعيك على ألا تظل هذه القصيدة صالحة للإدهاش من الآن فصاعدًا؛ لكي يقول من يقرأها بعد ثلاث سنوات وليس بعد ثلاثين سنة: يا الله!! كيف تحمَّل الخال الأبنودي والأجيال التي تلته أن يعيشوا في ظل عصر يدوم ثلاثين سنة دون أن يتغير. ليس ذلك حلمًا عصي المنال، ولكي نحققه نريد أن نتحدى مؤامرات الثورة المضادة.. نريد أن نتحدى المصالح الرخيصة.. نريد أن نتحدى حتى قوانين الطبيعة.. نريده «مَدًّا لا جَزْرَ بَعده» لكي تحيا مصر إلى الأبد».

ولأن البني آدم منا طماع ولو عرض عليه واديان من الديمقراطية لتمنى ثالثهما، فإن غاية ما أرجوه لكتابي هذا أن يقرأه المصريون بعد عام واحد من تاريخ كتابة هذه السطور في ظل رئيس مُنتخب وحكومة منتخبة، ليضربوا كفًّا بكف ويقولوا لأنفسهم: «يا الله! كيف تحمَّلت مصر أن تعيش هراءً مثل هذا.. هل سيصدق الذين سيأتون بعد عشر سنوات أن مصر تحملت كل هذا.. يبدو أن مؤلف هذا الكتاب كان يبالغ، فلا يمكن أن يكون المصريون قد شهدوا ذُلًّا مثل هذا أبدًا».

إذا تحقق هذا الرجاء وانهالت عليَّ اللعنات تتهمني بالمبالغة والكذب والتضخيم والافتراء، سأكون في منتهى السعادة، سواء كنت حيًّا أتنعَّم بالحياة على ظاهر مصر، أو ميتًا أتنعَّم بالموت في باطنها.

تحيا مصر.

بلال فضل

القاهرة. لحسني مبارك ونظامه. يوليو ٢٠١١

سياتي هذا الصباح

على وجه مصر سحابة سوداء خنقت البلاد وكبست على نَفَس العباد!

أناس من أولاد الحلال يقولون إنها طالت واستحكمت حلقاتها، لم تستمر سحابة سوداء في العالم مدة ٢٧ سنة. بينما يرى غيرهم أن «أكتر من كده وربك بيزيح». آخرون يرون الأمل كالكذب خيبة، لكنهم يضيفون من باب الدقة أن عمر تلك السحابة اللعينة هو ٣١ سنة، كل سنة أسخم من التي قبلها وأرحم من التي تليها. بينما يحلف آخرون أكثر يأسًا على المصحف والإنجيل أن تلك السحابة بلغت من العمر ٥٦ سنة، وهي بذلك لديهم تجاوزت السن التاريخية للانقشاع وصارت قدرًا لا فِكاك منه.

لكلٍّ وجهة هو موليها. أما أنا فأقسم لكم بحياة هذا الصباح الشريف، وحياة النعمة التي يحفى الفقير ليطولها، وحياة بحر إسكندرية الذي ما تمنيت قدامه أمنية وخذلني، وحياة الأمهات اللواتي ما فوتن صلاة الفجر يومًا على أمل أن يحضرن ساعة توزيع الأرزاق دون أن ييأسن أبدًا من تأخر وصول الأرزاق، وحياة قصص الحب التي لم تنهزم على كوبري قصر النيل أو في نفق الزواج، وحياة خيال الأطفال وواقعية الآباء الذين لم تكسر قلة الحاجة هيبتهم، وحياة الزرع الأخضر الذي يرفض التطبيع مع المبيدات، وحياة دوشة ماكينات الطعمية وهدير ماكينات غزل المحلة بعد إضراب ناجح، وحياة روائح الطبيخ وهي بتشغي في المناور التي لم تهزمها قماءة المواسير، وحياة شاي العصاري في البلكونات النضيفة التي لم تبهدلها الكراكيب، وحياة صالات البيوت التي لم تخنقها الكآبة، وحياة نوادي الفيديو التي تعايشت مع زحف السيديهات واستمرت في إسعاد المخنوقين، وحياة العيش البلدي المحمص إن استطعت إليه سبيلًا، وحياة القهاوي الزحمة والأتوبيسات الرايقة في المواقف والمواقف المحترمة المكتوبة بروقان، وحياة

غُنا منير، وصوت أنغام، ومزيكة عمار الشريعي، وأفلام وحيد حامد، ومسلسلات أسامة أنور عكاشة، وشعر الأبنودي، وتشخيص الفخراني، وقصص محمد المخزنجي، ونقاء محمد السيد سعيد، وسِحر أحمد خالد توفيق، وسخرية جلال عامر، ومِمَّانة أبو تريكة، وعقل هيكل، وحس علاء الديب في الدنيا، وحياة عيال وبنات ساقية الصاوي، وستة إبريل، وكفاية، ورسالة، وزاد، وفاتحة خير، وجروبات «الفيس بوك» الذين قد لا يحبون بعضهم البعض مع إنهم كلهم على بعضهم يتحبوا لأن شكلهم يفرح حتى لو كان بعض كلامهم يضايق، وحياة المنفيين في الأقاليم الذين ينتظرون أن يحل فرج الله على العاصمة، وحياة السكان الأصليين لمصر الذين يفضلون الغرق في بلادهم على الغرق خارجها.

بلاش يا سيدي، وحياة ربنا المعبود الذي يحب الصابرين، إذا صبروا، أقسم لكم إن هذه السحابة السوداء التي كبست على نَفَس مصر ستغور، وإنه سيطلع علينا صباح لن نرى فيه هذه الوجوه الكريهة التي كانت تكذب أكثر مما تتنفس فصارت تكذب ولا تتنفس، وإن مصر ستُرزق بصباح تستحقه، وساسة على قد مقامها، وأيام يمكن احتمالها، وأكاذيب يمكن بلعها، وفساد يمكن التعايش معه، وتخلف له أول من آخر، وإنه سيأتي على مصر صباح يفوق فيه المصري لنفسه، ويتكسف على نفسه عندما يرى كيف أصبح حاله، ويقرر ألا ينازع الخالق في حكمه على البشر، ويتفرغ لدوره الذي نسيه كمخلوق، صباح يُصبح فيه ضرب مواطن فقير على قفاه ألعن من الخيانة العظمى، صباح يعيش فيه المصريون إما فقراء على القد دون أن يفقدوا الكرامة والستر، وإما أغنياء على راحتهم دون أن يفقدوا الإحساس والضمير.

سيأتي هذا الصباح، أنا أضمن لكم ذلك برقبتي، وأنا رقبتي أكبر من أي سدادة تتخيلونها. لكنني للأمانة ولكي لا أخدعكم لا أضمن لكم متى سيأتي، ولا إذا أتى متى يمكن أن ينتهي فتداهمنا سحابة سوداء من جديد، أنتم تضمنون ذلك بأنفسكم ولأنفسكم، أما أنا فأعرف فقط أن ذلك الصباح سيأتي حتمًا ولزمًا، ومصر إذا شمت هواءه النضيف لن تفرط فيه أبدًا.

ربنا كريم ومصر تستاهل.

١ نوفمبر ٢٠٠٨

رئيس التوك توك

تتميز دخلة مؤتمر الحزب الوطني عن باقي دخلات الأعياد والمناسبات المصرية بأنها لا تتطلب ذهاب المصريين إلى القرافة؛ فهي تأتي إليهم بنفسها على الهواء. في أيامه المباركات تصبح إن أردت أسعد من علي بابا؛ لأن حضورك المؤتمر لا يتطلب أن تقول افتح يا سمسم، بل يكفي أن تفتح قناة المحور. وفي أيامه أيضًا تُصبح الكذبة الحكومية بعشرة أمثالها، ويكون فتحك لوقائعه على الهواء كمثل فتح عشر قنوات تركية معًا فيما سواء، الفرق أنك لو فتحت القنوات التركية أنت الذي تستمتع، بينما لو فتحت على المؤتمر أعضاؤه همْ الذين يستمتعون. في أيام المؤتمر يكتمل «تبويض» البلاد، وتبدأ دورة حياة جديدة للوهم، وتتفتح براعم التوريث، وتنشط الغدة النخامية المسئولة عن إفراز التصريحات لدى قيادات الحزب، وعلى رأسهم أمينه العام السيد صفوت الشريف. عن نفسي أدهشني المجهود الفائق الذي بذله سيادته في سيل الحوارات الذي أطلقه علينا في جميع وسائل الإعلام المرئية والمقروءة والمشمومة، لفت انتباهي قدرته الفائقة على عدم تكرار نفسه في الحوارات؛ حيث لم يقل في أي منها شيئًا له معنى، مع أنه كعادته لم يخلف في أي منها أثرًا يُمسك عليه، اللهم إلا عندما قال في أحد الحوارات إن حزبه يمثل الفقراء والمهمشين، دون أن يدرك أن الأصح لُغويًا إضافة حرف الباء إلى كلمة الفقراء ليصبح المعنى أصدق وأدق. في حوار آخر جاء الخطأ من المجلة التي حاورته وليس منه، فقد قال سيادته عنوانًا خطيرًا اختارته مجلة الإذاعة والتلفزيون عنوانًا رئيسيًا: «صفوت الشريف: لا مكان في الوطني لمُستغل أو فاسد»، لكنها لم تسأله ما إذا كان يقصد باستخدام «أو التخيير» أن هناك داخل الحزب مكانًا للاثنين معًا.

بالمناسبة كان لي صديق فيلسوف، بأقوال المتشائمين شغوف، يأسه من انصلاح أحوال

البلاد خنقني منه فجعلني أقطع علاقتي به تمامًا، وهو احترم ذلك فأعرض ونأى بجانبه، حتى وجدته فجأة ودون مقدمات يُقبل من جديد عليَّ وعلى الحياة والبلد والناس، ابتسامته صارت أعرض من خيبتنا، لسانه لا يلهج إلا بالأغاني المتفائلة، ويده اليُمنى ترفض دعوة اليُسرى لها بأن تحول التلفزيون عن قناة المحور التي تعرض وقائع مؤتمر الحزب الوطني. ربكم والحق أنا ظننت أن ما حدث له بعض من أعراض دواء الاكتئاب الذي وصفه له طبيبه برغم نزول الدواء والطبيب على جدول المخدرات، لكنه في جلسة مصارحة كاشفني أنه يعتقد أن الأمل مثل الحُب يصيب الإنسان فجأة، بعكس اليأس الذي هو مثل التفاهم يأتي بالعِشرة. سألته عما أصابه بالأمل لكي تعم الفائدة على من فقده من الفاقدين من أصحابنا، فقال لي إنه أصيب بالأمل بعد أن تابع ما حدث للسياح المخطوفين مؤخرًا في جنوب مصر، وكيف كانوا على شفا الموت ثم فجأة وجدوا أنفسهم كما ولدتهم أمهاتهم أحرارًا، ثم أشار بإصبعه إلى المجتمعين في المؤتمر المبثوث علينا، وارتسمت على وجهه ابتسامة كابتسامة «جاك نيكلسون» في فيلم «شايننج»، ثم قال بصوت كالفحيح: «أنا بقه من ساعتها عندي أمل إنهم يسيبونا فجأة من غير مفاوضات ولا فدية».

من ناحية أخرى أسعدني حضور الأستاذ المحاسب جمال مبارك لندوة مكافحة الإدمان التي عقدها الحزب الوطني الديمقراطي. وسائل إعلام كثيرة غطت الندوة لكنَّ أيًا منها لم يبين لنا ما إذا كانت الندوة قد اقترحت علاجًا ناجعًا لنوع خطير من الإدمان يهدد مستقبل الوطن، هو إدمان السُّلطة.

أخيرًا لم أفهم استياء البعض من مشاركة مصر بوفد رسمي في احتفالات فرنسا بذكرى الحملة الفرنسية على مصر. كنت أظن أننا تجاوزنا هذه العُقدة من زمان، عندما تفوقنا على الفرنسيين بكثير، بدليل أن زعيم فرنسا «نابليون بونابرت» زار مصر مرة في العُمر، بينما زعيمنا يزور باريس كل سنة ثلاث مرات. قلت ذلك لصديق من أهل العدل والقسطاس فرأى أنني نسيت أن أرصد ملمحًا مُهمًّا هو دور الزعيمين في تغيير وجه مصر الحضاري؛ حيث أدخل نابليون إليها المَطبعة، وأدخل الرئيس مبارك إليها التوك توك.

٢ نوفمبر ٢٠٠٨

الفرعون الأخير

بذمتك ودينك، وأنا راضي ذمتك مهما كان اتساعها، وراضي بدينك طالما كان سماويًا، هل صحوت يومًا من النوم فوجدت لسانك من تلقائه يلهج بأسئلة مثل: «يا ترى سيادة الرئيس عامل إيه النهارده.. حزين ولّا سعيد.. مبسوط ولّا متضايق ولّا... يا ترى بيفكر في إيه.. هيقضي يومه النهارده إزاي.. يا رب اجعل صباحه زي الفل وصبّر قلبه علينا وارزقه برزقنا يا كريم».

إذا رضيت ذمتي أنا فدعني أقل لك إنني لا أعتقد أن أحدًا لديه ذمة أو حتى إقرار ذمة يمكن أن يبدأ يومه بأسئلة لا تخصه، حتى لو كان واحدًا من أولئك الذين يريدون إيهامنا بأنهم يذكرون الرئيس قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، أولئك الذين كلما سألناهم عن حال الوطن أجابونا: «الحمد لله.. الرئيس بخير»، أولئك الذين بات وجودهم في البلاد أخطر كارثة تهدد مستقبلها، أخطر من الحرائق والانهيارات والتصدعات وحوادث الغرق والنكسات بأشكالها وألوانها ومقاساتها، فكل هذه الكوارث كوم، وكوم آخر وأخطر اختصار بلاد بعظمة مصر في شخص واحد أيًا كان.

الحرائق تحدث في كل بلاد الدنيا المتقدمة وكذا الانهيارات وشرحه الزلازل والعمليات الإرهابية والبلاوي السودا، لكن الكارثة التي تحدث لدينا فقط هي أننا نتوجه بالشكر إلى سيادة الرئيس عقب كل كارثة لأنه أدى واجبه وسعى لإصلاح ما أفسده رجاله في طول البلاد وعرضها. إذا كنت تعتبرني أُلقي الكلام على عواهنه، دعني أحيلك إلى خبر كابوسي نشرته الصحف القومية مؤخرًا، فجعلت أنفسنا تقوم علينا من هول وقعه، قال إيه: «وفد من مجلس الشورى برئاسة السيد صفوت الشريف يتوجه إلى قصر عابدين ليسجل الشكر لسيادة الرئيس لاهتمامه البالغ بحريق مجلس الشورى». وبصحبة الخبر صورة للسيد

صفوت وعدد من قيادات مجلس الشورى يسيرون إلى جوار بعضهم بملامح تكسوها الجدية كأنهم أبطال فيلم «أرماجدون» الذاهبون لتدمير نيزك يهدد سلامة كوكب الأرض.

أقسم لك إنني ظللت أيامًا طويلة بعد نشر الخبر وحتى الآن أتمنى أن يُعلن مصدر مسئول أو مسئوم أن ما قرأته كان حديث خرافة أو خيالًا صحفيًّا مريضًا أو حتى حلقة من حلقات الكاميرا الخفية لا ينقصها إلا خروج مخرجها علي العسال من أحد أركان الصورة ليحتضن السيد صفوت ورجاله ويشير كل منهم بإبهامه إلى القُراء علامة الأوكيه بينما تنزل التيترات على لحن الكاميرا الخفية المميز وهم يهتفون جميعًا: «إديني عقلك».

إديني عقلك بجد وقل لي بالله عليك ماذا كنت ستفعل لو كان إلى جوارك صبيحة نشر الخبر صديق خواجة وسألك عن فحواه، كيف كنت ستجيبه، هل كان سيصدقك لو حلفت له على المية تنضف أن هناك بلادًا في الدنيا يتقدم أهلها إلى حاكمهم بالشكر بسبب كارثة نتجت بفعل الإهمال أو الفساد أو حتى بفعل القضاء والقدر. هل كنت ستقول له إننا عكس كل بلاد الدنيا المحترمة التي يسهر الحاكم فيها على الناس ويحمل همهم، أما نحن، فيريدون منا أن نسهر على الحاكم ونحمل همه ويصعب علينا لأنه يا عيني يحكمنا ومستحملنا.

ستقول لي يا سيدي يغور صديقي الخواجة إذا لم يكن سيفهم أخلاقنا وقيمنا، واعتبر هذا الخبر مجاملة بريئة تشد من أزر الرئيس لكي لا تفت في عضده الكوارث المتلاحقة. طيب يتفت عضدي لو خالفتك في هذا الكلام النبيل، فقط دعني أنقل لك خوفي من أن يؤدي عدم الاعتذار عن فعل الشكر الجماعي الذي قام به السيد الشريف والذين معه إلى كارثة أكبر، هي أن يتصور مشعلو الحرائق ومرتكبو الكوارث أن من واجبهم أن يعطوا فرصًا أكبر للشعب لكي يشكر رئيسه على حمل همه، فتنشط همتهم في الحرق والتخريب، فنطلع من نقرة حريق إلى دحديرة انهيار إلى وحلة غرق، وكلما انتهت كارثة بتفقد الرئيس لموقع الحادث بادرنا بالتوجه إلى شكره لتقع كارثة جديدة، وعندها لن تكون فترة سيادته الرئاسية هي التي ستنتهي، بل الشعب نفسه هو الذي سينتهي، وساعتها للأسف لن يتحقق حلم سيادته التاريخي بأن يكون الفرعون الأخير؛ لأنه سيكون الرئيس الأخير، الأخير خالص.

٤ نوفمبر ٢٠٠٨

عاش موحد المذاهب

إذ فجأتن، اكتشفت أن صحافتنا الموقرة «قوميها وخاصها وحزبيها» تمتلئ عن بكرة أبيها بأهل السُّنة والجماعة. كلما فتحت صحيفة أو مجلة ألفيت كاتبًا يفاجئني بأنه قَلوَظ العِمَّة ورفع راية الجهاد لنصرة عقيدة أهل السُّنة والجماعة ضد أهل الشيعة الأشرار تحت إمرة الشيخ يوسف القرضاوي. طيب يا سيدي ربنا يهدي، المهم أن يعرف الذين يساندون الشيخ القرضاوي مَن هو أساسًا فيقرأوا له كتابًا أو اثنين ليصيروا على بينة من حبهم له قبل أن يقول الرجل في الغد كلامًا لا يُعجبهم فينقلبوا على أعقابهم ذمًّا وتجريحًا، مثلما فعلوا مع الشيخ محمد الغزالي رحمه الله؛ ظلوا يشيدون به دون أن يقرأوا له كتابًا، فلما قال كلامًا لا يُعجبهم انقلبوا على أعقابهم شاتمين.

أدعي أنني معجب بالشيخ القرضاوي على بينة، وأدعي أنني لست مُعجبًا بموقفه الأخير أيضًا على بينة، لكنني لن أتجاوز قدري مع الشيخ الذي يزيده خطؤه أجرًا وفضلًا، يكفي أن أحيلك إلى ما كتبه ردًّا عليه قامات فكرية بوزن المستشار طارق البشري والأستاذ فهمي هويدي والدكتور إبراهيم البيومي غانم، ثم أقول قولي لكم عن كتاب ضبطتهم يرتجفون هلعًا داخل مقالاتهم من خطورة المد الشيعي على أهل السُّنة، مع أنك لو سألت أحدهم عن الفرق بين فِرق الشيعة وفِرق السُّنة، لاكتشفت أن علاقته بكل هذه الفرق هي أنه يفرق شعره من النُّص. لا أريد أن أدخل في ضمير أحد وأزايد على هلعه من المد الشيعي، لكنني، بأمانة ربنا، مستفز من الذين يملأون الدنيا ضجيجًا عن المد الشيعي الوهمي، بينما، على رأي العبقري جلال عامر، لم نقرأ لهم حرفًا عن مد حقيقي لا ريب فيه هو مد المواطنين على رجليهم في أقسام البوليس.

مد شيعي مين يا عم الحاج، أنا آسف لو قلتها لك هكذا على بلاطة، عندما تريد مني

أن أحترمك ككاتب وأنت تحدثني عن المد الشيعي وخطورته، عليك أن تجعلنيّ أولًا أصدق أنك تعرف الكثير عن الشيعة فتشرح لي لماذا تراهم خطرين لهذه الدرجة على مصر، ثم تفسر لي كيف حكموا مصر عشرات السنين ولم ينجحوا في جعلها شيعية، بل لو استمرت دولتهم عددًا أكثر من السنين لجعلهم المصريون سُنة أقحاحًا وكنا خلصنا من وجع الدماغ الطائفي هذا، لكنها إرادة الله الذي لو شاء لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا ما شاء ربك. وهي ذاتها إرادته التي أرادت أن تسلط علينا أناسًا يهرفون بما لا يعرفون فيكون مبلغ علمهم بالمد الشيعي أنهم شاهدوا مواطنين مصريين يُعلقون صور السيد حسن نصر الله في بيوتهم أو في ميداليات مفاتيحهم، دون أن يتنبهوا إلى أن وراء تلك الصور رغبة هؤلاء المواطنين في الإحساس بوجود راجل في حياتهم، وأن نفس أولئك المواطنين يُعلِّق أبناءهم صور تامر حسني وشاكيرا وأبو تريكة وحسن شحاتة، ولو كان المد يعرف بالصور المُعلَّقة على الحوائط لكان المد الحقيقي الذي يهدد حياة المصريين هو اضطرارهم إلى «مد رجليهم على قد ألحفتهم».

يا سادة، عن أي مد شيعي تتحدثون، وأنتم تعيشون في عصر الحزب الوطني المبارك مُوحِّد الأديان والفرق، الذي تمكنت سياساته المباركة من جعل المصريين يعتنقون كل المذاهب والفرق التي تحدثت عنها كتب الملل والنحل، فهو الحزب الذي جعل المصريين جميعًا معتزلة يعتزلون الممارسة السياسية عن بكرة أبيها، وجعلهم جميعًا مرجئة يرجئون أي أمل في الحياة حتى تحل إرادة الله فيولي من يصلح، جعلهم قدرية يسلمون أمورهم للقدر و«خطاه تسحق هاماتهم»، وجبرية يخضعون للحكم الجبري، وأشاعرة كلما سألهم أحد هل أحسوا بالإصلاح «أشعروا» من فرط ما قاسوا من الإحساس به، وخوارج يعتقدون أنه لا حل لهم إلا بالخروج بره البلد.

يا سادة، إذا كنتم خائفين بحق وحقيقي على مصر من التشيع فالخوف الحقيقي ليس من إيران، بل من نفوذ وجبروت أكبر تنظيم تشييعي في مصر وهو الحزب الوطني المبارك؛ لأن سياساته هي وحدها التي يمكن أن تؤدي لا قدر الله إلى تشييع البلاد.. إلى مثواها الأخير.

٥ نوفمبر ٢٠٠٨

آخر الرؤساء المنايفة

امتنعت تمامًا عن الكتابة حول الانتخابات الرئاسية الأمريكية؛ لكي أتجنب التأثير على رأي الناخب الأمريكي. تظنني هازلًا؟ طيب، على الأقل هزلي أرحم من أولئك الذين كانوا يتمنون فوز «جون ماكين» بدلًا من «باراك أوباما» بالانتخابات، بدعوى أنهم يريدون عدوًّا صريحًا يتميز معه الحق من الباطل، دون أن يدركوا أن فوز «ماكين» كان يعني ببساطة خراب العالم على دماغ الكل في ظرف سنتين بالكثير، بالطبع ليس عندي ضمانة نهائية لعدم خراب العالم ما بعد «أوباما»، لكنني أؤمن أن وجود مزيد من الوقت قبل خرابه المستعجل أمر يجب أن يدعو للابتهاج.

لذلك ولذلك كله أدعوكم لمشاركتي في حمد الله والثناء عليه ثناءً يوافي نعمه ويكافئ مزيده؛ لأن إرادته شاءت ألا ينجح في الانتخابات الأمريكية ذلك الثنائي المدمر «ماكين ـ بالين»، والذي كنت حالفًا بالله غير حانث أنهما لو نجحا لأنهيت «كاريري» بيدي وذهبت بحالي ومحتالي إلى بقعة نائية أنتظر فيها نهاية العالم التي لم تكن لتتأخر كثيرًا على يديهما.

لو كنت قد تابعت ما تيسر من حوارات «بالين» وأدركت كم الغباء العصامي الذي ترفل فيه لفكرت فيما كنت أنتويه «تيبيكال». لا أدري هل شعرت مثلي عند مشاهدتها بأن مكانها الطبيعي أن تكون قيادية في الحزب الوطني الديمقراطي، يلّا أهي غارت! لتكون هزيمتها هي و«ماكين» ليست هزيمة للحزب الجمهوري أو هزيمة لدعاة الحرب وسماسرة السلاح، بل هزيمة ساحقة للغباء الذي أخذ فرصته أكثر من اللازم في حكم العالم. مستقبل الغباء الآن في خطر، لم يعد للأغبياء من حكام العرب نموذج يتحامون فيه. لن يستطيع موالسوهم الآن أن يقولوا مدافعين عن أولياء نعمتهم: «احمدوا الله أنهم ليسوا بمستوى

غباء جورج بوش». الآن عادت الأمور إلى نصابها في العالم، نموذج «بوش الابن» سقط شر سقطة. على من يرغب في تولي الحكم أن يتمتع بالكفاءة والجاذبية والحضور والرؤية. لا يكفي أن تحكم كما حكم «بوش الابن»، لمجرد أنك تريد أن تجلس على كرسي جلس عليه بابا، ولن يتحقق حلمك بالرئاسة لمجرد كونك الأعور وسط عميان.

الانتخابات الأمريكية تفضحنا، هذا ليس جديدًا، كل انتخابات العالم باتت تفضحنا. ما يفضحنا أكثر هذه المرة هو أننا لم ندرك بعد أننا وِحشين أكثر من اللازم. ها هي أكبر دولة في العالم تحكمت فيها العنصرية توصل مواطن أسود إلى سدة الرئاسة، بينما نحن الذين ندعي الحضارة ونتشدق بالدين نرفض تعيين مذيعة سمراء في التلفزيون الرسمي ونتهم من يطالب بخصوصية أهل النوبة بأنه ممول من الخارج. ها هم الأمريكان ينتخبون رئيسًا له أقارب في ثلاث قارات، بينما بعضنا يرى أن التحرش وجهة نظر إذا تم بفتاة من أصل غير مصري. صرنا للأسف نعيش في مجتمع فقد الكثير من الإنسانية، لدرجة أن انتصارًا تاريخيًّا كالذي حققه «أوباما» لا يهزه من الأعماق، بدعوى أن «أوباما» زيه زي غيره؛ سيدافع عن مصالح إسرائيل، مع أننا جميعًا بضعفنا وسلبيتنا وطرمختنا أكبر دفاع عن مصالح إسرائيل. ومع أن انتصار «أوباما» لا يصح اختزاله في بعد واحد هو انحيازه لإسرائيل؛ لأننا لو كنا أقوياء ومحترمين لما انحاز هو ولا غيره لإسرائيل. وكم هو مثير للأسى أن نحرم أنفسنا من مشاركة ملايين المستضعفين في الأرض من ابتهاجهم بنصر «أوباما» كرمز للكفاح ضد العنصرية، كفاح بدأ براكبة أتوبيس أسود صرخت من أعماقها رافضة أن تنصاع للعنصرية: «لقد سئمت من هذا»، وتواصل بصرخة «مارتن لوثر كنج»: «لديَّ حلم»، وها هو يصل إلى ذروة ساحرة بفوز رئيس من أصل أسود.

طيب إذا كنا لا نريد أن نفرح مع العالم فعلى الأقل دعونا نواجه أنفسنا ونسأل متى سنسأم من حالنا؟ وإلى أي ذروة سيوصلنا هذا اليأس الذي بتنا نظنه شطارة؟ ولماذا لا نوسع سقف أحلامنا فلا نحلم فقط بأن تصل المطافئ في موعدها، بل نحلم ونعمل من أجل اليوم الذي يحكمنا فيه رئيس من أصل غير منوفي؟!

مع خالص احترامي للمنايفة رؤساء ومرءوسين.

٦ نوفمبر ٢٠٠٨

كل ما تتزنق بيع

من أجل إنفاذ خازوق التوريث لا بد من توسيع قاعدة الملكية.

أنا فهمت الحكاية هكذا، فكيف فهمتها أنت؟

من فضلك لا تلمني وتتهمني بالهزار، فالهزار الآن هو سيد الموقف. مستقبل مصر الآن تحكمه فكرة مسرحية هزلية راودت ذات يوم ساخرًا عظيمًا اسمه يوسف عوف رحمه الله، فكتبها ثم تلقفها منه سيناريست مبدع اسمه طارق عبد الجليل وكتبها في سيناريو جميل اسمه «عايز حقي»، آمن به كوميديان لامع اسمه هاني رمزي ومخرج شاب اسمه أحمد جلال ومنتج كان قد دخل عالم الإنتاج لتوه اسمه كامل أبو علي. ومع أنهم جميعًا أصدقائي إلا أنهم لا يتحملون مسئولية قسمي بالله العظيم إنه بالتأكيد لم يكن يخطر في بالهم أن فكرة بيع مصر وتفريقها على الشعب، والتي أحبطها فيلمهم في نهايته بقوة الدراما وصدق السخرية، سيأتي في خلال سنوات قليلة من يحولها إلى منهج حياة تعيش عليه مصر في السنين القادمة التي لا يعرف نهايتها إلا الله.

لسوء حظ مصر أن طارق عبد الجليل لا يحكمها؛ فقد اختار بحس وطني أن يرفض بطله صابر الطيب بيع مصر للأجانب حتى لو كان ذلك باسم حصول المصريين على حقوقهم. أما الذين يحكمون مصر الآن فقد قرروا أن يبيعوا اللي حيلة مصر لفقراء المصريين لكي يقوم بعض هؤلاء بدورهم اضطرارًا أو جهلًا أو عجزًا أو قلة حيلة ببيعها للأجانب، وعندما يأتي أحد ليعترض وقتها على ذلك البيع سيقف بعض الفقراء ليشتموه: «يا راجل يا جزمة يا اللي مالكش لازمة». تمامًا كما فهم بعض فقراء الفيلم رفض صابر الطيب خطأً فشتموه عندما رفض أن يبيع البلد لمجهولي الهوية والنية.

«يا ولاد الذين!». أنا لن أقولها مثلما قالها البعض فأدعي أنني أكثر وطنية من الذين يقفون خلف هذا المشروع، وأنني أكثر حرصًا منهم على مصر، ضميري لا يسمح لي أن أفترض سوء النية وخبث الطوية في مشروع لم تتضح معالمه كلها بعد، ضميري لا يسمح لي أن أهرتل لمجرد أن أظهر بمظهر العليم ببواطن الأمور فأقول إنه تحت غطاء هذا المشروع سيتم بيع الأهرامات والنيل وقناة السويس والسد العالي لأن باطن الأرض سيكون أرحم من ظاهرها هذا إذا لم يتم بيعه هو راخر، ضميري لا يسمح أن أقف ضد مشروع يمكن أن يكون فيه خير لفقير واحد مش لاقي اللضا، لكن ضميري أيضًا لا يسمح لي أن أكون شيطانًا أخرس فأسكت عن الحق؛ حق السؤال عن ضمانات ألا يتحول هذا المشروع إلى بيع مرحلي لأصول مصر سواء بسوء نية أو بغباوة أو حتى بغشاوة؟ والسؤال عن ضمانات ألا تسقط مصر كغيرها، وبين عشية وضحاها، تحت احتلال الشركات العابرة للقارات وإن اختبأت خلف وجوه وكلائها المصريين العابرين للذمم؟ والسؤال عن موقف أجهزة الأمن القومي في مصر والتي نعتبرها أملنا الأخير من مشروع كهذا؟ وهل درس من فكر فيه آثاره على مستقبل البلاد دراسة وافية دقيقة؟ وهل المسألة فك زنقة مالية أم فك زنقة توريث أم خبط عشواء كسائر الخبط الذي «نعشوائيه» في البلاد؟ ثم أخيرًا هل هناك دولة أخرى في العالم مشروعها القومي هو البيع؟

في العادة لست أبله لكي أنتظر أي إجابة عن أسئلتي، لكنني بسبب خطورة هذه الأسئلة مستعد لكي أكون أبله فأنتظر إجابات عن هذه الأسئلة الخطيرة ممن يهمه الأمن القومي لهذا البلد الذي لعله من الأشرف له أن يعيش فقيرًا مستقل الإرادة بدلًا من أن يكون مسلوب الإرادة ومعاه قرشين، وأنت تعلم أنني لن أخدعك بأن أصور لك أننا من حيث الإرادة مية فل وأربعتاشر، لكن ليس البديل أن تكون إرادتنا بالماينس.

يبقى بداخلي سؤال أخير، سؤال مرير، مرير إلى حد أنك لن تكون مضطرًا للبحث له عن إجابة: يا ترى الجندي الذي وقف على شط القنال قبل ٣٥ عامًا في يوم ستة أكتوبر المجيد حاملًا روحه على كفيه لكي يقدمها فداءً لاسترداد تراب مصر الغالي، إلى أي اتجاه كان سيسير لو عرف أن مصر ذات يوم «هتفرّق أصولها على أولادها ليتصرفوا فيها.. كل واحد بمعرفته».

١٢ نوفمبر ٢٠٠٨

صفعة عزام

إللي نعيده نزيده. قدري وقدرك ولا فكاك لنا منه إلا بأيدينا. قلتها قبل ذلك وأقولها مجددًا: الكلام السهل لا يحل المشكلات المُعقَّدة، بل يزيدها تعقيدًا. هات أي أحد من خلق الله في بلاد الله وقل له ذلك، سيرد عليك بأن معلومة كهذه صارت معلومة من الحياة بالضرورة، ستحرج وستعتذر له بأنك لم تكن تعرف ذلك لأنك «من البلد دي»؛ حيث لا يفكر الناس في حل مشاكلهم إلا بالكلام السهل الذي لا يحل، بل يربط فقط.

آخر المشاكل المعقدة التي نظن أن الكلام السهل سيحلها: مشكلة الإهانات المريرة التي يتعرض لها المصريون في الدول العربية، والتي صارت فقرة ثابتة مع الأسف ومع صحف الصباح ومع برامج النكد المسائي. كل يوم والثاني يتغير دمنا مع تغير المواطن المهان وتغير الدولة المهينة وتغير أسلوب الإهانة من الحبس إلى الجلد إليهما معًا، لكن مهانتنا تظل ثابتة لا تتغير.

المهانة صعبة وقاسية، والتخلص منها أشد صعوبة وقسوة، لكننا دائمًا لا نختار سوى الحل السهل؛ وهو أن نفش غلنا في شعب الدولة التي أهانت بلدياتنا فنتبارى في تذكير أهلها الحفاة العراة رعاء الشاء بأفضالنا عليهم، وكيف أننا الذين علمناهم كل شيء من جدول الضرب إلى طريقة مسح عماص العين، وأننا الذين عالجنا وبنينا وحاربنا وربينا وكبّرنا وكان نورنا أول نور في الدنيا شق ظلام الليل، وما إلى ذلك من كلام يتزل على جراح مهانتنا مرهمًا مُخدرًا ملهيًا فيتهيألنا أنها طابت وأننا أخذنا بثاراتنا ولقنّا الجاحدين درسًا قاسيًا سيجعلهم يفكرون ألف مرة قبل أن يدوسوا لأي منا على طرف. ودائمًا نكتشف أن ما نردده من كلام سهل لا يجيب لنا سوى الكلام الأمَرّ والأقسى؛ إذ نستثير

ثائرة الغوغاء في الدولة التي نعايرها بأفضالنا ليعايرونا بأن من ذهب منا إليهم ليُعلِّم أو يُعالِج أو يبني لم يذهب لوجه الله، وإنما ذهب لكي يُكوِّن مستقبله أو يُؤمِّن مستقبل أولاده، وأن حكومتنا لم تقم بأي موقف وقفته إلى جوار هذه الدولة أو تلك إلا بعد أن قبضت ثمنه أضعافًا مضاعفة، وأننا إذا كنا محروقين جدًا على كرامة المواطن المصري في الخارج فلماذا لا نكفل له الكرامة في الداخل أولًا، وما إلى ذلك من كلام يجيء لنا على الوجيعة فنتفنن من جديد في تدبيج كلام أكثر سهولة وأسرع في شفاء الغليل ومرهمة جراح المهانة، إلى أن يتدخل أولاد الحلال لدى الطرفين لتهدئة النفوس وتذكير الجميع بالأواصر والوشائج والعلاقات التاريخية والليالي الحلوة والشوق والمحبة. وبعد أسبوعين بالكثير تنشر الصحف في صفحاتها الأولى صورة مسئول كريم يحتضن مسئولًا كريمًا من الدولة المُهينة في مطار الدولة المُهينة، وبعدها بيوم اقرأ في صفحة ثمانية عن مشروعات عملاقة جديدة تمولها الدولة المُهينة، ليبقى الجرح على ما هو عليه؛ مهانًا في انتظار ناكئ جديد.

في الدول التي لا تهون ولا يسهل الهوان عليها، عندما يشاك مواطن لها بشوكة خارج حدودها وتشك هي أن تلك الشوكة متعمدة، لا تكتفي بإعطاء محاضرات تاريخية عن فضلها على العالم، ولا تقف مرتعشة تُقدم تساؤلًا وتؤخر عشرة، ولا تكتفي بالدبلوماسية المرتعدة التي تحسب حساب الخسائر التي ستنتج عن رد كرامة مواطنيها وأثره على موسم السياحة العربية، ولا يظن مسئول بها أن الشطارة في أن تطنش وتعيش وتنتعش لكي لا تجد مائة ألف مصري عندك في مطار القاهرة في غمضة عين، ولا يفارق أي مواطن بها اليقين بأن لقمة العيش التي تؤكل بمذلة هي لقمة ملعونة لا تجيب لصاحبها سوى المرض الذي يصرف على علاجه ما قضى عمره خانعًا في تحصيله. يعني من الآخر، ودعنا نتجرع الكلام الصعب معًا: الدولة التي يأخذ فيها المواطن غير المسنود على قفاه في شارع جامعة الدول العربية من الطبيعي أن يتجرأ على مواطنيها كل المرضى نفسيًا في الدول الأعضاء في جامعة الدول العربية.

كلامي الصعب أختمه بذكر صفعة مدوية نلتها على يد الجاسوس الإسرائيلي عزام عزام، أكثر ما آلمني فيها أنني سأظل عاجزًا عن ردها له. كان مذيع قناة العربية أحمد عبد الله قد حاول استفزازه بقوله: «لقد دافعت عنك إسرائيل لأنك كنت جاسوسًا لها».

لم يفكر عزام كثيرًا في الإجابة، بل قال له: «لأنني مواطن في دولة ديمقراطية ليس شرطًا أن تكون جاسوسًا حتى تدافع عنك دولتك.. أنا خدمت العلم في هذه البلد وأخي قُتل من أجلها، لذلك هي لا بد أن تدافع عني مهما حدث لي».

هل وصلتك الصفعة؟ هذا ما كنا نبغي. اصفعها لكل من تعرف جزاك الله خيرًا. فربما تسببت في أن يرتد عقلنا إلى رأسنا فنعرف خلاصنا كباقي خلق الله في بلاد الله.

١٤ نوفمبر ٢٠٠٨

وخسر شعبه

في أول يوم من هذا الشهر ذهبت أنا وأصدقائي: المخرج جمال عبد الحميد، والممثل أحمد رزق، والمنتج هشام شعبان، إلى جزيرة القرصاية بدعوة كريمة من أهلها الذين منحونا وسامًا رفيعًا بتكريمهم لنا على مسلسل «هيمه أيام الضحك والدموع» الذي برغم تعرضه لممارسات شرسة من التعتيم منعته من العرض الأرضي في آخر لحظة، فإنه وصل إلى مستحقيه بحمد الله ثم بفضل وصلات الدش. يومها تدفق علينا حب غامر من ناس القرصاية البسطاء الذين وصل تجاوبهم مع المسلسل إلى حد تماهيهم مع شخصياته. أحد الأهالي أشار لنا إلى سيدة زي العسل وقال: «دي بقه أم محمد بتاعة اللبن اللي عملت دورها الست عبلة كامل». مُتنا من الضحك بسبب الثقة التي كان يتكلم بها. وبدأنا نسأله أين باقي الشخصيات التي لعب أدوارها نجوم المسلسل. شعرت يومها بسعادة بالغة أفسدها حزن مرير مبعثه أنني كنت أُفضِّل أن يقول لنا الناس إننا بالغنا في التعبير عن حياتهم وزودناها حبتين.

هؤلاء أناس أدارت لهم الدولة ضهرها سنين طوييلة، وعندما قررت أن تتذكرهم فعلت ذلك فقط لكي تستولي على أرضهم، وعندما وجدتهم مستعدين للموت بداخلها، قررت أن ترهبهم بلنشات تطوف طيلة اليوم حول الجزيرة، وبإنشاءات تسعى لحجب الجزيرة عما حولها؛ لكي يطفش أهلها عن أرض آبائهم وأجدادهم. أخذت أنظر في عيون أطفال الجزيرة الذين تحلقوا حولنا يحكون لنا كيف قاوموا بأجسادهم الهجوم على أرضهم، وكيف أنهم مستعدون لأن يموتوا في أرضهم لو حكمت. صحيح فرحت لأنهم كانوا يقومون بترديد جمل وأبيات من حوارات المسلسل وأغانيه، لكنني لم أتمكن من مقاومة مرارة أن هناك في بلادنا من يدفع الأطفال ويضطرهم لأن يفكروا في الموت كسبيل للاستمرار في الحياة.

قبل يومين زف إليَّ المحمول أصوات أهالي القرصاية وهي تعلو بالزغاريد والضحكات والدعوات للقضاء المصري الشامخ الذي أوقف قرار طردهم من أراضيهم وأمر بتقنين أوضاعهم. عشت فرحتهم متمنيًا أن يكفيهم الله شر مفسدي الفرحة الذين لا يغادرون صغيرة وكبيرة للتنكيد على المصريين وسم أبدانهم إلا وسعوا إليها. تمنيت - ببراءة أو بسذاجة، الله أعلم - أن يكون إنصاف القضاء لأهل القرصاية بداية لفتح صفحة جديدة مع سائر السكان الأصليين لمصر، الذين تفتح عليهم الدولة نيرانها فجأة لتحقيق مصالح رخيصة أو تطبيقًا لسياسات خرقاء مليئة بالعند والمَعيلة يقف وراءها مسئولون باتوا يُشكِّلون تنظيمًا علنيًّا يتفنن في اتخاذ سياسات لو اجتمع أعدى أعداء البلاد لما تمكنوا من تحقيق ما يحققه من نتائج كارثية.

سألت نفسي: هل يُقرر الرئيس مبارك أن يزور أهالي القرصاية والدويقة وسيناء والمحلة والطريق الصحراوي وجميع المُضارين من سياسات التنظيم الحكومي غير المحظور، بعد زياراته المهمة لجنوب السودان والهند التي لا يمكن لإنسان عاقل ألّا يفرح بها ولا ينتظر زيارات رئاسية أخرى مهمة لجميع الدول التي تتغير بينما نحن نستقر. العاقل بالطبع يجب أن يفرح بفتح نوافذ جديدة يدخل منها هواء جديد إلى بيته، شريطة ألا تنسيه فرحته بالنوافذ الجديدة أن البيت حافل بالشروخ والتصدعات ولا بد من ترميمه قبل أن ينهد.

يا سادة، قبل أن تفتحوا أحضانكم للعالم، افتحوا أحضانكم للشعب، فماذا يستفيد الإنسان لو كسب العالم وخسر شعبه.

٢٠ نوفمبر ٢٠٠٨

فلقد مهد الخراب أبوكا

مرة سألت شاعرنا الكبير أحمد فؤاد نجم: لماذا لم يهجُ أحد الحكام العرب مثلما هجا سابقيه؟ فصمت قليلًا ثم قال لي بنبرة تسليم: «وده يتهجي منين بس!». ثم صارحني بأنه حاول مرة أن يهجوه فلم يخرج إلا ببيت شعر واحد قال فيه: «سبحان مَن خَلقك ونشَّاك.. وصوَّرك ستة في تسعة».

لم يخلُ عصر في مصر من شعر يهجو حكامها بأبيات لاذعة. ومع أن هذا العصر حظي بحرية نشر لم تشهدها العصور السابقة، إلا أنه خلا من وجود حركة شعر هجاء صريحة؛ فلم تظهر فيه قصيدة مثل «يا محلا رجعة ضباطنا من على خط النار»، ولا قصيدة مثل «بيان شحاتة المعسل». قد يُفسر البعض ذلك بأن الصحف المستقلة ومنتديات الإنترنت ووسائل المحمول تولت لعب هذا الدور ثالثًا ومثلثًا، لكنني لست مع هذا التفسير؛ لأنه لا يوجد كتابة في الدنيا كلها تُغني عن الشعر أو تُقارب سحره وتأثيره على الناس.

الناس متعطشون لاشتباك الشعر مع واقعهم، ليس في ذلك شك، وإلا لما أخذ بعض أهل الإنترنت أبيات الخال عبد الرحمن الأبنودي: «ويهين المَعنى الضَّابط ويدُوس بالجزمة على الحلم.. ربنا رازقه بِجهل غَانِيه عن كل العلم». ووضعوها بصوته على كليب تعذيب عماد الكبير، كأن المشهد وحده لم يكن كافيًا للتعبير عن بشاعة ما رأوه. والأبنودي لم يكن يهجو عصرًا بعينه، بل كان يغني وجع المصري في زنزانته الأبدية التي لا يتغير فيها إلا ألوان وجوه حراسها، ولذلك جاءت قصيدته كسائر شعره عابرة للعصور، طالع قصيدته الخالدة «الجزر والمد» التي كتب فيها عن «الحاكم الصدفة أبو سحنة مخيفة وخايفة»، وستُدرك كم يكتب الحكام لقصائد الشعراء الأحرار أعمارًا جديدة.

الأبنودي أكبر وأعظم من أن يخضع شعره لتصنيف أو يكون مرتبطًا بمناسبة، ومع ذلك اقتطع الناس من قصائده ما يفش غلهم من حكامهم. وتلك الرغبة في فش الغل هي أيضًا التي جعلت الناس يرددون قصائد نزار قباني وأحمد مطر كأنها كتبت للتو ضد هذا الحاكم أو ذاك، وهي التي جعلتهم يتطوعون لنشر القصائد التي كتبها في هجاء هذا العهد شعراء كبار مثل: حسن طلب، وعبد الرحمن يوسف، وعم أمين الديب شاعر الفلاحين الذي عندما حاول أن ينشر أشعاره على شرائط كاسيت اعتقله الأمن وصادر شرائطه، فأعاد إلى الأذهان تعذيبه للشاعر الكبير محمد عفيفي مطر في أوائل التسعينيات، وما حدث للاثنين على اختلاف شعريهما وظروف قمعهما يؤكد أن أي نظام أمني مهما بلغ جهله حريص على أن يرث عن كتالوجات سابقيه «تعليمة» خطورة الشعر على الأنظمة الفاسدة.

خوف الناس من القمع ربما جعل بعضهم يقرر أن يهجو الحكم المبارك في شعر سري أو شفوي تتداوله القعدات ولا تدونه الأوراق. خذ بالك أنا لا أتحدث عن تلك الرسائل الإلكترونية التي تصل إلينا عادة حاملة ما يتصور كاتبها أنه شعر، بينما هو ليس سوى هرتلة يفضفض بها مقهور مع روحه أو على روحه. مرة نسب أحدهم قصيدة ركيكة إلى عمنا نجم، ونفى نجم ذلك، ليس تعففًا من كون الأبيات جريئة وأحيانًا شبه بذيئة، بل لأن بذاءتها وجرأتها كانتا تخلوان من أي فن، وربما ظن الناس أن القصيدة من نظم نجم؛ لأن كاتبها حاول أن يُقلد أرجوزة «عريس الغفلة» التي لم تكن للأمانة تضاهي عبقريات نجم التي خلدها الزمن برغم قصفه لأعمار من هجتهم تلك القصائد.

هجاء الحاكم سرًا وشفويًا ليس بجديد في مصر. أشهر من قام به شاعر النيل العظيم حافظ إبراهيم الذي اختار أن يهجو حكام عصره سرًا، وكان يقول لندمائه: «الإنجليز نفوا الزعيم محمد فريد خارج مصر لأنه كتب مقالًا يمدح شعر الشيخ علي الغاياتي، فما الذي سيفعلونه بي لو نشرت شعرًا أقسى من شعر الغاياتي». للأسف أضاع الزمان كثيرًا مما أطلق عليه عباس العقاد «ديوان حافظ الشفوي»، لكنه حفظ لنا تلك الأبيات التي قالها سرًا في هجاء الملك فؤاد، ثم تم ضمُّها رسميًا إلى الطبعة الثالثة لديوانه، وجاء فيها:

يا مَليكًا بِرَغمِهِ يلبسُ التاجَ ويـرقـى بعرشِهِ مملوكا
إن أتمَّت يداكَ خرابَ مِصرَ فلقد مهَّدَ الخرابَ أبوكا
أبقِ شيئًا إذا أمضيتَ وفيما عن قريبٍ يأتي عليهِ بنوكا

هذا وتحت يدي جميع المستندات التي تثبت أن الأبيات السابقة من نظم حافظ إبراهيم وليست من تأليفي، وأنه قالها في الملك فؤاد، هذا فقط لكي لا يروح بالك لبعيد.

٢٤ نوفمبر ٢٠٠٨

تلك الخطابات

سبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله. كل الخطابات التي يلقيها السيد الرئيس في كل المناسبات خطابات تاريخية، ومع ذلك نكاد نخرج من التاريخ دون رجعة.

لن أتحدث بالنيابة عن أحد، سأتحدث بالأصالة عن نفسي فقط، أنا يا قوم أريد أن أحضر ولو لمرة خطابًا عاديًّا لسيادة الرئيس، ليس فقط لكي أعرف شكل الخطاب العادي قبل أن أموت، ولكن لكي يرتاح التاريخ قليلًا من المجهود الذي يبذله مع خطابات السيد الرئيس. بالله عليكم، على ماذا سيلاحق التاريخ، على خطاب افتتاح مؤتمر الحزب الوطني، أم خطاب افتتاح الدورة البرلمانية لمجلسي الشعب والشورى، أم خطاب عيد العمال، أم خطاب ليلة القدر، أم خطاب ذكرى أكتوبر، أم خطاب ذكرى ٢٣ يوليو، التاريخ له طاقة يا إخواننا! نرجوكم أعطوه الفرصة لكي يرتاح، وأتيحوا لنا الفرصة لكي نستمع مرة إلى خطاب عادي لعله يكون فيه الشفاء لأحوالنا ومشاكلنا التي لم تصلحها الخطابات التاريخية قطّ.

في سنة ١٩٩٥ كتبت تحقيقًا صحفيًّا بعنوان «مَن يكتب خطب الرئيس»، تتبعت فيه أسماء الكُتاب الكبار الذين ارتبطوا بكتابة خطب الرؤساء: هيكل في العهد الناصري، موسى صبري في العهد الساداتي، مكرم محمد أحمد في سنوات من العهد المُباركي. الآن لا أعتقد أن السؤال المهم هو «مَن يكتب خطب الرئيس؟»، بل السؤال الأهم «من يتذكر خطب الرئيس؟»، والسؤال يشمل حتى أولئك الذين يصفونها بأنها خطابات تاريخية ويفردون لها الصفحات الأولى من صحفهم في أسلوب لا يليق لا بتاريخ مصر ولا بتاريخ صحفهم، أتحدَّاك أن تسأل أحدًا منهم عن أي خطاب من خطابات الرئيس: ما الفرق بينها؟ ما هو الجديد فيها وما الذي تكرر فيها؟ وإلى متى سنظل نقرأ في صحفهم بعد كل

خطاب للرئيس عن «تحركات حكومية لتنفيذ توجيهات الرئيس في خطابه التاريخي» ثم لا تُسفر تلك التحركات عن شيء سوى الرجوع إلى الخلف؟ ولماذا لا نكتفي بخطاب واحد كل عشر سنوات نحاول أن ننفذ ما جاء فيه بما يُرضي الله؟ هل عشر سنوات كثير؟ أنا آسف، لن أقترح أن نكتفي بالخطاب الرئاسي كل خمس سنوات، فحاشا لله أن أطرح اقتراحًا يحرم الشعب من طلة قائده عليه، دعونا نكتفِ بخطاب رئاسي وحيد كل عام، فنحن نريد خطابًا يكون له مكان حقيقي في كتب التاريخ، خطابًا ينبع من حوار وطني حقيقي، لا من حزب وطني هلامي، خطابًا يحترم عقول الناس ويتذكر أن لهم ذاكرة تعي أنهم سمعوا هذا الكلام قبل ذلك ولم يتغير في حياتهم شيء، خطابًا نجلس نحن والتاريخ لنسجله في بداية العام، ونذاكره جيدًا، ونكرس طاقاتنا كلها لتنفيذ ما جاء فيه طيلة العام.

يا ناس يا هوه! دعونا من مهاترات الحكومة والمعارضة، دعونا من تقديس البشر، دعونا من النفاق الذي لا يُقدِّم بل يؤخر، دعونا من الضحك على بعضنا البعض، دعونا من اللعب بمستقبل الأجيال القادمة إلى المجهول، والتي أتحدى لو وجدتم فيها أحدًا يجلس ليستمع إلى كلام نشأ وترعرع وكاد يذبل وهو يسمعه، كلام من قبيل أن الأولوية لمحدودي الدخل، وأن الفترة القادمة لتنمية الصعيد، وأن مصر أولًا، كأنكم تعترفون أنها كانت طيلة السنين الماضية ثانيًا أو ثالثًا.

يا ناس، إذا كنتم تريدون أن تقنعونا أن كل خطاب جديد هو الذي يحمل معه التغيير التاريخي، فدعونا نصفر العداد ونبدأ من نقطة الصفر، وماله؟! فنحن لم نبتعد كثيرًا عنها، وها نحن كلها شهر، وسنبدأ عامًا جديدًا من عمرنا المديد مع سيادة الرئيس، فهل نطمع أن نرى خطابًا رئاسيًّا وحيدًا يكتفي بقضية واحدة للعام: إصلاح التعليم وكفى، الزراعة إن أمكن، تحسين الصحة وخلاص، ولتكن تلك القضية هي شغلنا الشاغل طيلة العام، بحيث تضع كل الهيئات الحكومية والخاصة والمختلطة تلك القضية نصب أعينها، ولا نشغل أنفسنا جميعًا بقضايا جانبية، ولا بخطابات تاريخية، ولا بوعود مدهونة بزبدة، ولا بمهاترات ترد عليها تبريرات تتوه في التنظيرات والمزايدات، ونظل محلك سر؛ فلا ننتقل خطوة حقيقية في حياتنا سوى خطوة الانتقال إلى إذاعة خارجية من أجل خطاب تاريخي جديد.

٢٦ نوفمبر ٢٠٠٨

إحنا معتقلين

الإنسان عدوٌ لما يجهل، لكنني أحب مجلة «إحنا» لأنني أعرف منها الكثير مما أجهله. «إحنا» مجلة شهرية يُحررها شباب زي الورد المستورد؛ أولاد ناس مبسوطين صحيح، لكنهم يحبون بلادهم على طريقتهم. أفكارهم مشوشة أحيانًا، لكنَّ صدقها يُجبرك على احترامهم. لغتهم ركيكة أحيانًا، لكن رغبتهم في التطوير الدائم لأنفسهم بقيادة كبيرهم شريف الألفي تزيدك محبة لهم وله من عدد لآخر.

فاجأتني «إحنا» هذا الشهر باعترافات صادمة نشرتها لمُدمن مخدرات منذ خمس سنوات؛ عُقدته الحقيقية أنه «مش عايز يبطل». أكثر ما أذهلني في اعترافاته للكاتبة سندس شبايك وصفه للمنطقة الصحراوية التي كان يذهب إليها لشراء المخدرات؛ حيث كان يسمع صوت مئات الحقن تتكسر تحت عجلات سيارته وهو يمشي في المكان الذي تحوَّل إلى مجتمع مكتف بذاته تُباع فيه المخدرات علنًا تحت حماية الأسلحة، ويستغل «الديلرز» حاجة الفتيات إلى المخدرات فيطلبون منهن أداء وصلات رقص وهن يتعرين أمام الموبايلات. في نفس العدد نشرت «إحنا» تحقيقًا خطيرًا بعنوان «آخر ما وصلنا له في عالم السكس: ابعت لي رصيد وأنا أفرجك»؛ حكى فيه الكاتب محمد حمدي حصيلة تجاربه كصحفي متنكر في منتديات الإنترنت لرصد ظاهرة وجود بنات يعرضن «خدمات جنسية أون لاين» تتمثل في مكالمات جنسية تعرض أجسادهن عارية دون أن تظهر وجوههن مقابل تحويل رصيد لهن على الموبايل يقمن بدورهن ببيعه والكسب منه. فاتن ٢٠ سنة تقول: «لقيت الكل طمعان في جسمي، وبما إني كده كده في الآخر هابيعه قلت أبيعه في النت أشرف من بيوت الدعارة». أخرى تقول إنها مُحجبة وأخلاق، ولكنها تفعل ذلك لأنها تُجرِّب لذة عمل حاجة ممنوعة. ثالثة لديها ٣ تليفونات؛ كل تليفون به خط تابع لشركة اتصالات وأقل

مبلغ تقبله هو عشرة جنيهات. ورابعة تقول إنها بس بتتدلع شوية في الكلام مستغلة سذاجة الرجال ثم ترمي شريحة الموبايل وتشتري أخرى وتبدأ من جديد.

أصابني ما قرأته بالذهول، فوضعت المجلة جانبًا وأنا أسأل نفسي عن موقف أجهزتنا الأمنية التي تتشطر على شباب «الفيس بوك» وكفاية والمدونين (آخرهم المدون محمد عادل الذي يشكو أصدقاؤه من اختفائه القسري)، وجاني الرد جاني في رسالة حملت إليّ خبر القبض على المُدوِّن البراء أشرف الذي إذا كنت تسمع اسمه للمرة الأولى ستظن أنه أحد كبار مساعدي بن لادن، لكنك إن بحثت عن اسمه على الإنترنت ستعرف أنه كاتب موهوب يحرر مدونة جميلة في أغلب الأحيان اسمها «وأنا مالي»، فضلًا عن كونه مخرج أفلام تسجيلية لعلك شاهدت منها فيلم «الصحفيون الجدد» الذي عرضته قناة الجزيرة. قوات الأمن الباسلة ألقت القبض عليه في العياط وهو يُصور فيلمًا تسجيليًا عن الحجيج، والنيابة أطلقت سراحه في نفس اليوم. هرعت إلى مدونته لأطمئن على أخباره ويا ليتني ما فعلت؛ فقد وجدت فيها تدوينة مذهلة أرفقها بصور اقتطعها من «الفيس بوك» مصداقًا لتدوينته التي تحكي قصة أتمنى ألا تكون حقيقية عن آنسة عمرها ٢٩ سنة أنشأت لنفسها صفحة على «الفيس بوك» باسم بنت الليل، صار لها على الفور ٥٤٠ صديقًا تطرح عليهم بنت الليل التي تنشر صورتها مع الصفحة أسئلة من نوعية: «في بنت أجمل مني؟»، فيرد عليها الصديق ميدو الباشا قائلًا: «ممكن نتعرف.. اسمي ميدو من مصر.. ودا رقم موبايلي ٠١٠٤١٤٦٨٧٠، لو انتي بتحبي المتعة والجنس أنا ممكن أمتعك أوي أوي.. ممكن ترني عليّ وأنا أطلبك ونتفق». بينما يقول لها آخر إنه هو وولاد عمه في البلد نفسهم يقابلوها. أما الصديق شريف سمير فطرح سؤالًا مغايرًا نشر معه صورته الغراء التي يبدو فيها أنه راجل كبارة قائلًا: «ممكن نمارس الجنس ع الموبايل على سبيل التعارف».

أغلقتُ المدونة وأنا أرثي لحال بلادنا التي تقمع حكومتها المباركة الشباب إذا مشوا في سكة التعبير عن ذاتهم تدوينًا وتظاهرًا ومشاركة سياسية، فذلك من وجهة نظرها المشي البطال الذي يستوجب الحساب العاجل، أما اللواتي يمشين على حل شعورهن في سكة البلحة المقمعة الديجيتال، فالحكومة الليبرالية تترك حسابهن ليوم الحساب حرصًا على استثمار جهودهن في ركوب عجلة التنمية ورفع معدل النمو.

٢٧ نوفمبر ٢٠٠٨

حكاية رومانية

هذه حكاية رومانية ساحرة يطيب لي أن أعيد حكايتها وسماعها ثم حكايتها دون أن يعرف الملل إلى قلبي طريقا أبدًا. حكاها لي فيلم فذ اسمه «ذي جلادياتور» للمخرج العظيم «ريدلي سكوت»، أتمنى أن تكون قد اكتحلت عيناك برؤيته وإن لم تكن قد اكتحلت بعد فسارع إلى جعلها تحظى بنعيم ذلك الاكتحال.

قال الراوي يا سادة يا كرام: كانت روما قلقة على صحة إمبراطورها العجوز «ماركوس أوريليوس» الذي كان يحمل على كاهله فوق أعباء المرض عبء توريث إمبراطوريته لابنه «كومودوس» المكروه من الشعب، الذي كان يظن أنه لن يكون أهلًا لخلافته. كانت أزمة الخلافة تشتد كلما تدهورت صحة الإمبراطور العجوز، ولذلك فقد فكر في اتخاذ قرار جريء هو عزل ابنه عن الخلافة التي لم يكن يراه أهلًا لها وتعيين خليفة غير متوقع له هو كبير قادته «ماكسيموس»؛ والذي كان محبوبًا ومشهورًا بالقوة والعدل. كان باختصار الخليفة المثالي الذي يتمناه أي سلطان عنده ضمير يخاف على مصير بلاده. استدعى الإمبراطور ابنه إلى خيمته، وعلى ضوء الشموع الذابلة قال له وهو يغالب حزنه ومرارته: «يا بُني كنت أتمنى أن تكون صالحًا لخلافتي، لكنك للأسف افتقدت أربع فضائل لا يمكن أن يستغني عنها أي حاكم: الحكمة، والعدل، والجَلَد، والاعتدال». لم يأخذ الابن الشاب المتعطش لشهوة السلطة وقتًا لكي يتأمل ما قاله أبوه، بل إنه، وهذه هي المفاجأة، اتفق مع أبيه في افتقاده إلى تلك الفضائل، لم يفاوحه ولم يجادله، لكنه أيضًا لم يتواضع، بل قال بغطرسة من يرى أنه يمتلك فضائل أهم: «نعم، ما تقوله صحيح، لكنني أمتلك أربع فضائل أخرى هي: الطموح؛ والطموح يمكن لمن هو في مثل سني أن يكون فضيلة، والدهاء، والشجاعة؛ صحيح أنها ليست على أرض المعركة لكن يكفي أني أمتلك الشجاعة، وأخيرًا أمتلك الإخلاص.. لأسرتي».

هكذا نطق ولي العهد الشاب، ويا ليته سكت، يا ليته أراح قلب أبيه بتقبل عيوبه والعمل على إصلاحها، على العكس، قال كلامه المتغطرس الأرعن الذي جعل أباه يدرك أنه كان مُحقًّا عندما قرر أن يختار ولي عهد آخر لحكم بلاده غير ابنه الذي لا يكفي كونه من سلالة الملوك لكي يكون ملكًا صالحًا لحكم البلاد، صمت الإمبراطور العجوز قليلًا وربما شكر الآلهة لأنها ألهمته أن يتخذ القرار المناسب في الوقت المناسب، ثم قال لابنه بتصميم: «روما ستعود جمهورية كما كانت والقائد «ماكسيموس» هو الذي سيتولى الحكم حتى يختار مجلس الشيوخ حاكمًا آخر لروما». ذهل الابن، وتصارعت في نفسه مشاعر متناقضة؛ ما بين شوق عارم للسلطة وخوف رهيب من ضياعها وإحساس بالفضيحة والعجز بسبب ما قاله له أبوه. كل هذه الأحاسيس الثقيلة على النفس تفاعلت في وجدانه وفجرت بداخله بركانًا من الحقد على أبيه الذي أراد أن يحرمه من الحلم الذي عاش عمره كله يحلم به، فتح ذراعيه لأبيه الذي كان هو الآخر تختلط في داخله مشاعر من المرارة والعجز والخوف على إمبراطوريته. ظن أن ابنه يريد أن يحتضنه تسليمًا بقراره الحكيم فاندفع إلى حضن ابنه الذي دفن رأس أبيه العجوز في صدره ليكتم أنفاسه. أخذ الأب العجوز يحاول أن يتملص من حقد ابنه ومن شهوته للسلطة، لكن شهوة السلطة كانت أقوى من مقاومة الأب وأقوى من مشاعر الابن التي تطالبه بأن يرحم أباه.

مات الأب مختنقًا برغبة ابنه العارمة في الوصول إلى السلطة التي لا يمتلك فضائلها، ومات معه حلم أن تعود روما جمهورية كما كانت، يحكمها الأقدر على حكمها، يحكمها الذي يمتلك فضائل العدل والحكمة والجلد والاعتدال، لا الذي يمتلك فضائل الطموح والدهاء والإخلاص لأسرته وذوي الحظوة لديه. مات الأب ليجلس الابن على عرش أبيه ويبدأ معه مشوارًا من الطغيان والاستبداد والتفريط في ثروات البلاد وظلم العباد، مشوارًا انتهى في الفيلم نهاية سينمائية سعيدة قد لا تحدث على أرض الواقع بمقتله على يد كبير القادة الذي لم يمت إلا بعد أن حقق حلم الإمبراطور العجوز بعودة روما لتصبح جمهورية من جديد.

وفي الذاكرة، ذاكرة التاريخ وذاكرتك أنت مُشاهد هذا الفيلم ستبقى آخر جملة قالها الإمبراطور الأب لابنه: «أخطاؤك كابن هي فشلي كأب».

٢٥ ديسمبر ٢٠٠٨

«المتَاخرَة» المصرية

«يا أخي حرام عليك.. يلعن أبو دي دماغ!». هكذا هتفت في صديقي الحقير فور أن قال ببرود منقطع النظير: «إلهي وانت جاهي المبادرة المصرية بتاعة غزة تفشل». أخذت أصرخ فيه: «يا أخي حرام عليك! وإيه ذنب الفلسطينيين المساكين.. إنت ما عندكش إحساس فعلًا!».

قبل أن أمسك بخناقه، رسم على وجهه ابتسامة فيلسوف بأقوال الحكماء شغوف، وأخذ يشرح منطقه الأعور: «ومين قال لك يا أخي إني ما باقولش كده إلا عشان مصلحة الفلسطينيين؟.. مشكلتك إنك ما بتبصش لقدام.. المبادرة دي لو نجحت الحزب الوطني هيمسكها زلة مش بس للفلسطينيين.. لأ ولينا إحنا كمان.. لما إحنا سايبينهم يتدبحوا وواقفين بتفرج زي ما يكون اللي بيحصل ده خناقة مش مجزرة، وعمّالين ندخّل لهم المساعدات بالقطّارة، وبنمنع الأطباء المستعدين للتضحية يدخلوا غزة عشان إحنا يا عيني خايفين عليهم وبنحميهم من نفسهم.. ومع ذلك جرايد الحكومة وقنواتها وبلطجيتها نازلين طول اليوم كلام عن أفضالنا على فلسطين.. تخيل بقه لو المبادرة دي نجحت هيحصل إيه في الفلسطينيين.. بلاش.. إحنا كمواطنين هل هنستحمل كلام جديد عن حكمة القائد وبُعد نَظَره.. إنت ما شفتش اللي حصل لما اتقال إن المبادرة دي مصرية فرنسية.. رجالة الحزب الوطني سابوا الأطفال المقتولة والبيوت المهدودة وهاتك يا تأكيد على إن المبادرة شغل كايرو، وفرنسا مالهاش دعوة بيها خالص.. وفجأة أخبار الشهداء والأرامل نزلت تحت وبقى الخبر الرئيسي في الجرايد والنشرات إن العالم طاير بالمبادرة المصرية وبيشيد بحكمة الرئيس».

كان من الصعب أن أتركه يسترسل في منطقه الأبله، شخطت فيه بكل ما أبقته لي

الإنفلونزا من قوة: «يا غبي! كل اللي بتقوله ده سبب أدعى إنك تصلي ليل نهار عشان المبادرة تنجح.. على الأقل لو نجحت هنلاقي سبب وجيه يخلينا نستحمل طوفان النفاق المنهمر علينا في كل حال.. إنما لو ما نجحتش هيفضلوا الأطفال يتقتلوا.. وبدل الإعلام الوطني المبارك ما يمنّ على الفلسطينيين بنجاح المبادرة.. هيفضل يعايرهم ليل نهار باللي حصل لهم بسبب فشلها.. مش فاكر السبعتاشر جواب بتوع صدام حسين والتقطيم اللي حصل بسببهم للعراقيين واللي يتشددوا لهم.. مش فاكر بعد حداشر سبتمبر، لما العالم الغربي كله اتقطّم إنه ما سمعش كلام الريس.. يبقى أنهي أحسن يا متخلف.. المبادرة تنجح و لا تفشل؟». فجأة انقض صديقي على رأسي لكي يُقبلها مشيدًا بحكمتي ورافعًا أكفّ الضراعة إلى الله أن تنجح المبادرة المصرية حقنًا لدماء الأطفال، وإن كان على دمائنا نحن فقد تعودت على معاشرة النفاق.

بعد أن هدأ صديقي سألني مستزيدًا من حكمتي: «إنما انت ما قلتليش أساسًا إيه رأيك في المبادرة؟». فقلت: «لا يمكن أن يكون لي رأي ضد أي دعوة لحقن دماء الأطفال، لكنني معترض مبدئيًا على تسميتها بالمبادرة، وقد أتت بعد ١٢ يومًا من القتل الممنهج، مع أنها كان المفروض أن تأتي بالكثير بعد ١٢ ساعة من العدوان». نظر إليَّ بعدم فهم قائلًا: «يعني أرجع أدعي عليها تاني؟». قلت شاخطًا: «لأ يا غبي أنا معاها، بس كان نفسي نبقى منطقيين ونسميها المِتَاخرَة المصرية من التأخير.. عشان عيب العالم يعرف إن بلدنا رِتْمَها بطيء إلى هذا الحد». هزَّ صديقي رأسه موافقًا، ثم صوَّب نظرة عميقة باتجاه المستقبل، وعاد ليسألني بقلق: «طب هنعمل إيه لو المبادرة فشلت؟». صوبت نظرة أعمق باتجاه الماضي وقلت له بأمل: «أنا عن نفسي هادعو الرئيس مبارك لعمل مبادرة مصرية نحو الشعب المصري ليستعيد كرامته على أرضه؛ لأن فلسطين عمرها ما هترجع إلا لو رجعت للإنسان المصري حقوقه وهيبته وكرامته».

استغربت صمته وعدم مبادرته لتقبيل رأسي الحكيم، وفوجئت به يقول بصوت متهدج: «بص بقه أنا قررت أطلق مبادرة للحزب الوطني المبارك أطالبه إنه مش عيب يتعلِّم من عدوتنا إسرائيل.. يا ريت يعمل زيها ويوقف عدوانه على الشعب المصري تلات ساعات كل يوم.. عشان الناس تاخد نَفَسها وتلاقي نفسها وتداوي جراحها.. تلات ساعات ما يبقاش فيها سرقة ولا نهب ولا بيع أصول ولا تعذيب ولا قمع

مظاهرات ولا كذب ولا نفاق.. تلات ساعات يفتحوا لنا فيها معابر العدل والإصلاح والتغيير». فجأة انتهى حوارنا عندما جاءنا من الخلف صوت مواطن عجوز كان يجلس إلى جوارنا مُسترِقًا السّمع قائلًا لصديقي: «يا ريت يا ابني تقول لبتوع الحزب الوطني يفتحوا لنا ممرات آمنة عشان الأيام دي تعدي على خير».

نُشرت في يناير ٢٠٠٩، في أثناء
حرب الإبادة التي شنتها إسرائيل على قطاع غزة

قمة الفازلين

إذا كنت منشكحًا بما جرى في المهرجان الخطابي العربي الذي انعقد في الكويت تحت اسم «القمة العربية الاقتصادية»، فدعني أقل لك إنه من العيب أن يكون سيد شنتح نصبجي قهوتنا يمتلك وعيًا إستراتيجيًا أعمق منك.

سألت شنتح عن رأيه في القمة التي تابعتها القهوة عن بَكْرة أبيها، ليس باختيارها، بل غصبًا عنها؛ لأن تلفزيونها بيجيب القناة الأولى وبعدها بيجيب جاز، فقال بجدية تامة: «ما كانتش بطّالة المرة دي»، لكنه أعرب عن تأثره الشديد لأن كلًّا من القادة: ياسر عرفات، والشيخ زايد، والملك حسين، والعقيد القذافي، لم يحضروا القمة، مردفًا بقوله: «ما يصحش يعني.. الناس دي كلها ابتدت مع بعضيها ولازم تكمل مع بعضيها!». وعدته بتحري سبب غياب العقيد القذافي عن القمة، لكنني اضطررت لأن أفاجئه أن أبا عمار والشيخ زايد والملك حسين انتقلوا إلى رحمة الله، وأن الذين حضروا مكانهم ليسوا مندوبين عنهم، بل هم الذين مسكوا مطرحهم، وأن البركة في الباقيين الذين سيكملون المشوار وسيكملون علينا. ومع أن شنتح لم يجهش بالبكاء طيلة عمره إلا أنه هذه المَرَّة، ومن فرط حزنه، البكاء هو الذي أجهش بشنتح، والقهوة كلها اتلمت عليه تحاول أن تعزيه وتواسيه، وعندما قال له أحدنا عرضًا: «ما تزعّلش نَفْسَك.. المهم إنهم المرة دي اتفقوا». توقف عن البكاء فورًا ونظر إلينا بذعر وسألنا: «هم اتفقوا؟». قلنا له بفرحة طاغية: «الحمد لله.. تخيل إنهم اتفقوا!»، فهب شنتح من مقعده جاريًا من القهوة والذعر يتدلدق منه، وعندما حاولنا اللحاق به لفهم ما انتابه، هتف بنا: «اِلحقوا استخبوا يا بهايم.. طالما اتفقوا يبقى هيتفقوا علينا».

لست متشائمًا كشنتح، كما أنني لست مُنشكحًا مثلك، للأمانة كنت مُنشكحًا إبان سماعي لخطبة الرئيس مبارك، أعجبتني جدًّا الحتة بتاعة: «إذا لم تتصالح الفصائل الفلسطينية فسنقول لهم إن الله يساعد الذين يساعدون أنفسهم». صفقت لها من قلبي، لكن الوسواس الخناس أفسد فرحتي عندما سألني متى سنقول لأنفسنا هذه العبارة. أيضًا أعجبني خطاب العاهل السعودي وخصوصًا اعترافه باشتراك جميع القادة العرب في مسئولية ما حدث في غزة. خطاب أمير الكويت كان متميزًا. عمرو موسى حافظ على مستواه. لن أضيع وقتك في استعراض الخطابات واحدًا تلو الآخر؛ التي لم ينغص فرحتي بها سوى رؤية قادة أمة الضاد وهم يكسرون رقبة النحو العربي ويهوون على رأس الخليل بن أحمد الفراهيدي في قبره بالمزيد من أسباب التعاسة، لكنني على أي حال ترفَّعت عن أن أكون شكلانيًا وركزت في الجوهر، وحمدت الله أنه مد في عمري حتى أشهد اليوم الذي أرى فيه القادة العرب وقد استجابوا لدعوات التغيير فغيروا كتبة خطاباتهم. المهم الآن أن يتذكروا الخطابات بعد عودتهم إلى أوطانهم، ويجلس كل منهم مع الذي كتبها ليشرح له ماذا كان يقصد بذلك الخطاب الذي عمل شغلًا جامدًا في القمة، وكيف يمكن أن تتم الاستفادة منه عمليًا لتحقيق مصالحة بين الحاكم وشعبه بعد أن تحققت مصالحته مع أشقائه القادة.

أرجوك لا تفهمني بسرعة وتتهمني بالتهوين من نتائج ما حدث، ولا تتعلي أنت الآخر خطابًا عن أثر تلك المُصالحة على مستقبل الصراع العربي الإسرائيلي، فأنا لم تعد العشوائية تأكل معي ببصلة، كيف أبتهج ونحن أمة تحكم العشوائية كل تصرفاتها؟! عشوائيون في خنوعنا! وعشوائيون في مقاومتنا! وعشوائيون في خصامنا! وعشوائيون في مصالحتنا! إذا كنت تريد أن تفهم لماذا لم أستقبل ما حدث بترحاب وأمل، فليس عليك سوى أن تتابع تعليقات الساسة والإعلاميين في كل بلد عربي على ما حدث، لتكتشف أن السعودي نسب المُصالحة إلى عاهل بلده، والكويتي قال إن كل ما حدث سببه الحنكة الدبلوماسية لأميره، والسوري قال إن قلب رئيسه الكبير كان وراء نجاح المصالحة، أما تلفزيون بلدنا فقد وضع عنوانًا في شريط الأخبار: «استجابة لدعوة الرئيس مبارك: مصالحة بين قادة مصر والسعودية وقطر وسوريا»، كل هذا وأثر قبلة أمير الكويت على رأس الرئيس مبارك لم يجف بعد. بالمناسبة كنت فخورًا جدًّا وأنا أرى أمير الكويت يقبل رأس الرئيس لكي

يسترضيه ويدعوه إلى المصالحة، وسعدت أكثر بأن الرئيس استجاب للمبادرة، لكن فخري وسعادتي أحاطت بهما ظلال من الأسى عندما قال سيد شنتح بعد أن عاد ثانية إلى ممارسة دوره في القهوة: «ما تعرفلناش يا أستاذ سكة لأمير الكويت عايزينه يوصي الريس عشان يصالحنا».

نُشرت في يناير ٢٠٠٩، عقب القمة العربية
التي عقدت في أثناء حرب الإبادة الإسرائيلية لقطاع غزة

الأسطوانة المشروخة

هذه الأسطوانة المشروخة حفظناها خلاص. كلما وقعت في بلادنا المنكوبة بحكامها عملية إرهابية ناتجة عن خلل أمني أو كارثة بشرية بفعل إهمال جسيم أو فضيحة فساد مدوية، وقف مسئولو البلاد على اختلاف مواقعهم ليؤدوا نشيدهم الوطني الأثير الذي عشنا وترعرعنا وذبلنا ونحن نسمعه: «الإرهاب يحدث في كل بلاد العالم المُتقدمة.. الكوارث لا تحدث لدينا فقط.. الفساد ليس اختراعًا محليًّا، بل العالم كله يتكرع فسادًا».

لستُ مجنونًا أو حاقدًا لكي أعترض على مقولات كهذه، صارت معلومة من الحكم بالضرورة، حاشا لله، لكن يا أولاد الـذين آمنوا بمصالحهم لماذا لا تنقلون لنا ولو من باب الغلط شيئًا آخر من الأشياء التي تحدث في العالم؟! لماذا لا تتذكرون العالم المُتقدم إلا عندما تُصيبكم مصيبة بما كسبت أيديكم؟! لماذا نسيتم أن هناك أشياء أخرى في بلاد العالم مثل تداول السلطة، واحترام كرامة الفرد، واحترام عقل المواطن، والتقدم العلمي، وعدم توريث الأوطان للأنجال، والصدق مع النفس، ومحاسبة المفسدين، وعدم ضرب أي قاضي بالحذاء والقول له: «اخرس يا كلب»؟! يحدث هذا كله في بلاد العالم المتقدم، بل إنه يحدث وهذه هي المأساة في كثير من بلاد العالم التي كانت أشد تخلفًا منا.

لقد هريتم أحداث ١١ سبتمبر استشهادًا كلما وقع لدينا حادث إرهابي، وهذا حقكم، لكن ما ليس من حقكم أن تستعبطوا فيها فتنكروا أن تلك الأحداث عندما وقعت لم يكن أمن أمريكا مشغولًا بسحل المعارضين والتصنت على مكالمات كل من هبَّ أو فكَّر في الهبوب، وأن أمريكا منذ تلك اللحظة لم تشهد حادثًا إرهابيًّا بنفس القدر المفزع، لم تشهد كحالتنا عدة هجمات في نفس المكان على فترات متقطعة، وبالطبع لم يكن ذلك لأنها محظوظة، بل لأن أمنها يعمل من أجل أمن البلاد لا من أجل أمن حكام البلاد، ومسئولو

أمنها يعلمون أنهم لو قصروا في عملهم سيدفعون الثمن غاليًا، وسيُطالبون بتقديم تفسير رسمي مقنع لما حدث، ليس للقيادة السياسية، بل للمواطن الأمريكي العادي، وهم أولًا وأخيرًا يعلمون أن بقاءهم على الكرسي ليس وراءه انبساط ساكن البيت الأبيض منهم لأنهم ساعدوه على البقاء في الكرسي بالتزوير ومنع الناخبين من الوصول للجان.

التفجيرات والكوارث تحدث في كل بلاد العالم يا سادة، ماشي حفظناها، لكن وسائل إعلام بلاد العالم المتقدم لا تقف كالكسيحة لساعات حتى تتلقى التوجيهات اللازمة للتعاطي مع ما يحدث بعد أن يكون مواطن البلاد قد هاجر إلى قنوات تحترم عقله، ولا تتعامل مع التفجيرات والكوارث بالخفة والسذاجة التي يتعامل بها إعلامكم، فلا ينشر في صحفها أو يذاع في وسائل إعلامها أبدًا مانشيت يعبر عن فرحة ضحايا التفجير أو الكارثة بزيارة رئيس الدولة لهم، وأن تلك الزيارة نسَّتهم هموم الدنيا وخففت آلامهم خصوصًا والطب الحديث لم يثبت أن رؤية رؤساء البلاد لها مفعول «الكاتافلام» في التسكين، كما أن حكام تلك البلاد لا يذهبون إلى مواقع الأحداث مدججين بمنطق تبريري محفوظ سلفًا، بل برغبة في الفهم واستعداد للنقد الذاتي وإصلاح الخطأ ومحاسبة المتسبب فيه أيًا كان ومهما كان لون الريشة التي على رأسه.

التفجيرات والكوارث تحدث في كل بلاد العالم المتقدم، وبالطبع يغضب الرأي العام في تلك البلاد من أولئك السفلة الإرهابيين الذين لا يراعون في أبناء أوطانهم إلًّا ولا ذمة، لكنهم يغضبون أكثر إذا عرفوا أن ما قام به أولئك السفلة كان وراءه تقصير أمني فادح لا نجد له سببًا، خصوصًا أن رجال الأمن يحصلون على أعلى نصيب من ميزانية الدولة التي لا تصرف على التعليم والصحة بقدر ما تصرف على الأمن. وفي تلك البلاد من حق الناس مع تكرار الحوادث الإرهابية أن يطالبوا بمساءلة رجال الأمن أين كانوا عندما وقعت هذه الحوادث التي تدل على انفلات أمني، وهل كانت هذه الحوادث المؤسفة رد فعل لقرارات أمنية طائشة وسياسات حكومية فاشلة، هذه الأسئلة يا سادة هي التي يطرحها سكان العالم المتقدم دائمًا بعد وقوع أي تفجير إرهابي دون أن يتهمهم أحد بعدم الوطنية أو يقول لهم إن الوقت ليس مناسبًا لأسئلة كهذه أو يتشطر عليهم ويسعى لقمعهم هم بدلًا من الإمساك بزمام الأمور وفتح باب مصالحة وطنية وتغيير سياسته الأمنية إذا ثبت فشلها بدل المرة ثلاثين مرة.

للأسف كل هذا الكلام قلته من قبل وفي هذه الصحيفة بالذات، ولم ينفع ببصلة في تغيير شيء، أنا الذي تغيرت فلم أعد أتوقع أن يستجيب لكلامي أحد، فقد تواضعت أحلامي إلى حد أنها انحصرت في ألا يحدث انفجار جديد يضطرني لأن أقول لك هذا الكلام من جديد.

فبراير ٢٠٠٩

حديث عن الرئيس البديل

أبشع خطيئة ارتكبها نظام الحزب الوطني المبارك بعد أكثر من ربع قرن من حكم مصر أنه جعل الإخوان المسلمين بديله الوحيد، وجعل أيمن نور بطلًا.

أقولها هكذا بصريح العِبارة وأنا الذي تعففت عن أن أكتب حرفًا واحدًا يخص أيمن نور طيلة فترة سجنه، لا لأنه ليس من الفروسية أن تهاجم رجلًا في محبسه، بل لأن تهمة التزوير التي أدين بها وساقوه بها إلى السجن هي وسيلة التنفس الاصطناعي التي نجح بها الحزب الوطني أن يكبس على نفس البلاد كل هذه السنين. وعندما كان بعض القراء الأعزاء يرسل إليَّ رسائل طيلة السنوات الماضية يستغرب أنني لم أكتب حرفًا عن أيمن نور؛ لا بالسلب ولا بالإيجاب، كنت أعده بأنني سأقول رأيي إذا كان يهمه عندما يخرج بالسلامة من السجن. كنت أراهن على ضعف ذاكرة القُراء، إلا أن رهاني قد خاب، فوجدت نفسي مطالبًا بأن أكون قد كلمتي، ولذلك حاولت أن «أتلاءم» على القراء ومعهم، وأطلب تأجيل رأيي إلى ما بعد زيارة الرئيس مبارك القادمة لأمريكا؛ لأنني أشعر أن أيمن نور سيعود بعدها إلى السجن مشتبهًا في قتله لسوزان تميم.

لم تنجح المحاولة بالطبع، وإلا لما كنت قد قرأت هذه السطور التي كان يجب أن أبدأها بأن أحمد الله وأثني عليه وأصلي وأسلم على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وعلى آله الأطهار وصحبه الأبرار والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، ثم أبارك لأيمن نور وزوجته السيدة جميلة إسماعيل ونجليه وأسرته على الإفراج الصحي، ثم أنظر إلى عداد الكلمات؛ لكي أعرف هل انتهى العدد المخصص لكلمات العمود، ثم أكتشف أنه لسه بدري، فأقول مُغيّرًا الموضوع إن الطريقة التي تم الإفراج بها عن أيمن نور هي التي تلخص كل ما يمكن أن يقال عن هذا النظام. على حد علمي لا يوجد نظام متقدم في

العالم يخرج بمرشح رئاسي سابق من سجنه ليضعه أمام بيته دون أن يعرف ما إذا كان قد خرج بالفعل من السجن، أم أنه سيجد فجأة من يضربه بالنار لأنه هرب من السجن، بالطبع سيعد ذلك من آيات الرحمة والحنية إذا قارنته بما حدث للكاتب الحر عبد الحليم قنديل الذي ألقوا به في صحراء المقطم ظنًّا منهم أنهم قد عرّوه فإذا به يعريهم ويعرّهم، أو بما حدث للعالم الجليل الدكتور عبد الوهاب المسيري الذي خطفوه من قلب المظاهرة و«سرّبوه» في صحراء التجمع الخامس دون أن يدركوا أنهم يرفعونه درجة في الجنة ويحفرون لأنفسهم دركًا أسفل من الذي وصلوا إليه «أولريدي».

الحمد لله، بقي فقط مائتين كلمة على نهاية المقال لأكون قد أوفيت بوعدي للقراء أقوياء الذاكرة والعزيمة، أنا باختصار لست معجبًا بماضي أيمن نور السياسي، كلنا خطاءون لكن سنين السجن يمكن أن تطهر أعتى الخطاة، سيكون أيمن نور أذكى من ساجنيه إذا قرر أن يضرب مثلًا ويعلن للناس تطهره من أخطائه السياسية كلها، ويكف عن شُغل «الألابندة» بتاع السياسيين الذي يجعله يقول لمنى الشاذلي إن الأولوية لها دون غيرها، وفي نفس الوقت يقول لعمرو أديب إنه سعيد لأنه أجرى أول لقاء له بعد الإفراج في «أوربت» بالذات، يمكن أن نبلع هذا الكلام لكن من الصعب أن نبلع أن يقول لنا إنه كان يُهرب مقالاته من السجن بدون علم النظام ورضاه؛ لأنه يعلم أن النظام لو لم يكن يريد له أن يكتب لما كان قد كتب، فقد كان كل مقال ينشره في صالح النظام الذي كان يفاخر بكونه النظام العربي الوحيد الذي يوجد به معتقل سياسي يكتب عمودًا يوميًا أو يكتب من أساسه. أيمن نور يعلم أنه دخل السجن لأنه نزل من على حجر النظام وقرر أن يغير قواعد اللعبة. ويعلم أنه خرج من السجن لأن قواعد اللعبة تغيرت إلى حين. ويعلم أن «كارته» لو لم يحقق النتيجة المرجوة سيتم حرقه بشتى الوسائل، ولذلك عليه أن يتمرد على قواعد اللعبة، فيكون السياسي الأول في تاريخ مصر الذي يتطهر أمام الناس ويقول لهم كل شيء عن ماضيه، فيكسب بذلك مستقبله. أما إذا قرر أن يدير ظهره لكلامي السخيف في توقيته، ويرسل لي ردًا عموميًا كما أتوقع أو حتى يتجاهلني كما أتمنى، فلن أقول في الحالتين سوى ما سأقوله لكل القراء الغاضبين أو المعاتبين: «ليس معنى أن يكون نظام الحزب الوطني أسوأ من نظام «الأبارتهايد» أن ندع أيمن نور يصدق أنه «نيلسون مانديلا» لأنه ليس كذلك أبدًا».

فبراير ٢٠٠٩

لا خيرة في الـ...

بعض الناس ينظرون إلى «السياسيين» كأمراض مستعصية، ولذلك ينصحونك بمنتهى الإخلاص أن تختار بين فيروس «سي» وفيروس «بي» أيهما ألطف ويمكن أن تعيش بيه، وسيستغربون بشدة إذا رفضت الفيروسات جميعها؛ لأن مصر في أسوأ الأحوال بحاجة إلى فيتامينات وليس للمزيد من الفيروسات، وسيذعرون إذا هتفت في وجوههم: ما أنزل الله من داء إلا وله دواء فتداووا وابحثوا عن سياسيين يتحلون بتواريخ مشرفة، وذمم لم تكن واسعة قط، وعقول لن تكون ضيقة، وبطون لم تتغذ بالمال المشبوه، وأقدام لم يسبق لها التردد على مكاتب ضباط أمن الدولة لشرب القهوة وطلب المشورة.

قابلني قارئ متحمس وقال لي: «أظن لازم تعتذر لأيمن نور عشان اعترف بأخطائه قبل حتى ما يقرا اللي كتبته». قلت له: «قرأت مثلك ما وصف بأنه اعترافات أيمن نور، وضحكت كثيرًا لأنه اعترف على طريقة الفنانات اللواتي يسألونهن في برامج التلفزيون إيه عيوبك فتقول بتأثر بالغ: «عيوبي الصدق وإني باحب الناس أوي». أيمن نور يقول إنه اكتشف في السجن أن القرارات التي اتخذها بصدق وتجرد قليلة جدًّا، وهذا في حد ذاته تصريح غير مسبوق ويجب تحيته، ولأني لست جهة تحقيق أو متلقي اعترافات أو خاليًا من الخطايا فإنني لن أسأله عما إذا كان يعتقد فعلًا أن هذه هي خطيئته التي تستحق الاعتراف، بل سأسأله هل تستطيع امتلاك شجاعة الزعيم الذي تحبه سعد زغلول في الاعتراف بخطاياك السياسية لكي تفضح للناس خبايا الحياة الحزبية في عهد مبارك، التي تُصنع في مكاتب أمن الدولة، وأعدك أنك لو فعلت بكل تجرد ستكسب احترام الكثيرين وأنا أولهم». اكتشفت أنني لم أكن أكلم نفسي عندما صرخ القارئ الكريم في وجهي: «إنت إيه يا أخي.. ماحدش عاجبك في البلد دي!». وفوجئ بي أسأله: «إنت فاضي ثلاث

ساعات؟». سألني: «إيه الفكرة؟». قلت: «لكي نقعد على القهوة وتدعني أشنف أذنيك بأسماء الشرفاء الأحرار الوطنيين النضاف الجدعان والجمالات الذين يعجبونني في البلد». وعندما رأيت في عينيه القلق من أنني لاسع ويمكن أن أفعلها وأضيع وقته، قلت له: «يا صديقي لا تدعهم يكذبون عليك ويقولون لك إن السياسي لا بد أن يكون ملعوبًا في تاريخه، فمصر التي يخيرونها الآن بين المرض المستوطن والمرض الحنين شهدت وتشهد وستظل تشهد سياسيين عظماء لم يمسك عليهم أحد زلة ولم يتلوث تاريخهم قط».

قال لي بحيرة: «طب إحنا نعمل إيه يعني؟ هو إحنا كنا لقينا حد عِدل وقلنا لأ؟». بكل برود قلت له: «سأقول لك تشبيهًا بعيدًا جدًّا عن الموضوع، أو هكذا يجب أن أصفه، عندما تبحث عن حذاء جديد أليس من المنطقي أن تبحث عن حذاء على مقاسك ليريحك في اللبس؟». هزَّ رأسه موافقًا، فقلت: «افرض مثلًا مثلًا يعني أنك لم تجد حذاء في السوق على مقاسك، هل تضطر للبس حذاء يعكنن عليك عيشتك أم تلجأ لتفصيل حذاء عمولة يُحقق أحلامك في حياة مريحة تبدأ من القدمين؟». هزَّ رأسه ولسان حاله يقول: «اخلص». فقلت له: «لماذا إذن توافق على أن تلبس رئيسًا حكوميًّا أو معارضًا أصغر بكثير من مقاس هذه البلاد؟ لماذا لا تبذل كل مجهودك من أجل اختيار رئيس كبير على مقاس هذه البلاد الكبيرة؟!». صمت قليلًا ثم قال لي: «طب وليه ماخُدش ريس ضيق شوية وأستنى لغاية ما يوسع في الحكم». ضحكنا من أعماقنا وقبل أن يقلب الضحك بجد، قلت له: «لو وجدت لي رئيسًا في التاريخ وسّع الحكم مداركه وعقله وأفقه سأفكر، وحتى يحدث ذلك سأظل أحلم لمصر بما هو الأفضل، ولن أرضى بالرئيس المتاح، أو الرئيس النصيب، أو الرئيس الأهو اللي موجود، أو الرئيس الأحسن من غيره، أو الرئيس اللي لحد ربنا ما يفرجها، فقد عانت مصر الويلات من هؤلاء، وإذا لم يكن يتصدر الساحة الآن أحد على مقاس هذه البلاد فمن واجبنا أن نزيحهم جميعًا ونأتي لمصر بسياسيين تستحقهم ويستحقونها». هز رأسه ففرحت باقتناعه بوجهة نظري، قبل أن يتضح أنني كنت أكلم نفسي طيلة الوقت عندما سألني: «طب بذمتك مش فلان أحسن من فلان؟». ولم أجد ردًّا عليه أبلغ من الفولكلور الشعبي الذي يمكن نشره فقط على الطريقة التالية: «لا خيرةَ في الـ... خيار». وأكمل النقط أنت بمعرفتك.

فبراير ٢٠٠٩

قبلة الحياة

لم تُعجبني إطلاقًا التصريحات التي أدلى بها بعض رموز جبهة استقلال القضاء الذين أرجعوا خسارتهم معركة انتخابات نادي القضاة إلى تدخل الحكومة بكل ثقلها في الانتخابات. أستطيع أن أتفهم إطلاق تصريحات كهذه تحت وطأة الإحساس بالخسارة، لكنني أثق بأنه بعد أن هدأت نيران المعركة سيدرك شيوخنا الأجلاء أن من الخطأ القول بأن القضاة فجأة تحولوا من مدافعين عن استقلال القضاء إلى مهتمين بمصالحهم لمجرد ممارسة ضغوط عليهم؛ لأنه إذا كانت جموع القضاة على اقتناع فعلي بضرورة استقلال القضاء، فلا أعتقد أن أي ضغوط تمارس على القضاة ستُثنيهم عن قناعتهم، فضلًا عن أن الاقتناع بقضية ما يتم اختباره في ظل الضغوط وليس في ظل الظروف الطبيعية.

لا نريد أن نكرر الخطأ الذي وقعت فيه الصحف الحكومية البائسة عندما استباحت كرامة وهيبة نادي قضاة مصر لمجرد أن قيادته كانت على خلاف مع السلطة التنفيذية ممثلة في وزير العدل ممدوح مرعي، مع أنه لم يكن خلافًا شخصيًا، بل كان خلافًا من أجل هذا الوطن. الآن وقد اختار القضاة من يُمثلهم ولو بأغلبية ضئيلة، وفي ظل أي ملابسات، علينا أن نحترم هذا الاختيار، ونترك للقضاة وحدهم أن يجاهدوا داخل ناديهم لإقناع جموعهم بأن استقلال القضاء يُمثل المصلحة الحقيقية للقضاة بشقيها المرحلي والبعيد المدى. القضاة الآن لا يحتاجون إلى مشاعرنا بالإحباط من اختيارهم بقدر حاجتهم لأن يشعروا أن إيماننا بناديهم لم يكن إيمانًا بأشخاص، بل بقيمة كان يمثلها هذا النادي، وإذا لم يحافظوا على ما تمثله تلك القيمة بغض النظر عن تغير الأشخاص فإن هذا البلد لن يتقدم خطوة إلى الأمام.

بعضنا للأسف تعامل مع القضاة على أساس أنهم كائنات معنوية ليس لديها احتياجات بشرية أو ظروف إنسانية؛ ولذلك وجد المستشار هشام البسطويسي من يُزايد عليه عندما قبِل أن يذهب في إعارة إلى الكويت لتأمين مستقبل أسرته، ومع خالص احترامي للقضاة من كل التيارات أعتقد أنه كان من الخطأ أن يتم تعليق آمالنا في الإصلاح على جهة أو هيئة أو حتى مجموعة رموز، وهو خطأ شاركنا فيه جميعًا، وإصلاحه يكمن في حتمية السعي حتى آخر نَفَس في حياتنا لإقناع كل مصري أن مصالحه الضيقة والواسعة مرتبطة ارتباطًا عضويًا بالديمقراطية وتداول السلطة وحرية التعبير والفكر والبحث العلمي، وأنه إذا خاف من التعرض للضرب على لجنة الانتخابات لكي لا يدلي بصوته أو يدافع عن عدم تزييف صوته، فسيأتي عليه اليوم الذي يتمنى فيه لو افتدى صوته بروحه، لكنه سيكون حينها ينتظر الموت على فراش حقير في مستشفى مهترئ، أو يتعرض للإذلال في قسم شرطة، أو يتعرض للضرب في طابور عيش أو أنابيب. أما القضاة فهنيئًا لهم بمن اختاروه، ولعل حياتهم الآن تكون أفضل فيتمكنون من تحسين أوضاعهم المعيشية، ويحصلوا حقًّا وصدقًا على كل الوعود التي أطلقتها جبهة التغيير، فلا أعتقد أن أي مصري يكره أن يعيش قضاته في أفضل حال، ولن يستفز أحدًا من المصريين أن يوعد القضاة بسيارات معفاة من الجمارك أو بشقق محترمة يتزوج فيها أبناؤهم، طالما ضمن المصريون أن القضاة سيكفلون لهم العدالة والمساواة أمام القانون.

ختامًا المستشار أحمد الزند يستحق تهنئة صادقة بنجاحه في الانتخابات، لكن التهنئة يعقبها سؤال واجب عن موقف سيادته من الخبر الكارثة الذي انفرد به يوسف شعبان مراسل صحيفة البديل عن «اقتحام قوة من قسم شرطة باب شرق بالإسكندرية لمحكمة الجنايات بالإسكندرية وخطفها متهمًا من القفص في أثناء نظر الجلسة». وفي انتظار موقفه إن أراد إعلانه. أسجل أنني أعجبت بتصريح مهم قاله سيادته عن خطأ قطع النادي لكل صلاته مع أجهزة الدولة، وأتمنى أن أكون قد فهمت التصريح بمعنى أن نادي القضاة في ظل عهده لن يكتفي بدور المدافع، بل سيبادر إلى استغلال علاقاته بأجهزة الدولة لكي يطالبها باحترام أحكام القضاء المعطلة، وأن يثبت لها أن دعمها لمصالح القضاة حق لهم وليس منحة، وأن تحسينها لأحوال القضاة لا يعفيها

من واجب إصلاح أحوال القضاء. ولعلنا كما رأينا المستشار الزند وهو يُقبّل رأس رئيس مجلس القضاء الأعلى نرى اليوم الذي يُقبّل فيه وزير الداخلية رأس رئيس نادي القضاة اعتذارًا عن اعتداء رجاله على قاض أو وكيل نيابة، وتلك وحدها ستكون قُبلة الحياة لمصر التي لن يرد لها الروح إلا العدالة العمياء في كل الأوقات وعلى كل الناس.

فبراير ٢٠٠٩

حصة الألعاب

الحكاية ليست كيمياء. كل من يعمل في مجال الإعلانات يعلم أنك إذا أردت أن تبيع سلعة ولو كانت رديئة فعليك بالأطفال.

ولذلك قرر الذين يريدون بيع سيناريو التوريث للمصريين أن يستسهلوا ويلجأوا للأطفال، فرأينا فيما يرى اليقظان أمين لجنة السياسات بالحزب الوطني جمال مبارك وقد امتطى لجنته وتوجه نحو قرية الزرابي بمحافظة أسيوط؛ إحدى القرى الأكثر فقرًا في مصر كما وصفتها الصحف الحكومية التي «تسترت» على الزيارة وقامت بتغطيتها، لنرى في الصور أطفال القرية وقد أُجبروا على الحموم في الصباح البارد، وألبسوهم ملابس موحدة في منتهى الشياكة لا أظنهم رأوها من قبل، وستّفوهم في فصول المدارس ليدلف جمال مبارك إلى الفصول هو والوفد المرافق لسيادته (المرافق بالراء وليس بالنون على فكرة)، وينحني على سعداء الحظ من التلاميذ و«يشارك الأطفال ألعابهم» على حد تعبير صحيفة الأهرام التي نشرت صورة لطفلين مسبهلين يتوسطهما أمين السياسات الذي كان على عكس الأطفال تبدو على وجهه ملامح سعادة حقيقية، ربما لأن الزيارة أعادته إلى أيام طفولته عندما كان يركب «الباص» ويذهب إلى مدرسته خاليًا من أعباء الحلم بملك مصر والأنهار التي تجري من تحتها.

صحيفة الأهرام الفيحاء نشرت خبر الزيارة في صفحتها الأولى بعنوان يستحق أن يُدرَّس في أقسام الصحافة المتخصصة كنموذج لصناعة القرع الصحفي هو «عندما قالت طفلة من قرية الزرابي لجمال مبارك: متشكرين يا عمو». تقرأ العنوان دون قراءة متن الخبر فتظن أن الطفلة كانت خرساء لا تنطق، وعندما أنعم الله عليها برؤية نجل الرئيس نطقت بتلك العبارة الخالدة، ليهتف الحاضرون: «الله أكبر.. البنت قالت متشكرين يا عمو»، لكنك عندما تُعاين

«جسم» الخبر ستجد فيه نصًا: «في زيارته لإحدى الحضانات بمدرسة متطورة أعربت طفلة عن فرحتها بالزيارة والاهتمام الذي يبديه السيد جمال مبارك، فقالت له متشكرين يا عمو، عندما أخذ يلاعب الأطفال ويحكي لهم ما كان يفعله عندما كان في عُمرهم، وأنه كان يستخدم هذه القطع في ألعابه». سيبك من أن الخبر لم يحدد ماهية تلك القطع التي جمعت بقدرة قادر ما بين نجل الرئيس وأنجال الزرابي، وسيبك من أن أحدًا من المهللين لزيارة الزرابي لم يسأل نفسه: وفي عهد مَن أساسًا صارت الزرابي أكثر فقرًا ثم طلعت لها فجأة مدارس متطورة؟! وتذكر معي المرحوم محمود المليجي وهو يهتف من قلبه المحروق: «وعايزيني أكسبها؟». واسأل نفسك ومَن حولك كيف بالله عليكم نطمع في التقدم والتغيير ونحن لا زلنا نهين عقول المصريين بهذه المساخر التي ما زادتنا إلا خبالًا؟ هل يظن أمين لجنة السياسات أنه بهذه الزيارة المصطنعة قد عرف الصعيد وأطفاله وألعابهم؟ ألم يكن من الأجدى أن يعرف الصعيد الحقيقي في زيارة حقيقية إلى قرية فقيرة يتحشر فيها الأطفال الحقيقيون في فصول «بايخة» على دكك متهالكة أمام مدرس مرهق ينتظرون الفسحة بأمل جارف لكي يتجمعوا معًا على «الترابة» ويلعبوا مع بعضهم لعبة «حبّ ملبّ» وهم يضعون حطبة صغيرة وفوقها بوصة و«تُقّالتين طين»، ويلعبون على «نُقاش أو غطيان كازوزة»، فإذا لم تتوفر لديهم غطيان الكازوزة لعبوا «النُكّيسة» مغنين بفرح حقيقي: «واللي ما يلعب النكيسة تبقى أمه تيسة»؟ ألم يكن باستطاعة جمال مبارك أن يكون حقيقًا ويذهب إلى أطفال حقيقيين فيراهم وهم يُغنون ما يغنيه أطفال الصعيد: «حيف حيف يا عم عبد اللطيف.. ويا اللي هتلعب وقتك راح.. هات عشاك ولبن معزاك.. خشي بيتك يا ولية.. ده احنا عساكر دورية.. قولوا ويايا افتحوا لنا الباب.. ده الجاموسة والدة.. طنجرة طنجرة مزيكة.. عِجلة مالك عجّلتي.. كلتي دشيشة وهرهرتي.. خوّافة ليه يا حمارة.. وخسارة فيكي التبّانة.. ويا عم يا جمّال مالك.. جمالك فين؟.. ع القنطرة.. بتشرب إيه؟.. مية معكرة».

كان بمقدور جمال مبارك أن يختار الناس بعبلهم لكنه اختارهم بعد أن «خدوا وش». كان بمقدوره، وهو يحلم بكرسي الرئاسة، أن يراهن على مشروع أحمد زويل، لكنه راهن على مشروع أحمد عز. كان بمقدوره أن ينحاز للحقيقة المُرّة لكنه اختار الوهم المزوق، ولذلك لن ينجح أبدًا في أن يكون رئيسًا للجمهورية إلا بانتخابات زرابي، زي زيارة الزرابي بالضبط.

فبراير ٢٠٠٩

دم في الحسين

مشكلة الحوادث الإرهابية الحقيرة مثل حادث الحسين أنها تطرح أسئلة مستفزة في صدقها وتلقائيتها وتوقيتها، أسئلة من نوعية: «إيه اللي ممكن يخلّي حد يعمل في أهل بلده كده؟»، أو «هي الكلاب دي ما عندهاش ضمير؟»، أو «هو ده يرضي ربنا؟».

صدمة الألم وحدها هي التي تدفع الإنسان للتساؤل عن وجود الضمير لدى من يستبيح لنفسه قتل الأبرياء العُزل، أو يجعل رضا الله عن الإرهاب محل تساؤل حتى لو كان تساؤلًا استنكاريًا. بالطبع لا غنى عن تلك الأسئلة للتعبير عن استنكارنا وسخطنا وأسانا لوقف حال الناس وزيادة الهم على البلاد اللي مش ناقصة، لكن الأهم والأجدى والأبدى أن تدفعنا تلك الأسئلة التلقائية المشوشة إلى أسئلة حرجة عميقة لا مناص من البحث لها عن إجابات حاسمة، ستكون خلاصنا الوحيد من الإرهاب المنظم والعشوائي معًا، أسئلة مثل: «ما الذي يجعل حاكمًا يظل في موقعه سنين طويلة يرى فيها البلاد تتجرع بين الحين والآخر مرارة الإرهاب دون أن يبادر أبدًا إلى تجفيف منابع الإرهاب؟»، و«هل يُرضي ربنا أن نكتفي عقب كل حادث إرهابي بالكلام الذي ما أنزل الله به من سلطان؟»، و«متى ندرك أن كل حادث إرهابي أيًا كان حجم تأثيره وراءه التعليم الخربان والمخرّب والأزهر المُعطّل عن أداء دوره والثقافة الكسيحة العاجزة عن الوصول لمستحقيها والعدالة الاجتماعية الغائبة والأمن العشوائي الذي ينتج كل يوم متطرفين محتملين ويتشطر في إقصاء الشباب عن العمل السياسي الحقيقي بينما يسمح له أن يقع فريسة للأفكار الدينية المشوشة والمخدرات والدعارة المقنعة والأفكار المعلبة؟»، وأخيرًا «متى ندرك خطورة استسلامنا للشعور بأن مصر مستهدفة من قوى

خارجية بينما نحن نعلم جيدًا أن الله لم يسلط على بلادنا أحدًا بشراسة وعدوان وغباء مسئوليها والمنتفعين بها؟».

تريدون أن تؤمنوا مصر من خطر الإرهاب، حسنًا، لن يكون ذلك بالقوانين التي تحول القهر الطارئ إلى قهر مؤبد، ولا بالأحزاب المُدَارة بالريموت كنترول، ولا بالبرامج البلهاء التي يقاوم فيها راقصو الطنبورة إحساسهم بالغثيان لكي يقنعوا العالم أن مصر بخير، ولا بسياسات الجباية، ولا بمشروعات القوانين المعادية للفقراء، ولا بوقوف كُتاب الحكومة داخل مقالاتهم متحزمين وراقصين على أنغام الله معاك ومعاك قلوبنا.

تريدون أن تحوِّلوا كل مصري إلى جندي يقظ، عيناه في وسط رأسه وهو يسير في كل شارع أو يجلس على كل مقهى، إذن ضعوا على رأس مشيخة الأزهر شيخًا تخافونه لكي يحبه الناس ويخافون الله بجد، ضعوا على مقعد وزير الداخلية سياسيًّا محنكًا يعتبر التعذيب أشنع جريمة تعاقب عليها وزارته، ويؤمن أن الأمن السياسي تضمنه الحريات فقط، ويوقن أن عهد الضابط الذي يقف بالنضارة السوداء على الناصية منتفخًا وسط عساكره لم يجلب لنا إلا المزيد من الكوارث، ويعرف أن هناك في العالم سياسات أمنية جديدة تجعلك لا ترى في أي شارع أوروبي ضابط أمن إلا إذا قمت بحركة مثيرة للريبة. كفوا عن اختيار وزراء تعليم مشوشين فكريًّا لا يوحي منظرهم بأي أمل في التعليم، وابحثوا لوزارة التعليم العالي عن وزير عالي الأفق وواسع الخيال. ابحثوا لوزارة الأوقاف عن وزير لا يؤمن بـ«الإسلام الدايت»، بل بالإسلام الحي الذي يؤمن بالحرية والعدالة والتسامح. افتحوا للأقباط مؤسسات الدولة لكي لا تفتح الكنائس أبوابها إلا للعبادة. اختاروا وزير ثقافة قريبًا من الناس، يُدرك أن الإنجاز ليس زيادة عدد العناوين الصادرة عن هيئات وزارته، بل زيادة عدد نسخها. حرروا الإعلام المصري من قيود الحسابات والبحث عن رضا الرجل الواحد. أعيدوا الموهوبين إلى مواقع الصدارة في الصحف القومية، ودعونا نلتف حول حرية التفكير كسبيل للخلاص، ونؤمن بمشروع الدكتور أحمد زويل كمشروع قومي نحتاجه في زمن لم تعد ترتبط فيه كلمة مشروع إلا بمنتجعات الأغنياء ومحطات الصرف الصحي والميكروباصات القادمة من المجهول والذاهبة إليه.

لن تفعلوا شيئًا من هذا كالعادة، ستكتفون بالكلام الخائب عن الأمن المستتب والمزيد من السياسات الفاشلة وتجنيد البلاد من أجل مشروع الاستقرار من أجل الاستمرار. أما نحن فليس أمامنا إلا أن نقول كلمتنا ثم ننزل إلى الحسين لنجلس على القهوة متعالين على قلوبنا المقبوضة ورزالة الضباط ولسعة البرد ومرارة اللاجدوى، فليس أمامنا سوى أن نحيا لكي تحيا مصر، بكم أو بغيركم.

فبراير ٢٠٠٩

خطاب من غريق

هذه الواقعة لن تنشرها الصحف ولن تتناقلها وكالات الأنباء أبدًا.

ظُهر الأربعاء الماضي فوجئ مركب صيد بجثة تطفو على سطح البحر الأحمر في موقع غرق العبارة «السلام ٩٨» ترتدي سترة نجاة تالفة، وجِدتْ في أحد جيوبها هذه الرسالة التي لم يتمكن الماء المالح من محو سطورها التي أذهلت كل من رآها:

سيدي المستشار أشرف بدر الدين رئيس محكمة جنح مستأنف سفاجا..

تحية طيبة وبعد..

أكتب إليك هذه الرسالة من قاع البحر الأحمر حيث ظل جسدي غارقًا طيلة السنوات الماضية يقاوم الطفو على سطح البحر، لتظل روحي المثقلة بالظلم معلقة بين الماء والسماء منذ اللحظة التي غرقت فيها بعد عودتي على متن العبارة «السلام ٩٨» وحتى اللحظة التي نطقت فيها بإدانة من أغرقني وبددت وهم براءته المزعوم. ولم يكن بقائي في قاع البحر رغمًا عني، بل كان بإرادتي الكاملة؛ لأني رفضت رفضًا مُطلقًا أن يجد الباحثون جثتي، ويتم التعرف عليها، وتُوارى الثرى، ويُؤخَذ فيها العزاء، ويُصبح لها قبر يزوره أهلي وأحبابي، وتُقام لها كل الطقوس التي يقيمونها للإنسان عند رحيله، وأخذت قرارًا أنني عندما أشعر بإنسانيتي سأصعد بجسدي إلى سطح البحر وأستسلم لطقوس الرحيل بعد أن صرت أستحقها. كيف أقر يا سيدي أنني إنسان كرمه الله واصطفاه على سائر خلقه وأنا أرى تلك الجهود المُخزية التي بذلها الساسة والمحامون والقانونيون والإعلاميون طيلة الأعوام الماضية لكي يفلت من أغرقنا من

العقاب وتذهب أرواحنا هباءً منثورًا كأنها زبد هذا البحر؟! لماذا أطلب أن يكرمني أحد في موتي وقد هنت في حياتي وفي موتي وبعد موتي؟! وما الفرق بيني وبين أي سمكة في هذا البحر مهددة بالفناء في أي لحظة على يد من هو أقوى منها، دون أن تملك تغيير ذلك أو دفعه أو محاسبة مَن قام به؟! لقد أقسمت يا سيدي أن لا أصعد بجسدي إلى سطح البحر إلا إذا لاح لي وأنا في قاعه شعاع أمل يبشرني أنني لن أكون رقمًا في كشف ضحايا يُغلَق دون حساب أو عقاب ويتم تكهينه في دولاب نحاسي صدئ في رواق محكمة خلفي وموحش.

سيدي المستشار أشرف بدر الدين كم كنت أتمنى أن يتاح لي أن أُقبّل يديك وأيدي هيئتك القضائية الموقرة وأيدي كل من دافع عن الحقيقة في مصر ورفض أن يبيع نفسه برُخص المال! وأصارحك أنني الآن يملؤني الندم لأنني عشت طيلة سنوات الغربة المريرة أحلمَ أن يكون ابني، «الحِيلة» الذي طلعت به من الدنيا، طبيبًا بارعًا وأحيانًا مهندسًا لامعًا وأحيانًا أخرى لاعب كرة مشهور، ثم ظللت طيلة سنين الغرق أحلم بأن يطلع من البلد سالمًا غانمًا دون أن يغرق مثلي في مياه البحر الأبيض، لكنني وبعد أن سمعت صوت عدالتك يتردد في جنبات البحر الأحمر واثقًا هادرًا أخذت أتمنى من كل قلبي الذي لم يعد مثقلًا بالألم أن يأذن الله بأن يصل صوتي إلى ابني لأقول له إنني لا أحلم إلا بأن أراه قاضيًا يقضي على باطل المال، ويرد الحقوق إلى أهلها، ويرفع المظالم، ويفتح أبواب الأمل للناس بعد أن أغلقها في وجوههم سلاطين المال ومماليك السلطة ولحاسو الأعتاب في الصحف والقنوات الفضائية، ويعيد إلى مصر كرامتها، ويبعث حلمها في غد زي الفل، وينجيها من الغرق الذي لم أنجُ منه.

سيدي المستشار أشرف بدر الدين الآن والآن فقط أستطيع أن أنطق الشهادتين وأصعد إلى رحاب الله حيث لا ظلم ولا فساد ولا متاجرة بأرواح الناس ولا تزوير ولا نفاق ولا وجوه كريهة ولا خيانة ولا إهدار لكرامة الإنسان ولا كذب، آه يا سيدي! أقسم لك إنني تحملت برضا وعن طيب خاطر وحشة الليالي المظلمة في قاع البحر، وقاومت ملح البحر وهو يحاول أن يأكل جسدي كل لحظة، لكنني كنت أشعر بالهزيمة وأكاد أسلم جسدي لضواري البحر كلما حاصرني كم الكذب المهول الذي لم أفهم حتى الآن رغبته المتوحشة في إهدار حقنا في

أن نكون بشرًا كرمه الله وحرم دمه على نفسه وجعل هدم كعبته المشرفة حجرًا حجرًا أهون عليه من سفك دم عبد من عبيده.

سيدي المستشار أشرف بدر الدين ظني أن الله عز وجل سيظل رحيمًا بي وسيغفر لي أن آخر ما نطقت به لم يكن الشهادتين، وأنني لم أتمالك نفسي وأنا أطير إلى الجنة برفقة الملائكة وهتفت ما بين السماء والأرض من كل قلبي: «يحيا العدل».

مارس ٢٠٠٩

الطماطماية

حتى الآن لا أعرف مكانًا محددًا لقبري، لكن العنوان لن يفرق معكم الآن، وبناء عليه أنتم مدعوون للبصق على قبري فور معرفة عنوانه، بعد عمر طويل، أو قصير، لا يهم، المهم أن تبصقوا بقلب جامد إذا تقدمنا شبرًا واحدًا إلى الأمام طالما نحن مصممون على ارتكاب طقوس الزيارات الميدانية الرئاسية بكل تفاصيلها القديييمة المحزنة، والتي لم نعد حتى نطلب تغييرها لا سمح الله، بل نتمنى فقط جعلها أشيك، فهل صارت الشياكة مطلبًا مستحيلًا أيها «القُدام» الذين لم نطلع معكم شبرًا واحدًا لقُدّام؟

تصدقوا بالله؟ أنا نَفْسِي لا أستطيع أن أصدق أن كاتبًا مارقًا مثلي أحرص على مقام الرئاسة من أولئك الذين يرتبط وجود مصالحهم به، ومع ذلك فهم يسمحون لأنفسهم أن ينزلوا بمقام الرئاسة العالي إلى هذا الحد الذي ليس ولا بد، والذي رأيناه في زيارة الرئيس الميدانية الأخيرة لشرق العوينات والواحات الخارجة. يعني بالله عليكم هي حصّلت أن يجلس المواطن أمام تلفزيونه ليشاهد رئيس الجمهورية وهو يسير في ممر يشبه ممر الخضراوات في كارفور وإلى جواره يسير رجل أعمال يكاد يتزحلق في التزلف الذي يَنُزّ منه وهو يقول شارحًا لرئيس الجمهورية بحماس من جاب التايهة: «دي طماطم سيادتك.. دي طماطم كبيرة ودي طماطم صغيرة.. وده لامون خطير جدًّا.. وده بتنجان فظيع.. وده بيض نعام.. وده نعام صغير.. وده جلد نعام». أقسم لكم إنني لو كتبت هذا المشهد قبل حدوثه لطالب الموالسون بتطبيق حد الحرابة عليَّ؛ لأنني أتعامل مع مقام رئيس الجمهورية بما لا يليق.

أرجوكم لا تفهموني خطأً. بالطبع لا يمكن لأي مواطن، صالحًا كان أو مارقًا، أن يمنع نفسه من الفرحة بأن رئيس بلاده يخرج من قصره ليقوم بالتجول في أقاصي الوطن وأدانيه،

ويشد على أيدي كل من يزرع شبر أرض أو يبني طوبة على طوبة، لكن بالله عليكم ألم يكن المواطن المصري سيفرح أكثر لو شعر أن الرئيس لا يشاهد صورة مزوقة معدة له سلفًا، بل يشاهد صورة حقيقية من لحم ودم وصواب وخطأ، لعله يصل مع الرئيس إلى إجابات حقيقية عن سر التخلف الزراعي لبلد ذكر الله خيراته في محكم كتابه؟! ألن يكون ذلك أجدى مليون مرة من تلك الطقوس القديمة المؤسفة التي أصبحت مكتوبة علينا كالبرد والصداع والغبار والفسافيس؟! أليس من حقنا أن يقف منا أشعث أغبر ليقسم على الله ويرجو الله أن يبره بأن نرى يومًا ما، حتى لو كان يوم إجازة، مسئولًا بحق وحقيقي يقف أمام الرئيس في زيارة ميدانية ليقول له: «سيادتك إحنا أخطأنا في كذا وكذا.. نحن لم ننجز لا هذا ولا ذاك.. نحن أخفقنا في كيت وكيت»؟! بلاش لو كان هذا كثيرًا، دعونا نطلب القليل، أليس هناك أمل في أن يختفي من حياتنا مشهد الدروع الذهبية والفضية والنحاسية والبرونزية التي يمنحونها لسيادة الرئيس كلما زار مصنعًا أو مر إلى جوار مزرعة أو قص شريط كوبري؟! يتقطع لساني لو سألت عن جدوى هذه الدروع، فأنا أعرف حدودي جيدًا، أريد فقط أن أسأل إلى أين تذهب هذه الدروع التي ينالها الرئيس منذ تولانا الله وتولى سيادته الحكم، يتهيألي لو رصصنا هاتيك الدروع إلى جوار بعضها لغطت مساحة مصر داير ما يدور. أسأل والله من إشفاقي على تحمل الدولة مسئولية تخزين وحماية وصيانة وتلميع هذه الدروع. هل أكون طماعًا لو اقترحت على الدولة أن تبيع هذه الدروع لتجار الذهب والمعادن وتفريق ريعها على المصريين للمساهمة في رفع قيمة الصك الذي سيأخذه المواطن؟! سأسحب الاقتراح فورًا لو اشتم أحد منه رائحة نكران الجميل، وسأستبدله لك فورًا باقتراح أجمل وألذ، هو صهر هذه الدروع اللانهائية بمعرفة الأجهزة المختصة لتنحت من خلاصتها درعًا واحدة عملاقة نضعها في فاترينة الوطن أو في أي مكان متشاف لكي يستطيع القمر الصناعي الإيراني التقاطه من الفضاء فيُصاب بالفَرْسة ويسقط من طوله على أي قمر صناعي إسرائيلي فيتدمر الاثنان معًا، ونكون قد ضربنا عدوًّا وصديقًا بدرع واحدة، فيخسر كل منهما قمره ويبقى لنا قمر «النايل سات» الذي يذيع لنا زيارات الرئيس الميدانية التي لا غنى لنا عنها.

دعونا من الدروع وسيرتها، وخلونا في الأمنيات القابلة للتحقق، صدقوني كنت أتمنى من كل قلبي أن أرى إلى جوار الرئيس في جولته، بدلًا من المهللين والهتيفة وشارحي الخضار، رجل أعمال متخصص في الزراعة مثل الدكتور محمود عمارة الذي لطالما

بعث إلى رئيس الجمهورية في مقالاته وكتبه وأحاديثه التلفزيونية عشرات البلاغات الموثقة بالأرقام والمستندات التي تفضح حال الزراعة المرير في بلادنا، ومع ذلك لم تتحرك ورقة شجر في حديقة قصر الرئاسة من هول تلك البلاغات! لا ندري هل الرئيس يقرأ مثل هذه البلاغات، أم يقرأها من حوله ويحجبونها عنه؟ بالنسبة لي الاختياران مُرَّان لا حلو فيهما، لدرجة جعلتني كثيرًا أتمنى أن أصحو من النوم فأسأل من حولي عن الدكتور محمود عمارة، فيقولون لي إنه لا يوجد أحد بهذا الاسم، وإنه هو وما يكتبه ليس سوى وهم كابوسي ناتج عن عشاء ثقيل تناولته، مثله مثل مقالات وأبحاث وأفكار الأساتذة سكينة فؤاد وعلي نويجي والدكتور عبد السلام جمعة أبو القمح والدكتور أحمد مستجير رحمه الله وكل الذين أكلت دودة الفساد أفكارهم وأبحاثهم وأحلامهم. صدقوني كنت أتمنى من كل قلبي أن أفرح بجد بصورة الرئيس وهو يقف وسط حقول القمح ويداعب سنابلها بيديه، فقط لو أصبحت هذه الصورة تعني أننا لم نعد نستورد قمحنا من الخارج، أما أن يداعب الرئيس سنابل القمح التي سبق للأمن المركزي تمشيطها قبل زيارته، ثم يطلع بعدها بيومين مسئول غير مسئول لِيُطمئن الشعب المصري أن مخزون القمح لدينا يكفي أربعة أشهر قادمة، وأن صوامع القمح الأوكراني ليس بها فيروسات مسرطنة، بل بها دود، والدود كما نعلم كائن حي يُسبِّح الله، ولذلك علينا فقط أن نذكر عليه اسم الله ونحن نأكل الأرغفة المخبوزة منه، أليس من الأولى عندها يا سادة أن يتم تصوير الرئيس وسط أجولة القمح المستورد، طالما أرقامها هي التي تتصاعد عامًا بعد عام، وليس عدد الأفدنة المزروعة قمحًا.

أمنيات داعبت سري وفكري، لكنها تبخرت من مخيلتي فور انتهاء بث وقائع الزيارة، ولم تبق لي سوى أصداء حلم راودني، لعله لا يكون عسير المنال، حلم أن يحظى المواطن المصري بحظ الطماطماية التي فهمت من خلال زيارة الرئيس الميدانية أنها في رحلتها من الشجرة إلى علبة الصلصة تشهد مراحل عديدة مثل مراحل التجميع والفرز والغسل والتنقية والهرس ثم التعبئة، بينما المواطن المصري يا حول الله وعلى عكس الطماطماية مكتوب عليه أن يعيش إلى الأبد مرحلة واحدة، مرحلة الهرس.

نشرت في صحيفة الدستور المصرية المغدورة
إبريل ٢٠٠٩

عبد الحليم حافظ يشترك في إضراب ستة إبريل

«هذه الرسالة وجدتها قوات الأمن على قبر المطرب الأسطورة عبد الحليم حافظ بعد بلاغ من مجهول، وتم ضمها لأوراق التحقيق مع من ألقي القبض عليهم من شباب ستة إبريل».

صديقي العزيز عبد الحليم حافظ.. لا تتصور مدى سعادتي عندما سمعت من زملائي عن قرارك التاريخي بأن تشاركنا في إضراب ستة إبريل هذا العام، والذي تأخرت عن زيارتك هذا العام بسبب انشغالي في التحضير له؟ يا الله يا حليم! قرارك يا صديقي جاء في الوقت المناسب بعد أن كدنا نختنق من حصار الأمن وخذلان النخبة وطناش الناس ورعب الأهل وتشرذم الأصدقاء وتنظيرات الذين ظلوا سنين يلوموننا لأننا ننصرف عن قضايا بلدنا وها هم الآن يركبون على أكتافنا لكي ينظروا ويحللوا ويصادروا علينا حقنا في الخطأ والتعلم من الخطأ، وفي وسط كل هذا كنا نحتاج إليك يا حليم، لكي تقف معنا، كما وقفت معنا في كل معركة حب كسبناها أو خسرناها دون أن نخسر أنفسنا وقدرتنا على الحب والأمل. الآن يا صديقي نعلم أننا سنكون أقوياء بك، وأنهم عندما يعتقلوننا ويوجهون لنا تهمة زعزعة الاستقرار سنصدرك في وجوههم وسنغني معك بأعلى حسّنا: «مش سهل على الشبان.. يسهوا عن الأوطان.. قالوا الحياة غالية.. قلنا الشرف أغلى.. بلادي يا بلادي.. يا عيون قمر الربيع.. اندهي يا بلادي يجاوبك الجميع».

عارف يا حليم.. لنا صديق نضيق أحيانًا بتنظيراته الجوفاء يدعي أنك قررت أن تشارك معنا في الإضراب؛ لأن ضميرك مثقل بوزر الغناء للحُكام، وأصدقاؤنا اندفعوا معه في نقاش حامي الوطيس دفاعًا عنك، وقالوا له إنك لو كنت موجودًا بيننا الآن لما غنيت

لأي جمال أيًا كان، حتى لو كان جمال عبد الناصر، وعندما طلبوا رأيي بعد أن لاحظوا صمتي، ولأنني أعرف صديقي حق المعرفة، اكتفيت بأن أغني بأعلى صوتي: «إن مت يا أمي ما تبكيش.. راح أموت عشان بلدي تعيش.. وإن طالت يا امه السنين.. خلي اخواتي الصغيرين.. يموتوا زيي فدائيين.. وأموت أعيش.. ما يهمنيش.. وكفاية أشوف علم العروبة باقي». وكنت تجيء لتشوف صديقنا وصوته يعلو بالبكاء والغناء معنا، فقد حكى لي كثيرًا كيف كان أبوه بطل حرب أكتوبر يغني هذه الأغنية لهم دائمًا في طفولتهم قبل أن يكبروا ويصبحوا عاطلين من العمل ولا يطيقون سماعها، وقبل أن يموت أبوهم نفسه من الإهمال في مستشفى حكومي، ويغرق ابنه الأكبر في عبارة متهالكة في البحر الأحمر، ويغرق ابنه الأوسط في مركب هجرة غير شرعية في البحر الأبيض، ويغرق ابنه الأصغر صديقنا في بحر أحزانه وهو يرى الأرض التي حررها أبوه وقد صار محرمًا عليه أن يسير فيها بحرية ما لم يكن يمتلك ثروة أو نفوذًا.

أعترف لك يا صديقي أنني كنت أيضًا أضيق بأغانيك الوطنية، بل وبكل الأغاني الوطنية، فأنا ابن مرحلة أصبحت فيها الوطنية سخفًا وطنطنة ومزايدة، بعد أن اختطفت لتكون ستارًا لكل صاحب منفعة، واقترنت باسم الحزب الذي أفقر المصريين وأمرضهم وأغرقهم في الجهل، فأصبح الناس يفضلون أن يسخروا من الوطن على أن يغنوا له، ويستسهلون نعيه ورثاءه بدلًا من أن ينفخوا فيه الروح لكي ينهض وينهضوا معه، بدلًا من أن يموتوا مختنقين تحت جثمانه، لكنك من حيث لا تدري فتحت لي ولجيلي أبواب الأمل يا صديقي عندما فتحنا أرواحنا لك وللأبنودي ولبليغ وأنتم تغنون لموال النهار: «والليل يلف ورا السواقي زي ما يلف الزمان وعلى النغم.. تحلم بلدنا بالسنابل.. تحلم ببكره واللي هيجيبه معاه.. تنده عليه في الضلمة وبتسمع نداه.. تصحى له من قبل الأدان.. كل الدروب واخدة بلدنا للنهار.. واحنا بلدنا للنهار.. بتحب موال النهار.. لما يعدي في الدروب.. ويغني قدام كل دار»، فحلفنا يا صديقي ألا نسلم أنفسنا ليأس الهزيمة وألا نترك أحدًا ينتفع من يأسنا ويستقوي بضعفنا ويزداد ثراء بفقر أرواحنا. وقررنا أن نسير ولو وحدنا في طريق العبور الجديد لنصنع مستقبلنا بأيدينا ونحلم بنصر جديد على الفساد والظلم والجهل والتطرف، يصحبنا صوتك وأنت تغني مع محسن الخياط وبليغ لمصر التي لم ولن تكون أبدًا ملكًا لحاكم أو منتفع: «لفي البلاد يا صبية.. لفي البلاد يا صبية.. بلد بلد.. باركي

الولاد يا صبية.. ولد ولد.. ده المهر غالي وهيجيبوه.. لو نجم عالي.. في السما راح يقطفوه.. يا فرحتك ساعة ما ييجوا يقدموه.. ويغنوا للفجر اللي في عينيكي اتولد.. ده النصر مهرك.. والعريس ابن البلد».

ويا صديقي عبد الحليم حافظ.. حتى لو لم يأت هذا النصر في حياتنا.. سنكون سعداء ونحن نرى الأجيال القادمة تحتفل به معك. طبت حيًّا وميتًا يا صديقي.

الأحد ٥ إبريل ٢٠٠٩

ونجح إضراب ستة إبريل

من غير مزايدة ولا جعجعة ولا تشنج، ومن أعماق قلبي أقولها: مبروك لمصر نجاح إضراب ستة إبريل!

نعم نجح إضراب ستة إبريل، لأن الدنيا كلها لم تسمع عن إضراب فاشل تحشد أقدم دولة بوليسية في العالم من أجله كل ضباطها وجنودها ومخبريها الشرطيين والصحفيين والبرامجيين والجامعيين. وعلم الصحافة لم يشهد في تاريخه المديد إضرابًا فاشلًا يحتل مانشتات الصحف الحكومية الرئيسية؛ التي أظهرت على طريقة الدبة التي بطحت صاحبها، كم هو متهرئ ومذعور وبائس ذلك النظام الذي يهز طوله وعرضه لقمع من يطلق هو عليهم «شوية عيال»، وتاريخ مصر الذي لا يهتم به حكام مصر الآن المشغولون أكثر بالجغرافيا لأنها «تلزمهم أكتر في البيع» سيُسجل عليهم في صفحات عاره أنهم قرروا تعويض هزائمهم المتوالية في شتى المجالات بالانتصار بأقدام وبيادات بعض رجالهم المنتسبين إلى الرجولة زورًا على فتيات كفر الشيخ اللواتي صدقن دعوة السيدة سوزان مبارك إلى ضرورة المشاركة السياسية للمرأة.

قولوا لنا بالله عليكم متى شهدت الدنيا إضرابًا فاشلًا يتوفر له كل هذا القدر من المحللين والمنظرين والملغوصين والمهجصين الذين لم يخرج الواحد منهم في شبابه في مظاهرة ضد أي احتلال أو قمع إلا ليلتصق ببناتها أو شبانها؟! ولم يعلن أحدهم عن رأيه ولو حتى في صحيفة الوسيط، ولم يفعل شيئًا عليه القيمة وهو طالب سوى صم كتب التعليم وطرشها في ورقة الامتحانات، ثم عندما يحتل موقعًا ما، بفضل ربطه للحمار مطرح ما يعوز الحمار، وبركة تقارير الأمن التي تزكيه إما لأنه ماشي جنب الحيط وإما لأنه كان يتسلق على الحيط ليلحق بموعد تسليم التقارير

في زملائه، إذ به يتحول «فجأتن» إلى قيادة طلابية مخضرمة لها باع في فك العمل الطلابي، ويتمترس في عموده الذي يدعو القراء الله ليل نهار أن يوقع عليه، فيتخذ من ذلك العمود منصة إطلاق لروشتات الوطنية لشباب مستقل لم يكن يومًا بتاع حد، ثم يجري بالليل إلى استديوهات الفضائيات المكيفة لكي يتصبب قلقًا على البلد التي تهددها الفوضى وكأنها كانت، قبل إضراب ستة إبريل، وطن المنطق وأرض العدالة وبلد الاتساق مع النفس.

يا أيها المتفشون بزهو انتصاركم المظفر على الأمل، وإحباطكم الحاسم لمجيء بُكرة، والله العظيم تلاتة لو كان فيكم رجل ذو فكر مبارك أو سياسة نظيفة أو عقل رشيد أو نهج حبيب أو منطق يبعث على السرور، لقبلتم رءوس وأيدي هؤلاء الشباب والفتيات ولأخذتموهم في أحضانكم وحاجيتم عليهم واستمعتم إليهم وتعلمتم منهم أو حتى على الأقل تحاورتم معهم، ولدعوتم كل شاب في مصر لأن يكون مثلهم، ولما تبطرتم على نعمة أن يرزق الله مصر بشباب زي الورد، لم يرفعوا المصاحف على أسنة إحباطهم، ولم يشهروا في وجوهكم تفسيراتهم المتطرفة للنصوص، ولم يتدوروا على بعضهم بعضًا بحثًا عن علامة الصليب التي تحدد طريقة المعاملة، ولم يتكتلوا خلف أسوار الكنيسة، ولم يهربوا إلى المخدرات تعاطيًا وتجارة وعشقًا، ولم يتركوا بلادهم لكم ويرموا أنفسهم في قوارب الهجرة غير الشرعية، ولم ينذروا أنفسهم لجرويات التفاهة والانحطاط على «الفيس بوك»، ولم يقضوا حياتهم في شتم البلاد التي باضت لأبائهم ذهبًا والشكوى من ناسها البيئة وأهلها العشوائيين وحالها اللي مش ولا بد، ولم يقرروا أن يطرمخوا على حقوقهم، أو يرتضوا أن يكونوا بلياتشوهات تمسك أوراقًا وتتحرك بالريموت كنترول في الزيارات المفاجئة التي لا تكف عن مفاجئتنا بمدى النفاق المتراكم فيها، ولم يديروا ظهورهم لألعابكم الممجوجة التي احتكرتموها منذ أكثر من خمسين عامًا وصرتم كباتنها وحكامها وجمهورها، ولم يحذوا حذو ملايين غيرهم قرروا أن يُسلِّكوا أمورهم بمعرفتهم في دهاليز البلد التحتية التي تزداد كل لحظة تشعبًا وخطورة واستعصاء على الشكم.

يا سادة، الغضب الذي أنتم فرحانون لأنه لم يتفجر بفضل الأثر الرجعي لقمع ستة إبريل اللي فات ستبكون يومًا ما ندمًا لأنه لم يتفجر في صورة اعتصامات سلمية وإضراب حضاري ومظاهرات تجأر بشكواها من فسادكم وظلمكم، فالتاريخ الذي كنتم تزوغون

في حصصه يعلمنا أن الغضب عندما تغلق في وجهه الباب سيخرج لك يومًا من كل الشبابيك عنفًا وعدوانية وسطوًا مُسلحًا وتحرشًا جنسيًّا وفتنة طائفية ونهبًا للمال العام واستحلالًا للمُحرمات ويأسًا مسرطنًا لا يجدي معه الكيماوي ولا المسيل للدموع ولا الأمن المركزي ولا الصحف «العضاضي» ولا العلاوات الفشنك ولا هتافات الفخر المنبعثة من أجهزة اللاسلكي «كله تمام سعادتك.. قبضنا على الغضب يا أفندم».

الأربعاء ٨ إبريل ٢٠٠٩

الفرخة والديكا

مشكلة الشعراء أنهم يحبكونها شويتين وأحيانًا ثلاث شويات. الشاعر الكبير فاروق جويدة غاضب لدرجة أنه يرى في مقاله الشهير في أهرام الجمعة أننا لا نستحق هذا الوطن، كل ذلك لأن رئيس الوزراء الأسبق د.علي لطفي سخن حبتين وهو يشترك في صالون غازي عوض الله الثقافي الذي قرر تكريم الأستاذ الدكتور أحمد فتحي سرور رئيس مجلس الشعب وزعيم حركة «كفاية أصحى على ابتسامتك يا ريس»، فانبرى ينشد من فرحته شعرًا حلمنتيشيًّا توجه بـ«بيت» صار عنوانًا لمرحلة آيلة للسقوط: «فتحي سرور يا ويكا.. نحبك حب الفرخة للديكا»، دون أن يعلم الدكتور لطفي أنه سيعطي الفرصة لفاروق جويدة لكي ينعي للمصريين انحدار «الصورة الرفيعة للمسئولية في مصر»، مع أنه كان أولى بالأستاذ فاروق أن يعمل بنصيحة الفقيه الشاعر الإمام الشافعي فيلتمس لأخيه الحلمنتيشي سبعين عذرًا، فإن لم يجد فليلُم نفسه خصوصًا إذا كان يعيش في زمن لا يَلِمّ أحدٌ فيه نفسه.

أنا لست شاعرًا، وبصيرتي على قدي، لذلك قرأت الحكاية بشكل مختلف، وبمجرد أن قرأت البيت الشعري الذي اقتطعه الصحفيون من سياق النص ووضعوه عنوانًا لتغطيتهم لأنتريه تكريم الدكتور سرور، لطمت لأنني ظننت أن إنفلونزا الطيور أخيرًا انتقلت إلى البشر فكانت سببًا في خروج الدكتور علي لطفي عن وقاره. هرعت إلى متن الخبر لأتأكد: هل داهمت لجنة من وزارة الصحة موقع الأنتريه الثقافي وقامت بتحريز كل من يحب الدكتور سرور «حب الفرخة للديكا»، ووضعه تحت الملاحظة الصحية. ولن يلوم أحد تلك اللجنة لو فعلت ذلك، ليس لأننا نعيش في بلد لا يوجد به أحد بعينه فوق القانون، فقد صار القانون تحتنا جميعًا، بل لأن أي محاولة لقمع نشاط تلك اللجنة ستجابه برفض

دولي حاسم، خصوصًا والعالم كله بات متوجسًا خيفة من مصر التي لم تكتف بحصولها على المركز الأول في إصابة البشر بإنفلونزا الطيور، بل حققت إنجازها العلمي المذهل بنقل إنفلونزا الطيور إلى الفئران، كمرحلة أولى لمساهمتنا المتواضعة في القضاء على البشرية جمعاء، على أساس أن مفيش حد أحسن من حد، ولكي ننتهي معًا نحن والعالم قبل أن ينهي السيد الرئيس تطبيق برنامجه الانتخابي، فنكون بذلك أول نور في الدنيا شق ظلام الكون، وآخر نور في الدنيا جاب ضُرَف الكون.

هزّر هزّر سيادتك، وقضّيها ضحك ومسخرة، مع أن الموضوع لا يستحمل الهزار أبدًا. هل تعرف معنى أن فئران بلادنا أصيبت بإنفلونزا الطيور؟ معناه أن خطر الفناء محدق بنا والعياذ بالله، لا أتحدث عني وعنك، فنحن لن نهون على الفئران التي تشاركنا مساكننا وشوارعنا، الخوف كله من الفئران المُسيّبة عديمة المسئولية، تخيل لو قرر فأر مصاب بإنفلونزا الطيور أن يعض مسئولًا سياديًا من الذين يصحبون السيد جمال مبارك في زياراته إلى القرى الأفقر في مصر، خصوصًا أن الدوخة التي تسببها الإنفلونزا ربما تجعل الفأر يتخيل أنه مستهدف ببرنامج مكافحة الفقر، وعليك أن تُقنع بقه فأرًا مصابًا بالإنفلونزا بالفرق بين الفقر والفأر. ستقول لي إنه لا يوجد فأر بهذا الغباء لكي يودّي نفسه في ستين داهية، ويتسبب في حملة إبادة جماعية لبني جنسه، عندك حق، طيب ماذا لو أصابت العدوى فأرًا من فئران مجلس الشعب التي أكلت مشروعات الإصلاح السياسي الحقيقي المركونة من سنين في درج الدكتور فتحي سرور كرّم غازي عوض الله اسمه؟ لا تخف، لن أجرؤ على افتراض أن فأرًا حتى لو كان مموّلًا من حزب الله يمكن أن يهاجم الدكتور سرور، فكل فئران الدنيا تعلم أنه محمي ببركة رئيسة الديوان الطاهرة أم العواجز، لكن أليس واردًا أن يقرر فأر ما أن يقرُم إصبع الدكتور يوسف بطرس غالي فيعديه لا قدر الله بإنفلونزا الطيور، ليصاب بإعياء ينسيه أين وضع خطة تدبير فلوس العلاوة، فيمشي في أروقة مجلس الشعب زائغ النظرات مرغيًا ومزبدًا: «إللي عايز يرفع رجله ويلطج مالوش عندي علاوة.. أنا وزير شوارعي.. وإذا كان غازي عوض الله كرّم الدكتور فتحي أنا بقه كرّمت محمد شومان»، ثم ينقض فجأة على الدكتور أحمد نظيف فيقبله وينقل له العدوى، فتضرب إنفلونزا الفئران الطائرة أعلى مستوى في مصر، وساعتها فليتغمدنا جميعًا غازي عوض الله بتكريم صالونه الثقافي.

إبريل ٢٠٠٩

في عين العدو

أصابني الذهول وأنا أستمع إلى الرئيس مبارك في خطابه الأخير بمناسبة عيد تحرير سيناء وهو يقول بنبرات حاسمة: «احذروا غضب مصر وشعبها». فقد ظننت وبعض الظن ليس إثمًا، أن الرئيس قد فاض به الكيل مما تنشره الصحف وتبثه الفضائيات عن أوجاع المصريين، فقرر أن يوجه رسالة حاسمة إلى قيادات حزبه الوطني الحاكم يحذرهم من غضب الشعب المصري الحليم بعد أن تمادوا في تجويعه وإفقاره وتجهيله، لكن شروحات رؤساء تحرير الصحف الحكومية لمتن الخطاب أوضحت أن الرئيس كان يتحدث إلى النظام الإيراني وحلفائه في حزب الله، فأصابني ذهول أشد عندما أدركت أننا اخترنا جهة واحدة لنصب عليها جام غضبنا، صحيح أنها تستحقه، لكنها بالتأكيد ليست الجهة الوحيدة التي ينبغي أن نحذرها من غضب الشعب المصري.

والله وبالله وتالله، لو أرسلت جميع أحزاب الله وجميع أحزاب الشيطان خلايا سرية إلى مصر كل يوم لما أضرت بمصر وبالمصريين خُمس الضرر الذي يلحقه بها وبهم الحزب الوطني المبارك في يوم واحد، ومع ذلك لا نجد بين حكام هذا البلد وأبواقهم وأذرعتهم من يواجه نفسه بحقيقة أن أكبر خطر على الأمن القومي المصري هو تحالف الثروة والسلطة الذي أغرق البلاد في المصالح المقيتة وأعماها عن مواجهة مخاطر التطرف والطائفية والعنف الاجتماعي. هم يتصورون أنهم جابوا الديب من ديله عندما يجعلون من إيران عدوًا وحيدًا لمصر، دون أن يسأل أحدهم نفسه هل سينصلح حالنا قيد أنملة إذا استمررنا في شتم إيران وعض حزب الله آناء الليل وأطراف النهار بالشكل الذي تجرعناه في كل وسائل الإعلام المقروءة والمرئية والمسموعة والمشمومة طيلة الأسابيع الماضية، حتى إنني خشيت أن يتصور أبناء الأجيال الجديدة التي لم تعاصر

يوم تحرير سيناء المجيد أننا حررناها من غزو الإيرانيين وأزلنا علم حزب الله من عليها لنرفع علم مصر.

نعم، أخطأ حزب الله في حق مصر خطأ فادحًا، وأخطأ في حق نفسه أيضًا عندما خرج بتهور شديد على ثوابته التي ظل ملتزمًا بها على الدوام والتي أكسبته الاحترام وجعلته استثناء بين جميع القوى الإسلامية في الشرق. كل أصحاب الرأي المحترمين في البلاد قالوا ذلك بأساليب شديدة الرقي تنبع من إدراكهم لقوة موقف مصر في القضية، ربما لأنهم تعلموا في المدارس أن «صوتك العالي دليل على ضعف موقفك»، أما الذين مردوا على الموالسة والشرشحة فقد أساءوا إلى مصر أكثر مما أحسنوا، وفوتوا فرصة سانحة لانتقاد حزب الله بشكل متحضر وحاسم، كان من الممكن أن يدفع الشيخ حسن نصر الله إلى الاعتذار لمصر علنًا، وهو الرجل الذي امتلك شجاعة الاعتذار قبل ذلك عن عملية خطف الجنديين الإسرائيليين التي تسببت في العدوان الإسرائيلي الغاشم على لبنان. على أي حال، أصبحت قضية حزب الله الآن بين يدي النائب العام الذي نثق في كفاءته ونزاهته. وحتى يحكم فيها القضاء، علينا أن نتوقف عن خداع النفس، وعن استغلال القضية لتصوير أجهزة الأمن على أنها في أفضل حالاتها، والغلوشة على عجزها عن حل قضايا شديدة الخطورة، والأهم أن نتوقف عن خطيئتنا المفضلة: تحويل مدافع غضبنا باتجاه العدو الغلط.

عندي ألف انتقاد لإيران وحزب الله وسوريا وحماس، لكن كل تلك الانتقادات لن تجعلني أتعامل مع أي منهم على أنه عدونا الأولى بالغضب؛ لأنني أؤمن أن عدونا الأول هو أنفسنا، ثم أنفسنا ثم أنفسنا ألف مرة، ثم إسرائيل؛ فإسرائيل لم تصبح قوية ومتغطرسة ومستأسدة إلا عندما ضعفنا وهُنّا وسَهُل الهوان علينا وفقدنا عقولنا وإرادتنا وقوتنا الاقتصادية واحترامنا للعلم وتقديسنا لحرية المواطن، والأهم من ذلك أننا فقدنا قدرتنا كشعوب على الغضب الحقيقي؛ الغضب الذي يخيف حكامنا ويردعهم عن الغلط ويدفعهم إلى الإصلاح والتغيير بدلًا من أن يتغيروا، وهو غضب لو امتلكناه لصرنا أقوياء في نظر أعدائنا دون الحاجة إلى خطابات رنانة ولا تشنج ولا مزايدات ولا كذب على النفس، وكفى بالكذب على النفس عدوًّا مبينًا.

٢٦ إبريل ٢٠٠٩

المحنة يا ريس

ويأبى الله إلا أن يقطع للمصريين عادة من عاداتهم.

المصريون منذ نعومة ضوافرهم يحبون أكل الكحك في العيد الصغير، ويتوقون إلى اللحمة في العيد الكبير، ويكسرون سم الفسيخ في عيد شم النسيم، أما في عيد العمال فتنحصر بهجتهم في ترقب الهتاف العمالي الأشهر: «المنحة يا ريس»، والذي ورثوا طقوسه جيلًا بعد جيل، حين يتصاعد الهتاف في سماء قاعة المؤتمرات على الهواء مباشرة، فيقطع الرئيس خطابه التاريخي وترتسم ضحكة عريضة على وجهه ويهز رأسه علامة الرضا فيشعر المسئولون الجالسون في الصفوف الأمامية من فرط البهجة بأنهم سكارى وما هم بسكارى، بينما يصفق أبناء الرئيس من العمال تصفيقًا تلقائيًا لا يصفقونه في أفراح بناتهم فتتسع ضحكة الرئيس أكثر وأكثر، ثم يشعر الرئيس أن موضوع التصفيق التلقائي طوّل، فيرفع يده طالبًا بشكل غير مباشر إيقافه. يقف عامل إنه عامل ليملأ الفراغ التلقائي الناتج عن توقف التصفيق، بهتاف تلقائي أو قصيدة تلقائية، والرئيس يفاجأ ويهز رأسه شاكرًا، ثم يستأنف خطابه التاريخي حتى ينهيه دون أن يقول لأحد هل ستكون هناك منحة فعلًا هذه السنة، ولا يبدو العمال التلقائيون في القاعة مشغولين بالإجابة عن سؤال كهذا، فقد ضحك الرئيس، وتلك منحة في حد ذاتها.

بالأمس وأنا أستمع إلى الرئيس مبارك في خطابه بمناسبة عيد العمال، بدا لي أن مصر لن تشهد لعلعة هتاف «المنحة يا ريس» من جديد؛ فقد تحدث الرئيس بشكل صارم عن المستقبل المجهول للعلاوة الموعودة مكاشفًا أبناءه العمال أنه لن يستطيع تحديد رقم لها؛ لأن الظروف صعبة، وعندما تعالت أصوات العمال لتقاطعه بشكل تلقائي، تلقائي بجد،

أخذ يناشد أبناءه العمال أن يدعوه يكمل كلامه، واستدار وزير المالية يوسف بطرس غالي إلى الساخطين يزغر لهم لكي يصمتوا، ولمحتُ في عيني وزير الداخلية حبيب العادلي نظرة دهشة من هذه التلقائية المفاجئة التي جعلت أبناء الرئيس من العمال يُبرطمون بما لم تسعفنا أجهزة الصوت أن نسمعه، والرئيس كان رابط الجأش وتحمل تلقائية أبنائه، وعندما صمتوا فجأة قال لهم مطمئنًا إنه في صفهم وإنه سيتحدث مع الحكومة باسمهم عند إقرار الميزانية. وفجأة دوى تصفيق تلقائي في القاعة وانتهى الخطاب التاريخي وسط ذهول العمال الذين شهدوا كيف تحولت المنحة إلى علاوة، ثم صارت العلاوة نفسها على كف يوسف بطرس غالي، مما يعني أنها ستصفصف على محنة حقيقية يعيشها عمال مصر برغم أنهم كانوا مهذبين للغاية خلال الأشهر الماضية وسلّموا زمام الاحتجاج والإضراب إلى الموظفين والمهنيين.

لم تبدأ نهاية عصر «المنحة يا ريس» بالأمس، بدأت للأمانة قبل عامين بعد غياب أبي التلقائيين السيد راشد عن مسرح التلقائية، عندما رد الرئيس على هتاف «المنحة يا ريس» بقوله: «لو عندنا إمكانيات كنا زودنا المرتبات كل سنة خمسين في المية.. هاتوا الإمكانيات». العمال التلقائيون يومها سادهم ارتباك تلقائي، كل من شاهد الخطاب رأى في أعينهم الخوف من أن ينقض عليهم ضباط أمن الدولة بعد خروج الرئيس ليطالبوهم بإخراج الإمكانيات من مخابئها، حتى خفت أن يقف عَامل مذعور تلقائي ليصرخ: «والمصحف يا باشا ما أعرف الإمكانيات دي فين.. يا رب أنطس في نظري لو كنت شفت إمكانيات وخبيتها». شعرت أن الأبناء العمال تبادلوا بقلق تلقائي النظرات مع أعمامهم الذين اختاروهم فطمأنهم الأعمام أنهم يعرفون الإمكانيات فين، لتتبدد نوبة الذعر الطارئة ويقف الأبناء من جديد ليُسمعوا الرئيس هتافات تلقائية لم يسمعها من قبل: «بنحبك يا ريس.. ربنا يخليك لينا يا ريس.. مبارك يا بلاش واحد غيره ما يلزمناش». لكن الرئيس عندما وقف عامل وأخذ راحته حبتين في الشعر التلقائي أراد أن يؤدبه بشكل أبوي حاني قائلًا: «الظاهر إن عدد الشعراء من العمال بيزيد كل سنة». ساد القاعة يومها ارتباك تلقائي ولم يدرِ أحد هل ما قاله الرئيس مديح للإدارة المركزية للشعر التلقائي في اتحاد العمال أم انتقاد للعمال الذين تركوا عجلة الإمكانيات مثقوبة وأخذوا يقرضون الشعر.

الآن، من العبث أن نسأل عن أزمة الشعر التي انتابت عمال مصر، كما أنه من قلة

التهذيب أن نسأل عن مصير الإمكانيات التي وعدنا بها برنامج الرئيس الانتخابي، وتُقطع ألسنتنا لو سألنا عن الإجراءات التي ستتخذ في الأعوام القادمة لإعادة التلقائية إلى نصابها، فلا يقاطع أحد خطاب الرئيس إلا إذا كان هتيفًا تلقائيًّا أو شاعرًا تلقائيًّا. كل ما يمكن أن نفعله الآن مراعاة للظرف التاريخي أن نقرأ الفاتحة على شعار «المنحة يا ريس»، وندعو الله أن يظهر الإمكانيات من حيث اختفت، إنه على ما يشاء قدير.

مايو ٢٠٠٩

ثورة الليونز

كنت أعرف أن حاصل جمع شخصي بعدد من سيدات الليونز من شأنه أن يؤدي إلى تفاعل كيميائي حاد قد يؤدي إلى زعزعة الاستقرار وقلب نظام الحكم على وشه.

لذلك لم أستغرب عندما قالت لي السيدة سامية الشناوي وهي مرتبكة إن الندوة التي كان مقررًا أن يعقدها لي نادي «ليونز نفرتيتي» يوم السابع من إبريل أُلغيت بعد اعتذار إدارة فندق موفنبيك المطار الذي أبلغ النادي اعتراض الأمن على الندوة، قلت لها مازحًا: «يبدو أن أجهزة الأمن خشيت أن أقنع سيدات ناديكم بأن نكف عن إضاعة الوقت في الكلام ونتوجه معًا لاحتلال مطار القاهرة ونرغم كل الطائرات على الهبوط أو الإقلاع حتى يتم إعادة الإشراف القضائي على الانتخابات التشريعية والرئاسية»، فردت بحماس أنهم قرروا عقد الندوة بعد أسبوع في فندق آخر بمصر الجديدة، حاولت أن أقنعها أنه لا فائدة من المحاولة لأنه يبدو أنني أصبحت مسجل خطر فندقيًا، لكنها أصرت على أن تنعقد الندوة بأي ثمن، وبعدها بأيام بلغ بها الإحراج أن ترسل إليّ رسالة نصها: «يبدو أنك فعلًا مسجل خطر». وأنا الحقيقة لمت نفسي لأنني كان ينبغي أن أوفر عليها عناء المحاولة وأروي لها ما حدث لي في العام الماضي، عندما أُلغيت لي ندوة «روتارية» كانت قد دعتني إليها السيدة نهى يحيى حقي، ولبيت النداء تقديرًا لها ولاسم والدها العظيم، ثم فوجئت بها قبل الندوة بيوم تقول لي بصوت مخنوق إن فندق النيل هيلتون ألغى الندوة بسبب اعتراض الأمن، وأعاد لهم مبلغ تأجير القاعة كاملًا، وعندما عبرت لها عن دهشتي ظنت أنني أُكذِّبها وأرادت أن تعطي التليفون لسيدة فاضلة لكي تؤكد ما حدث، ثم فهمت أنني كنت أستغرب إعادة الفندق لمبلغ تأجير القاعة، فهو أمر قلما يحدث في مصر، حيث لا يعود مبلغ إلى أصحابه إلا ناقصًا حتة وأحيانًا حتتين، هي

ظننت أنني أهزر لتلطيف الجو، وأنا لم أكن أفعل؛ لأن الجو كان ربيعيًّا مغبرًا خانقًا، ولن يجدي معه أي هزار.

أرجو ألا يحاول أحدكم تلطيف الجو والتخفيف عليَّ من عناء هذا الحصار الفندقي لنشاطي الندواتي، بل ادعوا الله لي أن تُلغَى كل الندوات التي أُدعى إليها، فليس أحب على قلبي من الأنتخة في البيت، لدرجة أن شغالة بيتنا العامر أم جابر عندما باشرت عملها لدينا وقبل أن تعرف طبيعة عملي، قالت لزوجتي بإشفاق: «بإذن الله ربنا هيكرمك في الأستاذ ويمسك شغل بدل ما هو قاعد لك طول اليوم في البيت». وما لبيت هاتين الدعوتين، إلا لأنني أعاني ضعفًا تجاه كل ما تلتصق به أسماء الروتاري والليونز والإينرويل، فأنا من طبقة كانت قبل ذيوع هذه الأسماء في وسائل الإعلام تعتبرها شتائم. لعلك تذكر المرحومة سعاد نصر عندما شخطت في زوجها لطفي لبيب في فيلم «صايع بحر» عندما وصفها بأنها سيدة روتاري قبل أن يتدخل ابنهما حتيرة ليهدي النفوس ويقول لها: «يا امه الروتاري دي كافتيريا بس غالية شوية». حدث هذا الموقف بحذافيره ولا فخر في أحد بيوت عائلتنا، بعدها تعقد ضعفي عندما ترعرعت في فترة الثمانينيات على تلك الكتب التي تروي أساطير مفزعة عن علاقة نوادي الروتاري والليونز والإينرويل بالماسونية العالمية، وكيف يتم تجنيد من يرتبط بها على ضوء الشمعدان اليهودي ويمول بملايين الدولارات ويحاط بالفاتنات المغويات حتى ينفذ سياسة الماسونية في حكم العالم، لذلك عندما دعيت قبل عامين لحضور ندوة لإحدى نوادي سيدات الإينرويل، لبيت الدعوة مسرعًا، وعندما ذهبت إلى مركب السرايا حيث انعقدت الندوة وجدت الحاضرات سيدات فاضلات متزوجات تجاوزن سن الغواية، واستغربت أن حوارنا الطويل عن الشأن العام وهموم الوطن انتهى دون أن تسدل ستائر القاعة وتضاء الشمعدانات ويتم الاتفاق على الثروة التي سأنالها مقابل الانصياع للماسونية، ربما لذلك كنت حريصًا على تلبية الدعوتين التاليتين لعلني أعوض ما فاتني من تمويل ماسوني فاحش، لكن أجهزة الأمن اليقظة سبقتني وداهمت أحلامي وألغت الندوتين، فهل أملك إلا شكر أجهزة الأمن التي قررت أن تحميني من نفسي الضعيفة التي كانت ستنهار حتمًا أمام إغراء الماسونية العالمية.

والله أكبر، ولتحيا عيون الأمن الساهرة في فنادق القاهرة، باستثناء لوكاندات الحسين طبعًا.

مايو ٢٠٠٩

في يوم ميلادك

لم يعد أمامنا إلا أن نهتف خلف شيخ الساخرين محمد الماغوط: «يا مُثبت العقل والدين والرئيس». تقرأ الصحف الحكومية فتشعر من فرط البهجة الطافحة فيها أننا يجب أن نكون ممتنين جدًّا لعدالة السماء؛ لأنها أخرت وباء إنفلونزا الخنازير عن الوصول إلى الدرجة السادسة ومنعته من اجتياح الكون، لكي يتاح لنا أن نحتفل بعيد ميلاد الرئيس مبارك، ثم ليكن بعد ذلك ما يكون.

عفوك ورضاك يا الله. ها نحن سادرون في غينا السنوي، دون أن يدفعنا الخوف من الفناء لنكون ولو لمرة على مستوى المسئولية، وأن نغلط مرة في حياتنا فنقتدي بالعالم المتقدم، ونفعل مثلًا كما فعل قبل أيام الناس قلالات الذوق والحساسة الذين في أمريكا. هل نظرت إليهم وهم يحاسبون رئيسهم «الفريش» باراك أوباما حساب الـ«two angels» على حصاد مائة يوم فقط من حكمه دون أن يقف من يقول لهم: «يا ناس عيب، الراجل لسه ماخدش فرصته.. اصبروا عليه وراعوا إن أمريكا مستهدفة.. هو احنا كنا نحلم بحد زيه.. ما تنسوش إننا كنا في زنقة وعوزة وخنقة.. وديوننا تكتيفة وشنقة»، بالعكس كل وسائل الإعلام بمختلف اتجاهاتها عصرت الرجل عصرًا ولم ترقب فيه إلًّا ولا ذمة، والرجل ذات نفسه لم يسق فيها ولم تتلبسه العظمة ولم يخرج على الناس ليقول لهم: «بتحاسبوني ازاي.. مش شايفين الأزمة اللي احنا فيها.. أجيب لكو منين»، بل حاول بكل تواضع أن يدافع عن أدائه، ووعد بتطويره، وتقبل آراء كل مَن حاسبوه دون أن ينبس ببنت شفة، أو يلوي الشفة نفسها، ولم يفعل ذلك تفضلًا منه، بل لأنه يعلم أنه جاء بأصوات الناس ويمكن أن يرحل بأصوات الناس.

أما في بلادنا التي يأتي فيها الحكام على أنغام الموسيقى العسكرية ويرحلون على صوت القرآن الكريم، فحتى مائة سنة من الحكم ليست كافية لكي يطلب الشعب

حسابًا حقيقيًا وشاملًا وموضوعيًا لكي يسأل فيه رئيسه عن حصاد حكمه له كل هذه السنيـــــــــــــن التي دخل بعضها في بعض فلم يعد يعرف لها أحد بداية من وسط، وحاشا لله أن يتجرأ أحد فيطلب أن يعرف لها نهاية، كل ما يمكن للشعب معرفته دائمًا هو أن الوقت لا يزال مبكرًا على الحكم على أداء الرئيس؛ لأن الوطن لم يخرج بعد من عنق الزجاجة، مع أن القاصي والداني يعلم جيدًا أن عنق الزجاجة اندب في عنق الوطن، ولم يعد للوطن سوى أن يحلم بخروج عنق الزجاجة منه، وهو يهتف: «أرجوك أعطني هذا الدواء أو أي بديل يوقف النزيف، أبقني على قيد الحياة ولا تطلب الحساب وحياتك»، فلا وقت للحساب خصوصًا في هذه الأيام المفترجة التي يفترض فيها أن يقف الشعب صفًا واحدًا ليموء خلف الكاتب الأليف ممتاز القط هاتفًا بالنداء الذي لم يجد القط حرجًا في نشره بالبنط الحياني «مالناش غيرك يا ريس»، وهو نداء تدرك فور قراءتك له أن مصر مهددة باجتياح وباء إنفلونزا القطط من الفترة السادسة.

فلتحل عليّ شتى الأوبئة لو كنت هازلًا، أقسم لكم إنني أكتب وقلبي يتمزق مما وصل إليه حالنا، والله العظيم تلاتة عيب، لو لم يكن عيبًا على تاريخنا ومسئوليتنا وظروفنا وأحوالنا، فعيب على قدر من يحكمنا أن يكون هذا هو مستوى من يختارهم لكي يمثلوه صحفيًّا وإعلاميًّا، عيب علينا أن نسمح لهؤلاء أن يهينوا هذه البلاد العظيمة التي اخترعت التوحيد والعلوم والفنون والحضارة والطب والهندسة والمعمار، لكنهم مستمرون في الكفاح من أجل حرمانها بعد سبعة آلاف سنة حضارة من اختراع توصلت إليه حتى جمهوريات الموز، اختراع اسمه الرئيس السابق. عيب أن نسمح لهم بأن يعيدوا هذه البلاد ثانية إلى عصرٍ، المفترض أنها كافحت لكي تتجاوزه، عصر أعياد الميلاد الملكية وأعياد الجلوس الملكي وأفراح الأنجال، بينما استقر العالم المتقدم على أن عيد ميلاد رئيس البلاد أمر يخصه هو وأسرته، وليس مناسبة قومية أو وطنية تستحق كل هذا الطوفان من المدائح المثيرة للأسى.

لست جلياطًا ولا قليل الذوق ولا راغبًا في ضرب كرسي في كلوب المدائح الرئاسية التي تتصاعد في أرجاء الوطن، أنا فقط أحلم بوطن حر متحضر لا يكبر فيه الأطفال على النفاق والزيف والكذب، ووطن نتمنى فيه للحاكم العمر المديد وليس الحكم المديد، ونسأل الله له دوام الصحة وليس دوام الحكم.

٤ مايو ٢٠٠٩

مقالة عن الموت

تكون في عز شبابك فتلعب برأسك الأحلام، تفتح صدرك للدنيا وأنت تشتهي منها الكثير، يقهرك ضياع بعض الأماني وتضيق نفسك بتأجيل بعضها الآخر، ثم تنجب فتعرف طعمًا جديدًا للحياة، ولا تفهم شيئًا في البداية، ثم بعد سنين تقل أو تكثر تفهم اللي فيها، وتصبح مستعدًّا لأن تقايض كل أحلامك وأمانيك مقابل أمنية وحيدة، أن يأتي يومك قبل يوم أبنائك، ترجو ذلك من الله في سجودك وخلوتك ولحظات صفائك، أنت تعلم أن الموت مصير كل حي، لكنك أيضًا تعلم أن موتك وأنت ترى أبناءك ينعمون بالحياة والصحة أحب إليك بكثير، فكم هي غريبة هذه الحياة يا صديقي، وكم هي جميلة أيضًا، وكم هو معقد هذا الإنسان الذي أودع الله فيه سره الإلهي، وجعله مستعدًّا لكي يموت فداء لأبنائه، ومستعدًّا لكي يقتل أبناء الآخرين من أجل أبنائه.

كفى بالموت واعظًا، ولو أكملت الجملة التي تسمعها في كل جنازة وكل عزاء وكل رحيل وربما في كل خطبة جمعة لا تفوتك، لعرفت أن من لم يعظه الموت فلا واعظ له، ومع ذلك أو لذلك نحن لا يعظنا الموت، ربما لأن الحياة نفسها بكل جمالها وسحرها وفتنتها لم تعظنا، فكيف يعظنا الموت بوحشته وفزعته ووطأته الثقيلة، قد ترى ذلك منطقًا معكوسًا، لكنني أراه المنطق السليم. الأولى بنا أن نتعظ من ضحكات الأطفال لا من غيابهم، أن يغيرنا جمال الحياة وليس انتهاؤها. يكفي نظرك إلى وجه المحبوب أن تعيش عبدًا طائعًا لله مبتهلًا إليه أن يطيل فرحتك بمن تحب، قدرتك على أن تشم هواء البحر وأنت تطالع لحظة الغروب كفيلة بأن تجعلك خادمًا لعباد الله جميعًا، لكنه الإنسان يا صديقي، قادر على أن ينسى كل هذا أمام أول شعور قوة ينتابه، قادر على أن ينسى حتى ذلك الشعور المرير بالضآلة الذي يتملكه بعد أن تناله مصيبة الموت، الشعور بأنه لا يملك من أمره شيئًا، ذلك الشعور الذي

لا يلبث أن يتلاشى دون أن يدري أحد كيف ولا لماذا، ليعود الإنسان إلى ظنه القديم أنه يملك كل شيء، وأن الذي يموت فقط هم الآخرون وأبناؤهم وأحبابهم.

لا أريد أن أعظك، فالشيطان لا يعظ، لكن دعني أسألك هل تذكر الآن عدد الجنازات التي كان يمكن لها أن تغيرك إلى الأبد، لكنك لم تتغير قطّ بمحض إرادتك؟ هل تحب الحياة مثلي؟ لماذا إذن لا تتذكر أنها حق لكل من حولك؟ هل ساهمت في جعل حياة الآخرين أفضل؟ هل تبحث عن السعادة الدائمة؟ هل حاولت أن تحصل عليها بإسعاد الآخرين أو جعلهم أقل تعاسة؟ من الذي ضحك عليك وقال لك إنك لو أعرضت ونأيت بجانبك ستجد مهربًا آمنًا من أسئلة كهذه؟ هل تصدقني لو قلت لك إنني وجدت الحل السحري للهروب من مخافة الموت، وجدته كغيري في الحياة ذاتها، أحاول فقط ألا أظلم الآخرين دائمًا. أحاول ألا أتعس من حولي. أحاول أن أؤخر وصول المرض إليَّ وإلى من أُحب. أحاول أن أفهم. أن أستمر في التعلم من أخطائي. وأن أحب أخطائي قبل حاجاتي الكويسة. أحاول أن أتصفح كل كتاب اشتريته لكي لا أموت وفي نفسي شيء منه. أحاول القبض على المتعة وأستمتع بفشلي الدائم في ذلك، وعندما يملؤني أحيانًا الفخر أنتشي برؤيته يتبدد فور أن أتذكر أنني ولا حاجة. أحاول أن أطلق بين الحين والآخر سجينًا من أسر محاكم تفتيشي التي آمل أن أغلقها قريبًا، وأحلم بأن يأتي فورًا ذلك اليوم الذي لا أفعل فيه شيئًا أشعر أنه سيضيع من عمري ولو دقيقة. أحرر كل يوم شبرًا من وجداني عندما أتخلص من شيء أنا مضطر لفعله دون أن أحبه. وأشعر بالسعادة لأنني اكتشفت مبكرًا أو ربما متأخرًا، من يدري، الترتيب السليم للأولويات في أدعيتي لله عز وجل. لم يعد فيها فصال، الأولوية التي يجب أن تدعو الله بها دائمًا وأبدًا هي أن يجعل يومك قبل يوم من تحب، ثم بعد ذلك هناك متسع في رحمة الله وكرمه لكل التفاصيل، حتى تلك التي تظنها غير لائقة للحضور في لحظة دعائك.

فليأت الموت إذا أراد، المهم أن يأتيني أنا أولًا. والنبي يا رب أنا أولًا.

(كان مفروضًا أن تنشر هذه المقالة عقب الرحيل الفاجع لحفيد الرئيس مبارك «محمد علاء» رحمه الله.. لكن إدارة تحرير الصحيفة منعت نشرها وتسبب ذلك في أزمة أدت إلى اعتذاري عن مواصلة الكتابة وعدت بعد ضغوط من القراء وتم نشر المقالة بعدها بأسابيع).

مذاهب في الحزن

لا تأتمن على أحزانك إلا النبلاء، وحدهم يمكن أن يشاركوك فيها ويخففوا عنك أثقالها. أما الأوباش فمن شأنهم أن ينحطوا بأحزانك ويبتذلوها ويجعلوها ممجوجة ومنفرة.

للناس في حزنهم مذاهب. لم أحزن على رحيل «محمد علاء مبارك» لأنه حفيد رئيس الجمهورية، بل لأنه طفل بريء خطفه الموت وحرمه من بهجة الحياة، تمامًا مثلما خطف قبله أطفال الدويقة، وأطفال عبارة ممدوح إسماعيل، وأطفال قطار الصعيد، وأطفال معهد الأورام، وكل الأطفال الذين تقضي حكمة الله أن يخطفهم الموت من وسطنا لعلنا نتعظ برحيلهم فنسعى لصنع عالم أفضل يكبر فيه كل الأطفال الباقين على قيد الحياة سعداء ومبتهجين وأحرارًا ومتساويين في حقوقهم التي خلقهم الله من أجلها بني آدمين لا متاعًا ولا عقارًا.

لعلك تذكر أنني قبل أسبوع شكرت الله على حالة التعاطف الشعبي التي حظي بها رئيس الوزراء الدكتور أحمد نظيف بعد رحيل زوجته رحمها الله، وهي الحالة التي أثبتت أن بربرية الحزب الوطني لم تُفقد المصريين تحضرهم، وحمدت للرجل حرصه على عدم المتاجرة بحزنه أو السماح لهواة النفاق باستغلاله أسوأ استغلال. ثم لما شاء القدر أن يفجع الرئيس مبارك وعائلته برحيل زهرة العائلة بتلك الصورة القاسية المفزعة، يجب أن نحمد للرئيس مبارك أنه لم ينسَ أنه يحكم بلدًا جمهوريًا لا يصح فيه أن يختلط العام بالخاص، ولذلك أصر مشكورًا على أن تقام جنازة حفيده بتلك الصورة الحضارية التي توحد فيها الخصوم السياسيون أمام رهبة الموت، ثم حرص الرئيس في خطوة أشد تحضرًا على أن يرجو في نعي الأسرة المنشور في الأهرام ألا يشاطره أحد العزاء، ومع ذلك أبى الكثيرون من المفسدين في الأرض إلا أن ينحطوا بهذا الحزن الراقي ويبتذلوه ويجبروا الناس على

التأفف من ذلك الاستغلال السياسي الرخيص لرحيل هذا الطفل البريء البهي الطلعة الذي يخطف القلب، والذي تكفلت دببة الحزب الوطني الغشيمة الغاشمة ببراعة مخجلة في إفساد لحظات الحزن الجماعي على رحيله والتي توحد المصريون فيها على قلب رجل واحد.

أي بذاءة تلك التي تجعل كاتبًا غشيمًا يتطوع بإدخال الرئيس وأسرته إلى الجنة بضمان شخصي في مقاله، مع أن سيدنا «أبو بكر الصديق» نفسه يقول: «لو كانت إحدى قدمي في الجنة والأخرى خارجها ما أمنت مكر الله». وتدفع قنوات فضائية خاصة لوقف بث برامجها وإذاعة القرآن الكريم مع أنها لم تفعل ذلك بعد رحيل ألف ومائة مصري في حادث العبارة الأليم، ولا في رحيل مئات آخرين في فاجعة الدويقة أو قطار الصعيد، وتجعل صحفًا خاصة تنشر صفحات تعزية رفضها الرئيس نفسه لكنها قررت أن تنشرها من باب إظهار حسن النية الوطنية لعلها تنفع في أيام سوداء قادمة. ثم يأتي مفتي الجمهورية الذي لا يكف عن إدهاشنا يومًا بعد يوم ليطل بطلعته في برنامج البيت بيتك ويعلن أنه في حياته لم يحضر جنازة تحفها الرحمة ويسودها الهدوء مثل جنازة «محمد علاء» رحمه الله، فيجبر الناس على أن ينسوا حزنهم ويلفتوا انتباه فضيلته إلى أن الهدوء الذي شهده كان وراءه الجهات الأمنية التي فرضت حصارًا أمنيًا على المنطقة برمتها، وأن الملائكة تحف بالرحمة والسكينة جنازات جميع الأطفال دون أن تخص طفلًا بعينه. ثم بعد كل هذا يأتي كُتاب حكوميون لينشروا كلامًا مُسفًّا يعتبرون فيه حزن المصريين على رحيل ذلك الطفل الجميل استفتاء جماهيريًا وإجماعًا شعبيًا على حبهم للرئيس، مع أن غالبية المصريين الذين ذرفوا الدموع الصادقة على تلك الفاجعة يكتوون بنار سياسات حزب الرئيس ورجاله، ولو أجريت انتخابات نزيهة تحت إشراف قضائي كامل الآن لسقط حزب الرئيس فيها بالثلث؛ لأن المصريين ليسوا أغبياء ولا سذجًا ليجعلوا مشاعر الحزن النبيل والتضامن الواجب في ساعة الشدة تنسيهم رغبتهم في التغيير والإصلاح.

رحم الله «محمد علاء مبارك» وأسكنه فسيح جناته وألهم جده وجدته ووالده ووالدته وعمه وكل عائلته الصبر والسلوان، هو في جنة الخلد، ليس في ذلك شك، لكن هل نتعظ برحيله الفاجع ونخلق جميعًا من لحظة التعاطف النبيل التي سادت مصر كلها بداية لمرحلة جديدة فتصبح مصر يومًا ما جنة لأطفال الفقراء والأغنياء على السواء، ولعلنا إن فعلنا نستحق أن نورد على الجنة كما يردها الأطفال.

مايو ٢٠٠٩

المصاحف والقتلة

مشكلة الفسدة وقتالين القُتلا في بلادنا أن علاقتهم بالمصاحف تبدأ دائمًا في أقفاص المحاكم.

الله بصير بعباده، وحاشا لنا أن نقفل باب التوبة في وجه أحد، فقد نكون يومًا بحاجة ماسة لفتحه في وجوهنا، لكن باب السؤال لم يُقفل بعد ولذلك نسأل: ألم يكن أفضل لنا ولمصر، لو كانت علاقة ضابط أمن الدولة محسن السكري ورجل الأعمال هشام طلعت مصطفى بالمصحف الشريف قد بدأت مبكرًا، فقط لكي لا نجد أنفسنا محاصرين بمصمصات الشفاه التي تقول مصدقة نفسها: «معقولة راجل زي ده ما بيسيبش المصحف وباني في الرحاب جامع كل مية متر يعمل كده.. ده أكيد ملعوب معمول له». ليس هذا سوى اقتباس بسيط من مئات المكالمات التي سمحت لها البرامج الفضائية بأن تُجَرِّح على الهواء مباشرة في حكم تاريخي أصدره قاض لا يخشى في الله لومة لائم، وهو ما يدفعك لأن تسأل: لماذا لا تسمح هذه البرامج إذن بالتجريح في أحكام المحاكم الاستثنائية على المدنيين مهما كان خلافنا معهم؟ والإجابة ليست صعبة: لأن الدولة لا تسمح بتلقي أموال مباشرة أو في صورة إعلانات من جماعة الإخوان، ولو سَمَحت لقيل في تلك المحاكم ما قاله فريد الديب دون «تِحِشا» بحق هيئة المحكمة الموقرة التي أحالت أوراق موكله «هطم» إلى المفتي.

إنها جريمة بكل المقاييس أن يتم استخدام المشاعر الدينية الجياشة في غسل سمعة رجل أعمال أدين بالتحريض على القتل بعد أن أنفق الملايين على هيئات دفاعه. تجد من يقول لك إن هذه طيبة تكشف عاطفية شعبنا، مع أن هذه الطيبة التي لا تظهر إلا في غير موضعها ستذهب بنا في ستين داهية تهون إلى جوارها الدواهي التي ذهبنا إليها بالفعل. أليست داهية أن نسمع من يقول عن فاسد أو ظالم أو محرض على القتل إنه «ما يستاهلش

اللي حصل له.. برضه الراجل ده خدم مصر»، فيضطرك لأن تصرخ في وجهه، بل وتطبق في زمارة رقبته لو كان بينكما عشم: «خدم مصر بأمارة إيه.. ده مصر هي اللي ببركة الحزب الوطني شغلوها في خدمته. مصر خيرها مغرقه هو واللي زيه ممن لم يكونوا يحلمون بمعشار ما وصلوا إليه.. ووالله لو أعطيت الأراضي البور التي منحت لهم برخص التراب لأبله لا يعرف كوعه من بوعه لأكل منها الشهد المُصفى الذي أكله «هطم» وباقي زملائه الذين لا يحبون نساء الكليبات، بل يفضلون اللي عايزة تتجوز وتقعد في البيت».

لن تعدم من يقول لك من فرط ما غسلوا دماغه إعلاميًّا: «بس الراجل فاتح آلاف البيوت.. مش حرام يعني يعدموه عشان واحدة زي دي؟!». تحاول أن تمسك أعصابك لأنك تكتشف أنك سمعت هذا الكلام البذيء يتردد في البرامج إياها على لسان إعلاميين وصحفيين وقانونيين يواصلون كل يوم تبديد ما كسبوه من احترام الناس حتى أخشى أن يأتي حكم النقض وقد صار كل رصيدهم من الاحترام مُمثلًا في ثمن البدل التي يرتدونها، تسأل الله أن يلهمك الصبر ثم تقول لمحدثك إنه إذا كان السيد «هطم» قد فتح آلاف البيوت فقد فتح سكانها بمجهودهم وعرقهم له قصورًا فارهة لو كان قد اكتفى بها لغنينا له بكل جوارحنا: «والله فرحنا لك يا هطم»، ولطلبنا له من قلوبنا عيشًا رغيدًا نطلبه لكل رجل أعمال يشارك في تنمية بلادنا ويؤدي دوره الاجتماعي ويدرك أنه مهما أنتج أو أنجز فإنه لا يحق له أن يمن على هذه البلاد وأهلها، فقط يحق له أن يستصرخنا أن ندافع عنه إذا وضعت أمامه العراقيل والعقبات أو امتدت الأيادي إليه تطلب الإتاوات والعمولات. أما عن نغمة «يعدموه عشان واحدة زي دي» التي سمعتُها في أكثر من برنامج فبغض النظر عن وحشيتها ولا إنسانيتها، فقد كان أولى بمحبي السيد «هطم» أن يقولوها له قبل أن يندلق في هواها، ويحاولوا رفع ذوقه الذي جعله يدفع ملايين الجنيهات من أجل تخليصها من الاحتكار الفني واتخاذها بعلة له، مع أنني شهدت بنفسي كيف كانت ستموت على روحها لكي تحصل على دور في فيلم سينمائي ولم تنجح لضعف موهبتها وتعقيد كواليسها.

لحاكم الله، أبعدوا أيديكم المتسخة بفلوس البيزنس عن منصة المستشار المحمدي قنصوه الشامخة، وحاولوا نصح «رعاتكم» الذين لم يسقطوا بعد في قبضة العدالة أن يبدأوا علاقتهم بالمصحف مبكرًا.

مايو ٢٠٠٩

خدموا مصر كثير

إذا كنت تظن أنني كاتب شجاع فأشكرك على ذوقك، لكن اسمح لي أولًا أن أسألك عن مفهومك للشجاعة، أرجو ألا تكون ممن يظنون أنها قول ما يعتقده أغلب الناس ويحتاجون إلى كاتب يتصدر لإعلانه بالنيابة عنهم؛ فالشجاعة في ظني أن يقول الكاتب ما يعتقده سواء كان رأيًا يشترك فيه مع كل الناس أو يقف فيه ضد كل الناس.

بالطبع لا يوجد كاتب لا يسعده أن يشعر باتفاق أغلب الناس مع رأيه، على الأقل لكي لا يشعر بالغربة طيلة الوقت، مع أن الغربة هي قدر الكاتب الذي يرفض أن يسير خلف القطيع، أو حتى يرفض أن يقود قطيعه الخاص، وربما لذلك سعدت بسيل الرسائل الإلكترونية والمحمولية الذي انهال عليَّ عقب كتابتي ضد مساعي غسل يدي هشام طلعت مصطفى، الشهير بـ«هطم»، والمُدان قضائيًّا حتى الآن بجريمة قتل سوزان تميم. بصراحة كنت أتوقع أن يلقى ما كتبته معارضة هائلة قياسًا للمكالمات والتسجيلات التي كنت أتابعها في أغلب البرامج الفضائية، لكن ما تلقيته من ردود فعل غير مسبوقة بالنسبة لي أكد لي صحة ما اعتقدته بوجود حملة منظمة يحركها البيزنس القذر لإعطاء انطباع خادع بأن الشارع المصري في أغلبه متعاطف مع السيد «هطم».

قطعًا، وللأسف، ثمة من نجحت أجهزة الإعلام الممولة في غسيل أمخاخهم وإقناعهم أن السيد «هطم» من بناة نهضة مصر الحديثة؛ لمجرد أنه بنى كام فندق ومدينة سكنية، مع أن في مصر رجال أعمال محترمين بنوا مشروعات أكبر وأهم، ولم يتورطوا في فضائح أخلاقية، والأهم أنهم لم يتورطوا في الفضيحة الأبرز والجريمة الأخطر، جريمة «زنا المال بالسلطة»، والتي يسميها البعض خطأً «زواج المال بالسلطة»، وهي الجريمة التي لم يُحاسَب عليها بعدُ «هطم» ورفاقه من رجال الأعمال السودة والمهببة.

هنا ستسمع الرعد في ودانك على هيئة كلام يقول لك إن اقتصاد البلد مش ناقص انهيار لكي نحاسب «هطم» أو غيره، وهي الحجة ذاتها التي استخدمت للتستر على كبار المسئولين الذين تم إغلاق ملفاتهم المعفنة بحجة الحفاظ على استقرار البلاد، وهو كلام لو قيل في دولة متقدمة لضُرِب من يقوله بالصُّرَم. لعلك تابعت كيف فجَّرت الصحافة البريطانية فضيحة فساد أعضاء مجلس العموم في ظل أعتى أزمة مالية شهدتها بريطانيا منذ حوالي ٤٠ عامًا. ولعلك لم تشاهد أحدث حلقات برنامج «ستين دقيقة» الأمريكي الأشهر الذي أذاع تفاصيل التحقيقات مع مسئولي كبرى الشركات الأمريكية الذين كان فسادهم وسوء تقديرهم سببًا في انهيار تلك الشركات، دون أن يطلع ابن حرام ليقول للناس هناك: «انسوا تصحّوا.. والله حليم ستار.. ولازم نستحمل بعض.. وكلنا بنغلط.. والمرحلة حرجة.. وما تنسوش الناس دي عملت إيه للبلد..». وما إلى ذلك من كلام يقنع به ناسنا أنفسهم أحيانًا طمعًا في تغيير قريب أو خوفًا من ألم فتح الجراح لتطهيرها، وهو الألم الذي لا أمل لنا بدونه.

يا ناس يا هوه! المدخل لإنقاذ هذا الوطن ليس بتغيير شخص أيًا كان اشتياقنا لهذا التغيير؛ لأننا سنستبدل ساعتها فرعونًا بفرعون يجعلنا نترحم على سابقه. إنقاذ هذا الوطن سيكون عندما يشعر كل مصري أن هذه البلاد بلاده، وأمرها يخصه، وهو ليس «محطوطًا» في «الوكيشن» مصر لكي يمارس دور الكومبارس. إنقاذ هذا الوطن سيكون عندما تختفي من قاموسنا تلك الجمل الخائبة عن كل فاسد أو ظالم: «كتر خيره.. ما تنسوش إنه خدم مصر.. كان ممكن ما يعملش اللي عمله للبلد». يا ناس يا هوه! هذه أرضكم وليست عزبة تعملون فيها أنفارًا وتنتظرون ما يجود به عليكم أصحاب العزبة وأصحاب أصحاب العزبة.

يا ناس يا هوه! انسحاقنا وسلبيتنا واستسلامنا للعواطف البلهاء لن يفضي بنا إلى خير، لن يطعمنا من جوع ولن يؤمننا من خوف. الحكاية صعبة لكنها ليست مستحيلة، فقط علينا أن نشعر أن هذه بلادنا ونؤمن بذلك ونربي أبناءنا عليه، ونتوقف عن انتظار منحة التغيير من أحد؛ لأنها لن تأتي أبدًا. ولتكن البداية بأن نلعن كل من يقول لنا عبارات من نوعية: «كتر ألف خيرهم.. دول خدموا مصر كتير.. مش هنلاقي أحسن منهم». فنقول له وللي زاقينه: «قطع لسانك يا بعيد.. هم كانوا يحلموا باللي همّ فيه لولا تغفيلنا وطرمختنا».

متهيألي بداية ليست مستحيلة؟ ولّا إيه؟

مايو ٢٠٠٩

هل نحن جميعًا نحب الرئيس؟

ما سأقوله لك الآن حصل والله، ولو لم تصدقني اسأل الأستاذين عمرو أديب وحمدي رزق وتأكد بنفسك. كانا قد بدءا في تلقي مكالمات جمهور برنامج القاهرة اليوم حول قضايا الحسبة السياسية التي ترفع شعار الدفاع عن سُمعة مصر، إذ اتصل رجل مهيب الصوت وقال بلهجة من جاب الديب من ديله: «أنا عايز أقول كلام مهم جدًّا». لو على عمرو أديب الذي أعرفه لكان قفل السكة في وجهه فورًا؛ لأنه بحكم التجربة يعلم أن من يصف كلامه بأنه مهم جدًّا سيقول قطعًا كلامًا فارغًا، لكن ضرورات المهنة جعلت عمرو يتخذ سمت المترقب ويقول: «اتفضل يا فندم». والرجل أخذ مقعده من التاريخ وبدأ يتحدث بصوته المهيب الركن: «عايز أقول لكل الناس إن مصر أكبر من أي حد يحاول يسيء لها؛ لأن مصر أكبر من الجميع بقيادتها وحضارتها وتاريخها...». وطفق يردد الكلام الذي نمونا وترعرعنا وذبلنا ونحن نتجرعه في وسائل التعليم والإعلام والمواصلات، ثم فجأة قال لعمرو: «عايز أقول لك كمان كلام مهم جدًّا.. أنا عايزك تبعت بكرة كاميرا...»، لأجزاء من الثانية تخيلت أنه سيطلب كاميرا لتصور إنجازًا علميًّا حققناه للتو، أو مظهرًا حضاريًّا سنباهي به الأمم، أو حتى شارعًا خاليًا من القذارة والعشوائية واحتقار الإنسان، لكنه فاجأني بما لم يخطر لي على بال، حين أكمل بذات صوته الحاسم قائلًا: «عشان تصور اللي بيحصل في الجمعية العامة للتأمين التعاوني وازاي البلطجية بيمنعوا الناس إنها تطلع تتكلم وحاجة آخر قلة أدب». والغريب أن عمرو بدلًا من أن يرتمي على ضهره من الضحك المجروح بالألم، قال له بجدية شديدة: «رحنا يا فندم وصورنا والفقرة الجاية هتشوف بنفسك البلطجية في الجمعية، شكرًا يا فندم، مين معانا».

أنا لم يصعب عليَّ عمرو وحمدي، فمثل هذه المداخلات الفارقة يتم التعويض عنها

ضمن بدل مخاطر المهنة، أنا صعبان عليَّ التاريخ الذي تم تعليقه للحظات في انتظار الكلام المهم جدًا، ثم اتضح أن الرجل المهيب يهدي إلى التاريخ واقعة مسيئة لسُمعة مصر لا يستطيع أي حاقد موتور أن يحققها بنفس الكفاءة والجرأة. صدقني لن أستمر في لوم أخينا ومن لف لفه على لخبطتهم، وأنا أرى بعض مثقفينا يقول للناس كلامًا أشد لخبطة وبؤسًا. خذ عندك ما نشرته أول أمس الأستاذة فاطمة ناعوت في مقالها بالمصري اليوم حول القشعريرة التي أصابتها بسبب توحد المصريين في واجب العزاء لحفيد الرئيس مبارك، وهو ما جعلها في نهاية مقالها «المُشكَّل»، تتبنى نتيجة قاطعة أتمنى ألا تكون أفلتت من التاريخ الذي لا أعرف هل يجيب المصري اليوم أم لا: «المصري هو أجمل سكان الأرض، وليرمني بالشوفينية من يشاء، هي تهمة لا أنكرها، وأعتز بها، من حقي أن أفرح بجمالي، وأنا جميلة بمصريتي، ومن حقي أن أبحث في العتمة عن شعاع ضوء، ومحنتك يا ريس عتمة موحشة، لكن حب المصريين حزمة نور غامر، عثرت بها فأبهجتني رغم الوجع».

لن أسأل الأستاذة عن مصدر ثقتها المطلقة بحب جميع المصريين للرئيس، فقط سأعبر عن خيبة أملي لأنني كنت أفهم أن الشاعر لا بد له أن يكون إنسانيًا ينأى عن العصبية الممقوتة والنعرات الضيقة. ما ذنب الإنسان الذي خلقه الله مكرمًا في تركيا أو بريطانيا أو هولندا أو ماليزيا أو جنوب إفريقيا لكي يتلقى إهانة مجانية منا برغم كل ما حققه في حياته، لمجرد أننا عصبيون ومضطربون ونريد أن نشد من أزر نفسنا؟ ألم نتعلم بعد كل هذه النكبات وخيبات الأمل أنه لا خلاص لنا إلا في الانفتاح على العالم والتعلم منه والتفاعل معه والتواضع أمام إنجازاته وتغيراته؟ هل سيأتينا الأمل حقًا بخداع الناس وإغراقهم في الأوهام بطريقة مشجعي الكرة ليزدادوا لخبطة على لخبطتهم؟ وإذا صدقنا أن الله خلق شعبًا وفضله على باقي الشعوب فلماذا لا نترك إذن العالم ينبهر بفضائلنا وينسحق أمامها ويطلب منا أن نعلمه كيف أصبحنا أجمل شعوب الأرض؟ وإذا كانت واحدة من مثقفينا ترى أن أملنا ولِد بموت طفل بريء، فهل نبتهل إلى الله ألا تتم ترجمة كلامها إلى لغات العالم لكي لا يشرع زعماء العالم في تمني موت أقاربهم لكي تجد شعوبهم الأمل.

مايو ٢٠٠٩

رب الأغنياء.. والفقراء

في زمن يشتري فيه المال كل شيء: الانتخابات والحكومات والفضائيات وكتاب المقالات وشهادات الدكتوراه وذمم الناس وحبيبات الغير، نحمد الله كثيرًا على المستشار المحمدي قنصوه، ليس فقط بسبب سيرته القضائية العطرة، بل لأنه رمز مشرف لسلطة القضاء الشامخة التي يحتاج هذا الوطن وقوفها إلى جانبه وهو يتمسك بتلابيب حافة الهاوية، مغالبًا بصبر وجدعنة وأمل خيار السقوط في الهاوية التي يدفعه إليها مع سبق الإصرار والترصد هذا الحزب الراكد المتحجر الذي يحمل زورًا وبهتانًا اسم الحزب الوطني الديمقراطي.

أقولها لكل الذين صَبّوا جام غضبهم على شخصي بسبب ما كتبته أكثر من مرة عن السيد المُدان هشام طلعت مصطفى وتابعه محسن السكري، سيداتي آنساتي سادتي: تخطئون كثيرًا لو تصورتم أن هناك سببًا شخصيًّا يدفعني للابتهاج بحكم الإعدام الذي صدر بحق الاثنين، فحاشا لله أن يفرح المرء بعثرة غيره حتى ولو كان عدوًّا له، فما بالك وهو شخص لا تربطه به أدنى صلة، من يدري ما تخبئه الأقدار لنا غدًا، وكلنا قلوبنا معلقة بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيفما شاء.

على العكس، أتمنى للسيد هشام طلعت مصطفى أن يحصل على البراءة في مرحلة النقض إذا كان يستحق البراءة بأمانة وشرف، وإذا استطاع أن يقدم أدلة حاسمة وحقيقية على براءته، وسأكون أول المهنئين والمباركين له إن نال البراءة بجدارة، لكن حتى يحدث ذلك علينا جميعًا أن نتصدى لأي ألاعيب قذرة تسعى لتشويه سمعة المستشار المحمدي قنصوة ومحكمته الموقرة، وأن نعلن رفضنا لتلك الأنشطة المحمومة التي تمارسها جهات كريهة الرائحة تذكرت الآن فقط أن عقوبة الإعدام بشعة وقاسية ووحشة خالص، وأخذت

بمعاونة بعض منظمات حقوق الإنسان المرية تمارس تلك اللعبة الخطرة التي تسعى لإهدار حق القصاص الذي شرعته العدالة الإلهية حياة لأولي الألباب.

أما وقد صدر حكم القصاص بحق السيد هشام طلعت مصطفى، وحتى يحصل على البراءة في النقض أو يلقى جزاء ما حرضت يداه، سأظل أعلن سعادتي بحكم الإعدام الصادر بحقه، ليس لأنني أتمنى اختفاء سيادته من الوجود، فما أحب عليَّ أن يعيش معافى في بدنه آمنًا في سربه، بل لأنني تمنيت أن يكون ذلك الحكم فتح انطلاقة نحو حكم إعدام شامل وحاسم وبإجماع الآراء على ظاهرة «زنا المال بالسلطة» التي أفسدت بلادنا و«فقدت أملها»، تمنيت أن يكون ذلك الحكم بداية لعصر يقف المصريون فيه أمام القانون ليحاسبوا على أفعالهم دون أن تفرق معهم بيصلة أرصدتهم في البنوك، أو أشجار عائلاتهم، أو إنديكسات موبايلاتهم، أو قدرتهم على تحمل ثمن إعلانات مدفوعة الأجر في الصحف تعلق على العدالة وتهز هيبة القضاء، أو سيولتهم المالية التي تسمح بتأمين الملايين التي يسفحها الكام محامي الذين بِت تعرفهم بسيماهم من أثر الدفاع عن كل فاسد وظالم أو قتّال قُتلا.

تمنيت ذلك الحكم مؤشرًا على صحوة جماعية ندرك بها أنه لا أمل لنا في أي تقدم أو إصلاح أو تغيير ما لم تختفِ تلك التعبيرات الحقيرة التي تحكم حياتنا: «هنضبطها يا باشا، نشوف لها سكة، تتحل، عندي اللي يخلصها، ما تقلقش ليها تصريفة، وهو سعادتك أي حد». أعلم أننا لن نصبح المدينة الفاضلة فجأة، وأعلم أن تلك التعبيرات موجودة بنفس المعاني في أشد البلاد تقدمًا، لكننا على الأقل نريدها أن تكون الاستثناء وليس القاعدة، نريدها أن تقال همسًا في الغرف المغلقة وليس عيني عينك. نعم نريد مصر بلدًا خاليًا من الواصلين والمسنودين والمعديين والمحميين والمضبطين والمتضبطين والقادرين وغير المقدور عليهم، وإذا لم نستطع أن نطهر مصر من كل هؤلاء فعلى الأقل نريد أن تكون نسبتهم في الحدود المسموح بها في الدول المتقدمة، وليس ذلك بكثير على مصر ولا علينا لكي نطلبه من الله ونسعى لتحقيقه بكل ما أوتينا من قوة.

ماذا وإلا فلنترك التظاهر بأننا متدينون ويتوع ربنا وأفاضل وأخلاق ونرتجي عفو الله وثوابه، ولننشد جميعًا خلف الشاعر الجاهلي عروة بن الورد أبياته المُخزية التي صارت ـ حتى لو لم نعترف بذلك ـ لسان حالنا منذ عصر جاهلية الانفتاح السداح مداح:

دعيني للغِنَى أسعى فإنّي		رأيتُ الناسَ شَرُّهُم الفقيرُ
ويُقصيهِ النَدِيُّ وتَزدريهِ		حَليلتُهُ ويَنهَرُهُ الصَّغيرُ
ويلقَى ذو الغِنى وَلَهُ جَلالٌ		يَكادُ فؤادُ صاحبِهِ يَطيرُ
قَليلٌ ذَنبُهُ والذَّنبُ جَمٌّ		ولَكِن للغني رَبٌّ غَفورُ

وحاشا لله جل وعلا أن يكون ربًّا للأغنياء فقط.

يونيو ٢٠٠٩

ثانوية عامة

هلا أهديتك بمناسبة تدشين امتحانات الثانوية «الغامة» هذا الامتحان اللطيف؟ موافق؟ طيب. اقرأ إذن النص الروائي التالي واستنتج اسم كاتبه ومتى كتبه وعن أي عصر كتبه؟ وحاول في كل الأحوال أن تمنع نفسك من اللطم بعد قراءة السؤال وقبل الخروج من اللجنة.

يقول النص، واصح معي وأنت تقرؤه لو سمحت: «اللهم إني أنام بأمرك وأصحو بأمرك وإنك مالك كل شيء. ها هو أذان الفجر يفتتح يومي الجديد. اللهم جنبني المرض والعجز، فالويل لمن يسقط. يجمعنا في الصباح المدمس وحده أو الطعمية. هما معًا أهم من قناة السويس. سحقًا لعهد البيض والجبن والبسطرمة والمربى، ذلك عهد بائد... الأسعار جنت. كل شيء قد جن. من وراء الزجاج المغلق أرى النيل والأشجار. النيل تغير وكأنه مثلي يكابد وحدة وشيخوخة. فقد مجده وأطواره، لم يعد في مقدوره الغضب. ما أكثر السيارات. ما أكثر الثروات. ما أشد الفقر. ما أكثر الأحباب الراحلين. أكوام القمامة رابضة بالأركان تحرس العشاق. صباح الخير أيها المكدسون في الباصات، وجوهكم تطل من وراء الزجاج المشروخ مثل المساجين في يوم الزيارة. والجسر المكتظ بالعابرين. والسائرون على عجل يلتهمون سندوتشات الفول بنهم وبلا تذوق. جدي قال: «اشتدي يا أزمة تنفرجي». يا جدي المحبوب حتى متى نحفظ ونردد؟ كيف حاق بنا هذا الضياع؟ تهيم أحلام الإصلاح. تجيء من فوق أو من تحت. بقرارات أو انتفاضات. لكن ما الحل مع ما يقال عن الفساد واللصوص؟

إن أضجرك الكلام فمد البصر إلى الطريق. راقب حركة الذاهبين والجائين. حركة سريعة لا تتوقف ولا تنقطع. وجوه مكفهرة ماذا وراءها؟ كلٌّ يحمل مأساته أو مهزلته.

حوانيت الأثاث والبوتيكات مكتظة. كم أمة تعيش جنبًا إلى جنب في هذه الأمة؟ أضواء الميدان قوية مثيرة للأعصاب. ومثيرة للأعصاب أيضًا قوارير المياه المعدنية على موائد السياح. ماذا نشرب نحن؟ وأغرب الأغاني تنطلق من التاكسيات في راديو المجاذيب. تدوي خطبة من راديو في مكان ما فتنتشر الأكاذيب في الجو مع الغبار. تعب. تعب. تعب. فلنعد إلى الكلام. خرابة صغيرة بمائة ألف. الجرائم الأكاديمية في الجامعة. كم عدد أصحاب الملايين؟ الأقارب والأصهار والطفيليون. المهربون والقوادون والشيعة والسنة. حكايات ولا ألف ليلة. متى تبدأ المجاعة؟ الفتنة الطائفية من يوقظها؟ مجلس الشعب كان مكانًا للرقص فأصبح مكانًا للغناء. أنواع الجبن. البنوك الجديدة. بكم البيض اليوم؟ يسود صمت شامل ريثما تذهب امرأة قادمة من الطريق إلى بيت دعارة وراء المقهى وتنعقد مقارنة بين تضخم عجيزتها والتضخم المالي العام. شاب شاذ يقترح الشذوذ كحل لأزمة الحب في الطبقة ذات الدخل الثابت وأيضًا لتحقيق الهدف من تنظيم الأسرة. لا خلاص إلا بالخلاص من كامب ديفيد. حرب أبدية والويل لعملاء التطبيع... الضيق بالغ غايته من كثرة الأسئلة عما يجوز وعما يجب أو لا يجب على حين ينشغل اللصوص بتوزيع الغنائم، أستعيذ بالله وبكل صاحب كرامة وبكل مالك علم أن يقدم لتبديد ظلمات هذا الليل الطويل. نحن قوم نرتاح للهزيمة أكثر من النصر، فمن طول الهزائم وكثرتها ترسبت نغمة الأسى في أعماقنا فأحببنا الغناء الشجي والمسرحية المفجعة والبطل الشهيد، ولذا جميع زعمائنا شهداء.

علمني زمني أن أفكر. علمني أيضًا أن أستهين بكل شيء، وأن أشك في كل شيء. ربما قرأت عن مشروع منعش للآمال، وسرعان ما يكشف المفسرون عن حقيقته فلا يتمخض عن أكثر من لعبة قذرة. هل تترك السفينة للغرق؟ هي عصابة مسلطة علينا لا أكثر ولا أقل! أين الأيام الحلوة؟ قلت لحبيبتي مرة: «فلنتسل بحصر أعدائنا». فدخلت اللعبة قائلة: «غول الانفتاح واللصوص الأماثل». قلت: «هل ينفعنا قتل مليون؟». قالت ضاحكة: «قد ينفعنا قتل واحد فقط»».

لعلك وقد انتهيت من قراءة هذا النص تقسم الآن بأيمان الله إنه مكتوب للتو واللحظة عن هذه الأيام المباركة لا عن غيرها، إذن دعني أفاجئك وأفاجعك بأن ما قرأته مجتزأ نصًا عن رواية «يوم قتل الزعيم» التي كتبها الروائي الأعظم نجيب محفوظ بعد قتل السادات، والتي برغم نشرها عام ٨٥، فأنت محق في شعورك أنها مكتوبة الآن للتو،

أعلم أنك لم تعد تفكر في أسئلتي الآن، بل يشغلك مثلي سؤال موجع إلى حد الجنون: كيف يعيش الناس في بلد لا تتغير أي تفصيلة من تفاصيل الحياة فيها طيلة ثلاثين عامًا؟ وهو سؤال عندما تواجهه بشجاعة ستفهم لماذا طلبت منك في البداية أن تحاول منع نفسك من اللطم.

تستطيع الآن أن تخرج من اللجنة، لكنك للأسف لن تستطيع أبدًا أن تُخرج اللجنة منك.

يونيو ٢٠٠٩

ذبابة التوريث

هل كانت قناة «ديسكفري» الأمريكية مغرضة عندما قررت أن تعيد هذه الأيام بث برنامج عن علم الوراثة في ظل تصاعد حمى الحديث عن التوريث في بلادنا؟ ليس هذا اتهامًا ولا تلقيحًا، برغم أنه لا وراثة بدون تلقيح جينات، ولا توريث بدون تلقيح جتت.

ما لفت انتباهي بشدة في برنامج «ديسكفري» هو شرحه الممتع لتطور هندسة الجينات بشكل جذاب بصريًا وسرديًا، برغم تعقيد الموضوع الذي حاولت أن أقرأ فيه كثيرًا وفشلت في فهمه لغبائي وليس لقصور من كتبوا عنه وعلى رأسهم ورأسي العلامة الدكتور أحمد مستجير رحمه الله، الذي حاول كثيرًا تبسيط علم الهندسة الوراثية لإثارة اهتمام المصريين به، وبرغم ذلك نجح «أحمد» آخر فيما فشل فيه أحمد مستجير، أعني الفنان أحمد الفيشاوي الذي عرف المصريون على يديه المفهوم العلمي لاختبار الـ«دي إن إي». بالطبع لن تستغربوا لو قلت لكم إن ما دفعني للاهتمام بموضوع الوراثة مقروءًا أو مرئيًا ليس رغبتي المفاجئة في تحسين خصائصي الوراثية أو معرفة كيف أقوم بتطليع جيني لإجراء تعديلات فيه، فقد اهتممت بالموضوع فقط من منطلق سياسي بحت، خصوصًا وأنا أرى كيف تتم محاولة تشكيل خريطة مصر الجينية الآن، وكيف ينتشر فيها بكل وقاحة مهندسو التوريث الذين يلعبون في حمضها السياسي النووي بدأب واجتهاد.

برنامج «ديسكفري» استعرض الجهود التاريخية لعشرات العلماء بدءًا من «مندل»، ومرورًا بـ«ألفريد ستورتفانت» الذي اكتشف أول خريطة جينية في عام ١٩١١، وصولًا إلى العالم «هيرمان مولر» الذي قام باكتشاف أول طافر صناعي خارق عام ١٩١٦؛ حيث

قام بتطوير كائنات ذات طفرة وراثية باستخدام تركيب الحمض النووي (في حالة عدم الفهم يرجى مراعاة أن هذا ما لم أفهمه من البرنامج وعديها لي). ما استوقفني وأظنه سيستوقفك هو تعبير «الطافر الخارق» الذي يشير إلى ذبابة الفاكهة «دروسوفيلا»؛ التي كانت مجالًا لمئات الأبحاث عبر عشرات السنين حاول فيها العديد من العلماء حل جميع الألغاز الوراثية باستخدام ذبابة الفاكهة «دروسوفيلا» (بالطبع «دروسوفيلا» اسم يليق بذبابة كما يليق كفرسول كاسم لمبيد حشري). كان المنطق الذي تم اختيار «دروسوفيلا» بناءً عليه هو كما يقول البرنامج: «إذا أردت فهم الجينة عليك أن تضع يدك أولًا على حيوان تستطيع فهم حمضه النووي». (لاحظ أن هذا حصل قبل أكثر من ستين عامًا قضيناها نحن في النقاش المتشنج الصاخب حول حديث غمس الذبابة في الإناء: هل هو إعجاز علمي أم لا، وأنا أبوس إيديكم، ماشي والله العظيم إعجاز علمي، لكن توقفوا عن النقاش في ذلك وشوفوا لنا ذبابًا ندرسه ولو حتى لعُشر عدد السنوات التي درس فيها علماء الغرب ذبابة الفاكهة، لعلنا نتعلم منه عُشر ما تعلموه وأفادوا به الخلق).

أهم ما كشفه برنامج «ديسكفري» من وجهة نظري هو أنه نتيجة لتلك الأبحاث الوراثية المعقدة التي هدفت إلى تغيير الخريطة الجينية لذبابة الفاكهة ظهرت ذكور ذباب فاكهة شاذة، أيوه ذبابات من قوم لوط أو سمّها ذبابات مثلية إن أردت ألا يتهمك أحد بالتخلف. أما العلماء فقد أطلقوا على ذلك الذباب السافل اسم «فوالا»؛ وهو اسم مشتق من كلمة فرنسية تعني الانجذاب إلى الجنسين والعياذ بالله. بالطبع لم أفهم الفكرة في البداية، خصوصًا أنني أخذت أتأمل الذباب الذي كان يطن حول طبق الفاكهة أمامي، وسرحت بأفكاري محاولًا تحليل نمط العلاقات الناشئ بينها، لكنني تذكرت أن ذبابنا الوطني بحمد الله له تقاليده وقيمه، وأنه بالتأكيد مثلنا يحتقر تلك الأفعال الدنيئة، وأنه إذا لم يجد منفذًا لقضاء شهوته فإنه يقضيها فينا نحن عندما يطلع عين اللي خلفونا ونحن نحاول عبثًا هشه أو قتله أو اصطياده.

خلاصة القول إن اللعب في الجينات بالهندسة الوراثية كما أن له مميزات عظيمة فإنه من الممكن أن ينتج خرابًا وانحرافًا إذا تم التحكم فيه لأغراض غير علمية وغير بريئة. أعلم أننا مشغولون دائمًا للأسف بالبحث عن فاكهة غير مُسممة أو مرشوشة، أكثر من انشغالنا بالبحث في جينات ذباب الفاكهة، لكن لا يمنع أن نستخلص من كلام قناة

«ديسكفري» عبرة نواجه بها ذباب التوريث الذي لا يكف عن الطنين في حياتنا السياسية، فنقول لرموز هذا الذباب سواء كانوا ذكورًا أو إناثًا أو فوالًا، نصيحة لوجه الله: لا تلعبوا في جينات مصر إذا كنتم تحبونها، ولا تعيدوا رسم الخريطة الجينية السياسية فيها؛ لأن في ذلك لعب بالنار قد ينتج عنه ما هو أخطر ألف مرة من شذوذ الذباب. ابعدوا عن جينات مصر؛ لأنها ليست حِمل المزيد من البهدلة. هِشّ.

يوليو ٢٠٠٩

ضَعُفَ الطالب والمطلوب

قرأ الشاب الجميل ذلك الحوار المذهل الذي أجراه زميلنا طارق أمين مع الرجل المصري المحترم المستشار هشام البسطويسي، والذي لو نُشِر في بلاد تحترم نفسها وشعبها لأُقيل وزير الداخلية على الفور، لكنه للأسف نُشِر في مصر؛ ولذلك لن يُحاسَب أحدٌ على ما في الحوار سوى المستشار البسطويسي نفسه. سألني الشاب الذي يتنازعه الخوف على نفسه والخوف على بلاده: «إنت مش خايف على نفسك من اللي بتكتبه؟». ولأنني لا أؤمن بالإجابات المتسرعة الانفعالية، قررت أن أهدي إليه وإليك هذه السطور التي كتبتها بهدوء شديد، أو هكذا أظن:

«عندما أقول لك إن حرية الصحافة ليست منحة من أي رئيس في الدنيا يعطيها لمن يشاء ويمنعها عمن يشاء، من العيب جدًّا أن تتعامل معي على أنني بطل أو مسنود أو مستبيع. عندما أقول لك إن حرية الرأي ليست عطية سلطانية، بل هي فطرة الله التي فطر الناس عليها، فمن عظيم المهانة أن تعتبر التذكير بالبديهيات بطولة أو فروسية. عندما أقول لك إنه لا أحد فوق النقد حتى لو كان رئيس الجمهورية، فمن العار أن تنظر حولك حذرًا خائفًا كأنني جئت شيئًا إدًّا. عندما أقول لك إن الأوطان ليست هدايا يجيبها الآباء للأبناء وإن الشعوب ليست أمتعة يوصي بها الحكام لأنجالهم، فمن المثير للأسى أن تكتفي بهز رأسك كأن الأمر لا يعنيك البتة.

عندما تخفض رأسك لتسجد بين يدي الله، هل تظن أن الله سيقبل سجودك إذا كنت لا تؤمن حقًّا وصدقًا بأنه لا نافع إلا الله ولا ضار إلا الله ولا رازق إلا الله ولا معطي إلا الله ولا مانع إلا الله؟ عندما تمد يديك إلى السماء، مُسلمًا كنت أو مسيحيًّا، ثم

تدعو متضرعًا يا رب يا رب هل تظن أن الله سيتقبل دعاءك إذا كنت تخشى غيره أيًا كان غيره؛ رئيس جمهورية أو ضابط بوليس أو صاحب سلطان أو صاحب ابن صاحب سلطان. عندما تخشى أن تقول كلمة الحق وتُطأطئ رأسك مذلة وخنوعًا، وتقول لنفسك ولمن حولك: «واحنا مالنا.. ربنا يتولاهم.. خلينا في حالنا»، هل تظن أنك تجلب لنفسك طول الأجل، ألم تسمع عن الذين ماتوا لأنهم تزحلقوا بقشرة موز، أو اختنقوا بتسرب سخان غاز، أو شرقوا في قشرة لب، أو ماتوا في حادث سير تافه، ربنا يعطيك طولة العمر يا سيدي إن أراد، لكنه لن يعطيك عزة النفس إلا إن أردتها، ولن يمنع عنك المهانة إلا إذا اخترت أن تمتنع عنها.

أنا لست واعظًا أو شيخًا أو ملاكًا بريئًا. أنا أساسًا فيِّ العِبَر. قد أكون أجهل منك بالدين، لكنني أعرف جيدًا أن كل العِبَر التي يمكن أن تكون لديَّ أو لديك يمكن أن يغفرها الله سبحانه وتعالى إلا أن تُشرك بالله حاكمًا تخاف منه أو كبيرًا تتملقه أو معطيًا ترجوه أو باطشًا تهابه، فهلا سألت نفسك وحاسبتها قبل أن تُحاسب: هل أنت حقًّا لا تخاف إلا الله؟ ستسألني حانقًا: «يا أخي إنت عايز مننا إيه.. ما تسيبنا في اللي احنا فيه.. نولّع في نفسنا وأماننا ومستقبلنا علشان تستريح؟!». لينقطع لساني لو كان قد طلب منك شيئًا، ولتولع نفسي لو كانت ترتضي لك أن تولّع في نفسك وتخاصم أمانك وتنسى مستقبلك أو مستقبل أولادك. أنا فقط أذكّرك وأذكّر نفسي قبلك بعهود قطعناها أمام الله أن نوقن حقًّا أن الأمة كلها؛ إنسها وجنها، كبيرها وصغيرها، رئيسها ومرءوسيها، لو اجتمعت على أن تنفعنا بشيء لن تنفعنا إلا بشيء قد كتبه الله لنا، وأن الأمة كلها؛ إنسها وجنها، أمنها وعسكرها، لو اجتمعت على أن تضرنا بشيء لن تضرنا إلا بشيء قد كتبه الله علينا، فهل نحن نوقن حقًّا وصدقًا بذلك؟ إذا كنا نوقن حقًّا بذلك فهنيئًا لنا والله، أما إذا كنا لا نوقن حقًّا بذلك فلماذا نتعب أنفسنا في قيام وسجود وصيام وعطش وتكفير للناس وتفتيش في نواياهم وإطلاق أحكام عليهم وادعاء تدين لم نصل إلى جوهره قطّ؟

قسمًا عظمًا إنني مستعد لأن أسحب كلامي كله لو قلت لي إنه ضايقك أو استفزك أو عصّبك أو التمست فيه مزايدة عليك أو تحميلًا لك فوق ما تحتمل. أسحبه كله وأكتفي

فقط بآية قرآنية كريمة لو عشنا بها فقط دون غيرها لما كان حالنا كما لا يخفى عليك:
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾.
صدق الله العظيم. ولذلك صدقني والله العظيم.. ضَعُفَ الطالب والمطلوب».

أغسطس ٢٠٠٩

حدث في مؤتمر الحزب

المفروض ألا يُسأل الكاتب عن مصادره، ولذلك دعني أحتفظ لنفسي بمصدر هذه الشهادة التي أنقلها لك اليوم:

«أكتب لك هذه الرسالة بعد أن قضيت يومًا كاملًا داخل الأمانة المركزية للحزب الوطني بدعوة من أحد زملائي الملتزمين حزبيًّا، والذي عرض عليَّ الذهاب معه على أساس يعني إنترنت ببلاش وأكل ببلاش وتكييف ووجه حسن، كل ذلك مقابل أن نقوم بعمل أكبر عدد من البروفايلات بأسماء مختلفة على «الفيس بوك» لنشترك بهم في جروب شارك مع جمال مبارك في حوار الشباب المفتوح، أقصد الحوار طبعًا، المهم وافقت ورحت وكان اليوم بالنسبة لي أشبه بفيلم به الكثير من المشاهد التي سأحاول أن أروي لك أهمها.

المشهد الأول: يدخل المهندس أحمد عز. للرجُل هيبة، قصير آه لكنه جبار، بدأ كلامه قائلًا: «إزيكو يا شباب عايز أكلمكو شوية عن مفهوم الفكر الجديد، إحقاقًا للحق وبرغم إني كده هازعَّل إنسان غالي عندنا بس لازم تعرفوا إن جمال مبارك هو صاحب الشعار ده، وهو ما بيحبش يقول بس ده حقه علينا». بعد كده قعد يرغي شوية في الفرق بين سياساتهم وسياسات البلد زمان أيام عبد الناصر، طبعًا لو عندك ذرة احترام لعبد الناصر هيجيلك سكر أو ضغط أو تقع مشلول من كلامه، بعد كده ابتدا يتكلم عن الأداء البرلماني لأعضاء الحزب، وقعد يحكي عن فضايح نواب المعارضة اللي معاه في المجلس من كل التيارات، عشان يثبت إن الكلام الكويس اللي بنسمعه عنهم مش حقيقي، أنا شخصيًّا أصبت بإحساس يا عزيزي كلنا لصوص.

المشهد الثاني: يقف الدكتور محمد كمال في القاعة، ويذهب له شباب الحزب بأوراق كتبوا فيها الأسئلة التي من المفترض أن يجيب عليها جمال مبارك على الهواء، المُضحك أن الدكتور كلما كان يتلقى سؤالًا يقول لصاحبه: «لا بلاش خد السؤال ده أحسن». واضح أن الأستاذ جمال ما بيحبش أي أسئلة من بره الكتاب! بعدها جاءت مرحلة تصوير الأسئلة، وللأسف مستوى شباب الحزب جعل الدكتور كمال يكتب صياغة الأسئلة أيضًا، وكان يضعها على اللاب توب الذي يقوم بتصوير أصحاب الأسئلة، أنا بصراحة كنت أول مرة أشوفه، قصدي اللاب توب أبو كاميرا. قابلت الدكتور مشكلة في الخلفيات التي يفترض ألا تكون واحدة لكي لا يظهر أن الموضوع متطبَّخ. ظل الدكتور يلف في القاعة بلاب توبه لتصوير الأسئلة التلقائية لدرجة أنه اضطر أن يصور أحد الفيديوهات في الحمام. بالمناسبة كانت هناك بنت موجودة طلبوا منها أن تصور سؤالًا بالحِجاب ومرة من غيره على أساس إن ماحدش هياخد باله، والبنت رفضت خلع الحجاب. قررت أن أخرج من القاعة لكي أشرب سيجارة قبل ما أتشل لقيت المشهد الثالث: حيث كان يتم تضبيط القعدة التي ستقام لجمال مبارك يوم الأربعاء، وجدت شخصًا يرتدي بدلة وكرافتة متشعلق تقريبًا على كرسي وبيضبط حاجة في الشاشة البلازما المُعلَّقة في المكان، أنا قلت الراجل ده أنا أعرفه، طلع مين، وزير إعلام مصر شخصيًا بيضبط سلك الشاشة التي سيجلس عليها جمال مبارك.

طبعًا أنت لا تنتظر مني الآن أن أقول لك كلامًا من نوعية: بقه هي دي الناس اللي بتحكمنا؟ فأنت أدرى بهذا الكلام، أنا بس أريد أن أسألك: تفتكر قبل أن يمسك هؤلاء الناس الحزب الوطني كان ممكن أسامة الباز ولّا كمال الشاذلي يدخلوا ياخدوا حوار في الحمام من عيل كتبوا له السؤال؟ هل كان صفوت الشريف سيقف لتضبيط أسلاك في قاعة؟ واضح إن الأيام السوداء اللي جاية هتخلينا نترحم على صفوت الشريف والشاذلي واللي كانوا معاهم. بالمناسبة عايز أقول لك إن معايا تسجيل لمحاضرة عز باشا، ومصور ٣ فيديوهات لمحمد كمال وهوّ في الحمام بيصور سؤال هيتسأل لجمال مبارك، لو عايزهم ابعت لي عشان أحملهم وأبعت لك اللينك لأني نزلتهم على النت. بالمناسبة الأكل كان من «سيلانترو»، كان عبارة عن وجبتين كل واحدة تعمل لها خمسين جنيه، مش وحشين والله».

آه يا عزيزي، أنا مثلك لا أعرف إلى أين سيذهب بنا جمال مبارك والذين معه، لكنني أعلم جيدًا من الذي أوصلنا إلى جمال مبارك والذين معه، وأعلم أنه لو لا صفوت الشريف والذين معه، لما كان هناك جمال مبارك والذين معه! يا سيدي حلال عليك اللي أكلته، وربنا يعين مصر على ما ستشربه.

١٥ أغسطس ٢٠٠٩

هشام والباشاوات

قرر المواطن فؤاد عمار أن يهدي إليَّ وإليك وإلى وزارة الداخلية هذه الواقعة المؤلمة التي تؤكد أن هناك عيونًا أمنية ساهرة تقف بالمرصاد لأي مواطن شريف قرر أن يتخلى عن أي انتماء سياسي أو أي نشاط عام مكتفيًا بأن يسعى ليكسب رزقه بالحلال لعله يغني أولاده مذلة السؤال:

«هشام محمود عمار، مُدرِّس تربية موسيقية بمدرسة المطرية الإعدادية. أنت طبعًا تعلم أن مرتبات مدرسي وزارة التعليم من أعلى المرتبات في مصر، وأنها تغني المدرسين عن إعطاء أي دروس خصوصية أو البحث عن عمل إضافي، لكن هشام والعياذ بالله من المبذرين، مرتبه الذي يزيد قليلًا على الثلاثمائة جنيه شهريًا لم يكن للأسف يكفيه أكثر من أسبوع، بعد أن يدفع ٢٠٠ جنيه إيجارًا جديدًا للشقة ذات الحجرتين التي يسكنها هو وزوجته وأولاده، ولأنه لم يجد بعد طريقة لكي يكتفي بتكملة الشهر هو وأسرته بالمائة جنيه الباقية، قرر أن يعمل كل أيام الأسبوع في محل موبايلات من الرابعة عصرًا حتى الحادية عشرة مساء. قبل أسابيع كان هشام يقف في المحل، دخل عليه شاب بهي الطلعة، وطلب منه خط موبايل، وسأله عن ثمنه، ثم طلب من هشام أن يحضر له الخط، وفور أن أحضره له فوجئ بالشاب يصرخ فيه: «اطلع لي بره وهات الخطوط اللي عندك ولِم الموبايلات اللي في المحل». ارتكب هشام خطأً قاتلًا عندما سأل الشاب: «إنت مين الأول؟». فصرخ فيه: «أنا ضابط يا روح أمك». ارتكب هشام خطأً أفظع وطلب من الشاب أن يريه كارنيه الداخلية. لم يعجب سؤاله الباشا فأخرج له الطبنجة وقال له بصوت رقيق: «تنفع دي يا «...»؟». (النقط مكانها كلمة يعاقب القانون على كتابتها). واصل هشام أخطاءه وقال للباشا إن الكلام ده ما يصحش خصوصًا أنه مُربي أجيال ومُدرس موسيقى

كمان. وبمجرد أن وصلت المعلومة للباشا أخرج لهشام من أنفه صوتًا موسيقيًا ثم أردف بنفس الرقة: «مدرس «...» أمك يا مدرس». (ملحوظة جانبية: والدة هشام متوفاة). مع علو صوت الضابط دخل المحل مجموعة من الأمناء، أمرهم الباشا بتكتيف هشام وهاتك يا ضرب بالشلاليت والبوكسات في الوجه والبطن أمام جمع غفير من عمال المحلات المجاورة الذين وصلتهم فورًا الرسالة التي أحب الباشا توصيلها لهم: «عندما يقول لك الباشا حتى لو كان يرتدي ملابس مدنية اطلع لي بره يبقى تسمع الكلام من غير ما تفكر أن تمارس حقك القانوني وتسأله عن هويته وإثبات شخصيته».

انتهت وصلة الضرب، فقام الباشا بعدها برمي هشام في البوكس وذهب به إلى قسم السلام، حيث قام بتحرير محضر ضد هشام؛ لأنه باع له خط موبايل دون أن يحرر عقدًا، مع أنه لم يكن قد أعطى هشام فرصة حتى لتحرير نفسه من أرجل وأيدي معاونيه! كان وجه هشام قد تورم بدرجة مخيفة ولم يعد قادرًا على تحريك فمه. خاف زملاء الباشا من أن تتدهور حالة هشام فقطعوا المحضر وصرفوا هشام من القسم فورًا. في المستشفى اكتشف الأطباء أن فك هشام السفلي الأيسر مكسور وبعض ضروسه بها كسور، وتلزمه عملية جراحية فورية. تم تحويله إلى مستشفى التأمين الصحي بمدينة نصر التي حجزته فورًا في الدور السابع عنبر ٧٠٨ قسم جراحة التجميل، وعرضته على استشاري الجراحة الذي أجرى له في صباح اليوم التالي عملية استغرقت أكثر من ثلاث ساعات نتج عنها جرح في الخد الأيسر طوله ١٢ سم، سيحتاج إلى ٦ أسابيع حتى يتم نزع السلك عن فكه، وقد يكون بعدها قادرًا على الكلام وتحريك فكه بشكل طبيعي وقد لا يكون».

قبل أن نلوم الأمريكان لأنهم يبعثرون كرامتنا في شوارع جاردن سيتي، دعونا نلُم أنفسنا إذا لم نرد كرامة هشام ونثأر له ممن ظلمه. عن نفسي قررت أن أنشر رقم موبايل هشام الوارد مع الرسالة «٠١٠٧١٠٣٧٣١٠»، ليس فقط لكي تتصل به جهات التحقيق في وزارة الداخلية، ولكن لكي يتصل به كل من أراد أن يقف إلى جانبه ويأخذ بخاطره، خصوصًا وكل مواطن غير مسنود يمكن أن يلقى مصير هشام في هذا الوطن الذي لم تعد تجدي عمليات التجميل في إخفاء بشاعة واقعه المرير.

٢٠ أغسطس ٢٠٠٩

رسائل خائفة

كدت أندم لأنها طقتّ في دماغي الأسبوع الماضي فقمت بنشر رقم موبايل هشام عمار مدرس الموسيقى والعامل في محل أجهزة محمول والذي تعرّض لاعتداء غاشم من ضابط شرطة غشيم لمجرد أن هشام طلب منه أن يُظهر ما يثبت شخصيته كضابط عند اقتحامه المحل، لكنني شعرت بالفخر بما فعلته بعد أن تلقيت رسالة كريمة من هشام يشكرني فيها على نشر قصته وما تلقاه بعدها من مكالمات: «وقفت بجانبي في محنتي، وغيرت الأثر النفسي السيّئ الذي لحق بي جراء هذه الإهانة، وقد ساهمت في مداواتي مع جراح التجميل». أعلم أنه لا شيء في الدنيا يمكن أن يعوض هشام عن الاعتداء الخسيس الذي لحق به، لكنني سعدت برسالة من الأستاذ فؤاد عمار الذي كان قد أرسل إليَّ بتفاصيل القصة التي نشرتها: «لم ينقطع رنين التليفون الذي أسعد قلوبنا وأظهر المعدن الأصيل لهذا الشعب الطيب وأدخل الفرح والبهجة على قلب هشام المكسور.. في نفس اليوم اتصل بهشام لواء من مصلحة الأمن العام وطلب مقابلته وتحدد موعد للمقابلة، هذا غير منظمات حقوق الإنسان التي قام مندوبوها بزيارته وبدأت في عمل بلاغ للسيد النائب العام برغم أن هشام كان قد أبلغ عن الواقعة ولم يتحرك أحد إلا بعد النشر! أيضًا اتصل بهشام وقام بزيارته بعض وكلاء النيابة، ويبدو أنها مبادرة شخصية منهم لإظهار تضامنهم معه، أيضًا اتصل به بعض الساسة وأعضاء في الأحزاب المختلفة، والأهم من كل ذلك مكالمات المواطنين المصريين الأصلاء».

لا أريد أن أشكر أحدًا على قيامه بواجبه في التضامن مع هشام، فقط أريد أن أشكر هشام وقريبه فؤاد؛ لأنهما بكل جدعنة ورجولة لم يؤثرا الصمت، بل قررا أن يجأرا برفض الظلم الذي حلَّ على هشام، والذي يحل للأسف على كل بائعي خطوط المحمول

الذين أرسل إليَّ عدد منهم يشكون من تعنت ضباط الشرطة معهم ومعاملتهم بطريقة لا تليق برغم أنهم ليسوا مسئولين لوحدهم عن الأوضاع الخاطئة التي تسود سوق التجارة في خطوط المحمول. وكان الأولى أن يتم توفيق وتقنين هذه الأوضاع وتوعية البائعين بها قبل إطلاق أيدي وأرجل الضباط والأمناء لتبطش بهم، وحتى يجأر هؤلاء المظلومون برفض الظلم الذي يقع عليهم. أنا واثق أن حق هشام لن يضيع أبدًا طالما استمر هشام في المطالبة به مستعينًا على ذلك بالله ثم بمن لديه ضمير من عباد الله، فذلك خير وأجدع من الولولة واللطم واليأس العاجز الذي أودى بنا في ٢٨ داهية، وحكّم في أمورنا اللي يسوا واللي ما يسواش.

* * *

لولا أن القصة جاءتني مرفقة بالأسماء وأرقام التليفونات لما صدقتها. لو كتبتها في فيلم سينمائي لمنعته الرقابة واتهمتني بالتحامل على أجهزة الأمن وتشويه صورتها، لكنها للأسف ليست فيلما، بل «عِلم» أصبح هناك بعض ضباط الشرطة من كبار المتخصصين أكاديميًّا فيه للأسف الشديد. الحكاية بطلها مواطن غلبان اسمه عم عبده يعمل سائقًا باليومية في مدينة إقليمية كبرى دخل في خصومة مع ضابط مرور سببها أن الباشا الضابط وهو نائم حلم أن هذا السائق دخل عليه بسيارته وصدمه، وكان الضابط قد قام بعمل وصل غرامة له بخمسين جنيهًا قبل أيام. في اليوم التالي لحلم سيادة الباشا، رأى عم عبده في موقف المدينة فسحب رخصته بحجة القيادة برعونة. فاض الكيل بعم عبده، فصرخ في الضابط: «يا بيه إنت ليه حاططني في دماغ سيادتك؟!». أخبره الباشا بالحلم الذي رآه. وبعد أن أفاق عم عبده من ذهوله قال للضابط: «يا بيه هو أنا لما دخلت عليك بالعربية في الحلم حصل حاجة لسيادتك؟». رد عليه الباشا: «إنت كمان كنت عايز تعورني!». وعمل لعم عبده مخالفة بثلاثمائة جنيه. عم عبده لما لقاها خربانة خربانة قال له: «طب والنبي يا باشا لما تنام اتغطى كويس». فرد الباشا وهو يرى الضحكات في أعين الناس حالفًا بالطلاق أن عم عبده لن يرى رخصته إلا بعد شهر. عم عبده خائف من نشر اسمه ورقم موبايله لخوفه من المزيد من بطش الباشا به، وأنا أحتفظ بالاسم ورقم الموبايل لكي أهديه عبر البريد الإلكتروني لمن يرغب في الحصول عليه من جهات التحقيق بوزارة الداخلية التي استبشرتُ خيرًا بتحقيقها في

واقعة مدرس الموسيقى هشام عمار، ولعلها تكسب ثوابًا لو رحمت عم عبده وأمثاله من أمثال هذا الضابط الحالم بالعكننة على الغلابة.

* * *

المواطن مصطفى جابر سائق تاكسي أرسل إليَّ يشكو من اعتداء تعرض له من أحد ضباط الشرطة في قسم الموسكي في أول ليلة في شهر رمضان المبارك. كان الأسطى مصطفى يعمل في شارع عبد العزيز بالعتبة، وتوقف لأحد الزبائن، ففوجئ بضابط برتبة نقيب يهينه ويسبه بالأم أمام المارة. وعندما طلب منه مصطفى أن يتوقف عن إهانته انهال عليه الضابط ضربًا بصحبة مجموعة من أمناء الشرطة واصطحبوه إلى قسم الموسكي حيث واصلوا ضربه وتمزيق ملابسه، وتم عمل محضر مخالفات مرورية له، وتم عرضه على النيابة المسائية التي قامت بتغريمه مبلغ ٦٠٠ جنيه مرة واحدة؛ يعني ضرب وخراب ديار. رقم موبايل السائق لديَّ. أعلم أن البعض قد يبادر بالرد على هاتين الواقعتين بالحديث عن مخالفات وأخطاء سائقي التاكسي والميكروباص، وهي أخطاء كلنا نلعنها في أثناء محاولتنا البقاء على قيد الحياة في شوارع المحروسة، لكن مثل هذه الأخطاء لا يمكن أن تُحل أبدًا بإهانة كرامة الناس والبطش بهم بدنيًّا وماديًّا، خصوصًا أننا لم نسمع حتى الآن عن ضابط شرطة قام بالتطاول على أحد المسنودين أو أبناء المسنودين أو أنصار المسنودين لأنهم خالفوا قواعد المرور، والنبي بالراحة على الناس يا باشاوات.

* * *

أخيرًا يقول لي المواطن أبو أيمن في رسالة حزينة:

«بعد أن قرأت مقالتك عن الخوف من الله، للأسف لا أستطيع أن أقول لك إنني لا أخاف إلا الله، أنا أخاف من الأمن أكثر؛ لأنني بعد سنوات غربة طالت ٢٧ عامًا في بلاد الله، منها ١٠ سنوات في بريطانيا، عدت منها بعد أحداث سبتمبر، التي أجبرتني على أن أرجع مصر وكلي عشق وأمل في غد أفضل، لكن أحلامي تكسرت على صخور قوى الأمن؛ لأنني قررت أن أفتح «سايبر»، وبالرغم من أنني ملتزم جدًّا بكل التراخيص من وزارة الثقافة ووزارة الاتصالات (القرية الذكية) والحي وأبيع نسخ أصلية فقط لكل البرامج والألعاب، بالرغم من كل هذا يُقبض عليَّ مرتين وابني مرة، بزعم أننا نعمل

بنسخ مقلدة وبدون تراخيص، ويكتب هذا في المحضر مع أنه غير حقيقي! ويا ويلك لو اعترضت، وعوملنا معاملة المجرمين من وضع الكلابشات في أيدينا والزج بنا في الحجز إلى أن نُرحل إلى النيابة في انهيار تام. تفتكر بعد كل ده ممكن الواحد ما يخافش إلا الله؟! أستغفر الله إذا كنت قد أخطأت في حق الله».

يا عزيزي أبو أيمن فكرتُ كثيرًا كيف أرد عليك، فلم أجد ردًا سوى أن أدعو لك وأدعو على من ظلمك ساعة الإفطار، أنا آسف، ده اللي حيلتي!!

أغسطس ٢٠٠٩

طلائع جمال مبارك

سين سؤال: لماذا لا يطلع الرئيس مبارك على الشعب المصري من ثنيات أجهزة إعلامه الحكومية لكي يعلن صراحة أن هناك نية رسمية باتت واضحة وضوح الشمس لنقل السلطة إلى نجله جمال في موعد لا يعلمه إلا سيادة الرئيس؟

جيم جواب: لأن الرئيس مبارك لا يعتبر أنه مُطَالَبٌ أساسًا بأن يوضح للشعب المصري نواياه أو مواقفه؛ فهذا الشعب لم يحاسبه على شيء منذ أن تولَّى حكمه، ولن يحاسبه على شيء عندما ينتهي حكمه؛ لأنه لا يعلم أساسًا متى ينتهي حكمه. ومثلما لم يشغل سيادة الرئيس نفسه في ماضي الأيام أن يفسر لشعبه لماذا قرر أن يظل في الحكم ست فترات رئاسية وهو عكس ما وعد به بعد توليه الحكم وقاله على الملأ، فهو لن يشغل نفسه بأن يفسر لشعبه كيف تغيرت لهجته من نفي التوريث بتاتًا وصراحة إلى أن يمتنع عن نفيه في حواره التلفزيوني مع المذيع الأمريكي «تشارلي روز» قبل أسابيع قائلًا إن «جمال لم يفاتحه بعد في موضوع التوريث».

لن يسأل أحد في هذه البلاد الرئيس مبارك بأي حق يصطحب ابنه كبار مسئولي الدولة ليصحبوه في زيارات للقرى التي يسمونها بالأكثر فقرًا؛ لأن أحدًا لم يسأل أساسًا في عهد مَن أصبحت هذه القرى أكثر فقرًا. لن يسأل أحد في هذه البلاد الرئيس مبارك بأي حق يرتدي شباب ينتمون لحزبه الحاكم تيشيرتات مكتوب عليها «طلائع جمال مبارك» دون أن يظهر أحد ليعتذر عن مثل هذه السفاهة؛ لأن أحدًا لم يسأل الرئيس كيف سمح قبل ذلك بعشرات الأوبريتات الغنائية التي أنفقت عليها ملايين الجنيهات لكي تتغنى بإنجازاته وعظمته، وكأنه حرام على هذا البلد أن يكون متحضرًا ويبرأ من نسبته لحاكم أيًا كان.

اليوم للأسف تتواصل مهزلة التوريث وتكتسب أبعادًا أخطر؛ ها هي اليوم تخترق مناهج التعليم التي امتلك بعض مسئولي التعليم الوقاحة لتغييرها من أجل تسميم عقول الأجيال الجديدة، على مرأى ومسمع من الجميع. اليوم في مقرر اللغة العربية الجديد للصف الثاني الإعدادي تتم إضافة دروس موجهة بعنوان «أطفال صنعوا التاريخ» تقدم أمثلة من حقب تاريخية مختلفة لتأكيد فكرة أن الولد العظيم دائمًا صنيعة أبيه العظيم، وأن كل حاكم عظيم قادر أن يهدي شعبه ملكًا آخر عظيمًا يمثل امتدادًا له: في درس «الصقر الذهبي» يحكي الكتاب للطلاب عن الملك «سيتي الأول» الذي راقت له فكرة تتويج ولده رمسيس في عيد ميلاده التاسع، ومن يومها راح يعلم ابنه كيف يكون حاكمًا. في درس «أمنية تحققت» يُقدِّمون للطلاب نموذجًا آخر للحاكم أحمد بن طولون وولده خمارويه، وكيف يقول أكبر علماء الدين القاضي ابن قتيبة للحاكم ابن طولون: «يا مولاي لقد ولد خمارويه لكي يكون قائدًا لا يشق له غبار»، فيبتسم ابن طولون ويقول للقاضي: «إنني أفكر في أمر ولاية العهد يا ابن قتيبة، سوف أجعلها لخمارويه ويجب أن تكون مع ولدي».

يا خسارة يا مصر، هل هذه آخرة المتمَّة؟! هل هذا ما قامت ثورة يوليو من أجله؟! هل هذا ما حارب من أجله جنودك في حرب أكتوبر؟! هل هذا ما حلم به ومن أجله ملايين الشغيلة والكادحين والمثقفين والعلماء والفنانين؟! هل صار التوريث المشروع القومي لمصر؟! ما هي الكرامة التي بيَّنها جمال مبارك منذ اعتلى خشبة المسرح السياسي لكي تُسخر إمكانيات البلاد وتتغير مناهج تعليمها من أجل تحقيق أحلامه السياسية؟ هل يريد الرئيس مبارك أن يخلد نفسه في كتب التاريخ بوصفه الحاكم الذي سمح بأن يتعلم نجله الحكم في المصريين؟ لماذا لا يعتذر الرئيس مبارك للمصريين عن الجملة المؤسفة التي قيلت في حوار «تشارلي روز»، وعن هذا العبث المزري بمناهج التعليم؟ لماذا لا يقول لشعبه إنه سيلتزم بوعده أنه لن يكون هناك توريث في مصر، وأن أهم ما سيعمل عليه في الفترة القادمة هو تحقيق إصلاح دستوري وسياسي حقيقي يمكِّن المصريين من تقرير مصيرهم بأنفسهم كأي شعب متحضر ليس من حق أحد أن يمارس وصايته عليه ويدعي أنه يعرف مصلحته أكثر منه؟

على العبد أن يسأل وليس عليه أن يدرك الجواب.

سبتمبر ٢٠٠٩

مصر خيرها على الكل

عندما يقول لكم قائل إن مصر خيرها على الكل. أرجوكم لا تتسرعوا بالرفض أو التهكم؛ فمصر فعلًا خيرها على الكل، كل من حكمها. لم تنل مصر من خيرها ما ناله حكامها وأنجالهم والذين تشددوا لهم ولأنجالهم. لذلك لا تعجب إن رأيت هؤلاء جميعًا يتحدثون بعصبية عن أولئك الذين لا يحبون مصر والذين لا يريدون لها الخير، الخير الذي غرقوا فيه وأغرقوا مصر وأبناءها الذين قضوا عمرهم هاتفين أو صامتين على الحاكم تلو الآخر أملًا أن ينالهم نصيب من خير مصر الذي آمنوا به ولم يروه.

استثن الرئيس محمد نجيب الذي لم يعمر كثيرًا على كرسي الحكم ولذلك مات فقيرًا وعاش أبناؤه وأحفاده من بعده فقراء مدقعين، بينما أكل مئات الصحفيين على قفاهم عيشًا في موضوعات تحكي مأساتهم ولو بيعت بالكيلو لأغنتهم. وانظر إلى جمال عبد الناصر الذي لم يرَ فقراء مصر عزًّا كالذي شهدوه في عهده، كيف لا وقد كان أبوه بوسطجيًّا على قد الحال. لن نلتفت إلى ادعاءات أعداءه المبتذلة بأنه كان يخجل من مهنة أبيه، وأنه منع أغنية البوسطجية اشتكوا، سنكذبهم بصورة ناصر وهو يسير إلى جوار أبيه الذي لم تُغير سلطة ابنه مظهره البسيط، سنكذبهم بمئات الحكايات الموثقة عن الجبنة القريش التي لم يكن يأكل غيرها، والخزنة الفاضية التي تركها عند موته، وأموال الدولة التي لم ينهبها ولم يورثها لأبنائه. بلاش لن ندخل معهم في نقاش حول كل هذا، فقد رحل عبد الناصر وأفضى إلى ما قدم، بل سننشغل بأسئلة عصية وعصبية تهمنا أكثر. سنسأل عما انتهت إليه ثورة يوليو بعد عبد الناصر. سنسأل عن الفقراء الذين يطفحون الدم عمرًا بحاله في تعليم أبنائهم ليُرفضوا بعده في الوظائف المحترمة والسيادية؛ لأنهم ليسوا قد المقام. سنسأل والسؤال لم يَحرُم، مع احترامنا لحرمات الجميع: هل يمكن أن تناسب عائلة

عبد الناصر اليوم بوسطجيًا كالجد أو شابًا على قد حاله لا يمتلك سوى طموحه وذكائه وحبه لجمال عبد الناصر؟

على رأي أبينا صلاح جاهين: «خلّي المكنجي يغير المنظر». وانظر إلى بطل الحرب والسلام أنور السادات الذي كان يفتخر بأيام الفقر في القرية التي لم ينسَ قط أخلاقها. السادات الذي كان يفتخر بأنه اضطر لكي يعمل شيالًا، وشغالًا في الفاعل، وسائق لواري. قل لي أين يعمل أبناؤه وأحفاده، وفي أي قرية من قرى الساحل الشمالي يضيق خلقهم. استثنِ أفراد الفرع الفقير من العائلة الذين جار عليهم الزمن، وحدثني عن الخير الذي أسبغته مصر على آل السادات بمن فيهم بعض أقاربه الذين وقفوا خلف قضبان المحاكم يومًا ما متهمين بالفساد، ثم كانت مصر كريمة معهم لدرجة أنها يا عيني تجلس الآن لتستمع إلى رؤيتهم للإصلاح.

لن أطلب منك تغيير المنظر وأنت تنظر إلى الرئيس محمد حسني مبارك، فقد اختفى المكنجي المختص بتغيير المنظر في ظروف غامضة، وتركنا لصورة ثابتة لا تتغير؛ يحتلها حاكم أعلن بفخر أن أقصى أحلامه كانت أن يتم تعيينه سفيرًا في لندن، ومع ذلك فهو الآن محاط بأناس يعتقدون أن مصر لا يمكن أن تعيش من غيره، ويلعنون كل من يعارضه لأنهم لا يُقدِّرون تضحيته من أجل مصر بكل متع الدنيا. يمكن أن تذهب إلى السجن لو ظننت أن مصر ستكون بخير لو لم يحكمها، ويمكن ألا تذهب إلى السجن فقط لأنه لم يرد لك أن تذهب. ابنه الأصغر الذي مرة فاته الباص وركب تاكسي إلى المدرسة يحدث نفسه أنه سيحدِّث مصر، يظن أنه سينقذها ويطورها ويريها العز الذي لم تره في أيام والده، ومصر نفسها لا تستطيع أن تقول له إنها أكبر منه بكثير، وإن كل حديث له عن الإصلاح اعتراف صريح بما فسد في عهد أبيه.

أبناء عبد الناصر والسادات ومبارك كلهم موقنون أنهم يستحقون كل ما نالوه من خير مصر؛ لأن آباءهم أعطوا مصر الكثير وضحُّوا بحياتهم من أجلها، ومصر للأسف لن تفكر أبدًا أن تسألهم عن الخير الذي نالها على أيديهم، ليس لأنها لا تعرف الخير الذي نالهم جميعًا على يديها، وليس لأنها خجلى من تذكيرهم كيف كان سيكون حالهم لو لم يحكمها آباؤهم، بل لأن مصر تعرف ربنا كويس، ولذلك تكتفي دائمًا بأن تُسلم أمرها لله. ونعم بالله.

سبتمبر ٢٠٠٩

إحنا مش فرنسا

هذه الحكاية ستُغنيني عن قول الكثير وستُغنيك عن سماع الكثير. فوقتي ووقتك أثمن من أن نضيعه في كلام لا يجيب همه عن قادة هذه البلاد الذين لم يجيبوا لنا إلا الهم.

حدثني من أثق به فقال:

«قبل سنوات كنت أسير في شوارع لندن، ذات إجازة صيفية، بصحبة واحد من كبار رجال الأعمال في البلاد؛ رجل كانت البلاد كلها تتحدث عن نضافته ورشده ونزاهته ورجاحة عقله. كانت مصر وقتها تعيش عهد حكومة الدكتور عاطف عبيد، وما أدراك ما عهد حكومة عاطف عبيد! لا أعاده الله ولا حرمنا من أن تكتحل أعيننا برؤيته يُحاسب يومًا ما على كوارث حكومته، يومها أخذت أنا ورجل الأعمال نتحدث بشجن عن حال البلاد الذي يَسُرُّ العدو لا الحبيب. اطمأن رجل الأعمال لي، وكان يومها راغبًا في الفضفضة، فحكى لي وهو يتميز حزنًا، قال إنه جلس ذات يوم مع الدكتور عاطف عبيد لكي يشكو إليه همومه كرجل أعمال، ويسأله إلى أين تمضي البلاد وسط كل هذه الأزمات والمشاكل، وفوجئ بأن ما قاله لم يغضب الدكتور عاطف أو يقلقه حتى، بل قال له بهدوء شديد: «إيه رأيك في فرنسا واللي وصلت له دلوقتي؟». فأثنى رجل الأعمال عليها طبعًا، ابتسم الدكتور عاطف ثم سأله عن رأيه في إنجلترا والذي وصلت له، فقال رجل الأعمال كلامًا زي الفل من واقع خبرته بما أصبحت إنجلترا عليه، عاد الدكتور عاطف لكي يبتسم ثم قال لصاحبنا بهدوء: «طيب شوف الثورة الفرنسية قعدت كام سنة وشوف بريطانيا قعدت كام سنة عشان يوصلوا للّي همّ فيه، هتلاقي إن احنا لسه في الأول خالص». وأمام صدمة الجواب لم ينطق رجل الأعمال وأدرك أنه لا أمل من أي كلام أو نقاش، وفوض أمره لله، واستجاب الله فرحل بعدها

مباشرة الدكتور عاطف عبيد، وجاءت حكومة جديدة أصبح فيها رجل الأعمال وزيرًا مُهمًّا علق عليه الكثيرون آمالًا عريضة».

يواصل من أثق به حكايته قائلًا:

«بعد أكثر من سنة على تولِّي صاحبنا لمنصبه المرموق جمعتني به جلسة خاصة صارحته فيها بشكاوى الناس وهمومهم وقلقهم الشديد على حالة التخبط السياسي التي تشهدها البلاد، والتي يمكن أن تودي بأي تحسن اقتصادي طرأ على البلاد، وفوجئت بصديقنا بجدية شديدة وكأنه نسي ما دار بيننا من قبل، يسألني عن رأيي في فرنسا وإنجلترا وما وصلا إليه وكم استغرقاه من السنين ليحققا ما أصبحا عليه، كأنه لم يحكِ لي ما دار بينه وبين عاطف عبيد يومًا ما! وأنا أجبته دون أن أعلّق لأرى إلى أين سيصل بنا هذا الحوار، بعد أن أجبته قال لي بهدوء شديد: «طيب احنا لسه في أول الطريق.. الناس مستعجلة على إيه؟!». والحقيقة أنني فعلت تمامًا مثلما فعل هو من قبل مع الدكتور عاطف عبيد؛ لم أعلّق وظللت بقية الجلسة صامتًا مكتفيًا بهز رأسي، ليس تأمينًا على كلامه، بل رثاءً لحال بلادنا».

لا أدري هل لا زالت حكاية السؤال عن إنجلترا وفرنسا الواردة بالحكاية مطروحة الآن بعد أن قال الرئيس مبارك في العديد من حواراته الصحفية والتلفزيونية بالنص إننا «لسنا إنجلترا وفرنسا ولن نكون»، لكي يلم نفسه كل من تسول له نفسه الحديث عما تمتلكه تلك البلاد المتقدمة التي لا خلاق لها من حرية وديمقراطية وحيوية سياسية، لكن ما أدريه أن حكاية كالتي رواها لي من أثق به تصلح كـ«جايد» أليم ودليل عليم يمكن أن تمثل به كيف يفسد «سيستمنا» الوطني الديمقراطي المبارك أطهر الراغبين في الإصلاح، دون أن يشعروا أحيانًا بأنهم قد فسدوا وفاحت رائحة ضمائرهم.

السلطة المُطلقة مفسدة مطلقة، منذ قالها ابن خلدون لم نعتبر، فلم ننتقل إلا من سلطان مطلق إلى سلطان أشد إطلاقًا، ولذلك وحده دون غيره، ومع احترامنا لرأي الرئيس، لن نكون أبدًا كإنجلترا وفرنسا، ولن نحصِّل حتى موريتانيا وحياتك!

أكتوبر ٢٠٠٩

في هجاء الغتاتة

بعضنا لا زال يحتاج إلى أن نصرخ في وجهه: «إيه لازمة الغتاتة يا أخي؟».

تخيل أنني عرفت عنوان بيتك بشكل أو بآخر، وقررت أن ألبد لك أسفل بيتك لأنتظرك كل صباح وأنت تستعد للخروج إلى عملك ليرزقك الله كما يرزق الطير تغدو خِماصًا وتروح بِطانًا، وفور مغادرتك لباب عمارتك أهبُّ أنا بكل غتاتة الدنيا ورخامة الكون لأقول لك: «شُغل إيه اللي انت رايحه يا أخي.. إنت خدت إيه من الشغل.. هتستفاد إيه.. هي دي فلوس اللي بتاخدها.. وحتى لو كانت فلوس استفدت إيه بقه.. ما انت ممكن شركتك تقفل أو تطلع معاش مبكر أو يلفقوا لك بلوة ويودوك في ستين داهية.. بلاش ده كله ممكن دلوقتي تخبطك عربية أو يقع عليك تكييف أو ييجي لك وباء يجيب أجلك». سأكتفي بهذا القدر من الغتاتة على أمل أن يكون قد وصلك المعنى الذي أرغب في إيصاله، لم يصلك بعد؟ طيب دعنا نكمل إذن، خلاص، لن أكمل علشان خاطرك، مع أن تعداد الكوارث التي يمكن أن تقع عليك في بلادنا الحبيبة أمر لا يحتاج إلى مجهود كبير.

ما كنت أريد أن أقوله لك بتلك الطريقة الغتيتة، هو محاولة استعطافك أن تعتقني لوجه الله من ذلك اللون من الغتاتة الذي لا ترضاه لنفسك، ومع ذلك فأنت ترضاه لي، أعني إذا كنت واحدًا من الذين يقرأون ما أكتبه فيبادرون فور انتهائهم منه إلى المسارعة بإرسال رسائل من نوعية: «يا عم انت بتنفخ في قربة مقطوعة.. دي بلد ما منهاش رجا.. إنت بتتعب روحك على إيه.. مفيش فايدة من الكلام اللي بتقوله.. ريّح نفسك كان غيرك أشطر»، وما إلى ذلك من الكلام السقيم الذي يظن من يكتبه أنه يلعب دور زرقاء اليمامة التي أحيطت علمًا ببواطن الأمور، فقرّرت أن تساعد الحمقى من أمثالي لتوفّر عليهم مشقة الكتابة ووعثاء التفكير.

انتظر لحظة، هل تظن أنني الآن أملي عليك ما يجب أن تكتبه لي؟ لا سمح الله. هل أتزلف منك طبطبة أو تشجيعًا أو مساندة؟ حاشا لله، بالعكس أرجوك أوسعني معارضة وهجومًا واستهزاءً وقدحًا وذمًّا، بل وشتيمة، إذا سمحت أخلاقك الكريمة، ولكن أرجوك، كله إلا تكسير المقاديف! شاركني فيما شئت من آراء أيًا كان تطرفها وشططها وحدتها، لكن أرجوك احتفظ فقط لنفسك بآرائك النيرة عن عدم جدوى الكتابة وحتمية خراب مصر! صدقني لست أطلب منك أن تؤمن مثلي بأن الكتابة مُجدية، ولا أن تدرك أن مصر لن تخرب إلا بسبب الذين يعتقدون أن الكتابة نفخ في قربة مقطوعة، وأن الأفضل أن نسلم البلد للفاسدين والظلمة ونستمر نحن في اللطم والعويل، حاشا لله أن أفرض رأيي عليك، أنا فقط أطلب منك ألا تقف تحت بيتي لتكسر مقاديفي على الصبح، فهل هذا كثير؟

شوف يا سيدي، في روايته القصيرة المكيرة «أسطورة جبل آغري» يحكي الكاتب التركي العظيم يشار كمال عن سلطان طاغية طلب من معماري بارع أن يبني له سجنًا في قصره. كان المعماري العبقري قد جرب قسوة السجن قبل ذلك، فقام كما تروي الأسطورة، بتصميم سجن يوجد في كل زنازينه ثقب يتيح للسجين أن ينظر من خلاله بحرية، وأن يدخل النور إلى زنزانته ليُبدد وحشتها، وبعد أن انتهى من بناء السجن اختفى تاركًا رسالة للسلطان كتب فيها: «من يُحاول سد هذه الثقوب سيهدم القصر من أساسه؛ فقد بنيته اعتمادًا على ضوئها وستنصب عليه الكوارث ولن ينقذه حسبه ونسبه وطغيانه أبدًا».

هذه هي الكتابة بالنسبة لي، قد لا تهدم السجن، وقد تدخل صاحبها إلى السجن، لكنها ستظل دائمًا وأبدًا ثقبًا في جدار الصمت، يُبقي حلم الحرية حيًّا لدى المساجين، ستظل النور الأسطوري الذي يبدد وحشة الزنازين ويقهر على الدوام كل طواغيت الأرض، فإذا كنت عاجزًا عن توسيع ثقبك بيديك، فلا تستكثر على أمثالي محاولة توسيعه، لعلنا يومًا نخرج من سجن العجز إلى دنيا الله. ويا سيدي إذا كان لديك فائض من يأس فابخل به علينا، وايأس أمام باب بيتك.

أكتوبر ٢٠٠٩

كذبة وصدقها الناس

كبرت الكذبة حتى صدقها أغلب الناس، فاحذر أن تكون من بينهم، إلا إذا كنت من عشاق السير في القطيع.

«أنتم تسودون الواقع.. كل ما تكتبون عنه مشاكل فأين الحلول.. عندما نقرأ لك أو لفلان أو علان نفقد الأمل؛ لأنكم لا تقدمون لنا البدائل.. طب وبعدين.. أصبحت أتجنب القراءة لك لأنك تثير اكتئابي.. ليه ما بتكتبوش عن الحاجات الحلوة عشان تِدُّونا أمل.. هوّ يعني مفيش حاجة حلوة في البلد؟!». هل تبدو لك هذه العبارات مألوفة؟ هل أرسلتها إليَّ أو لغيري يومًا ما؟ هل تقولها لنفسك بعد أن تقرأ الصحف المستقلة، أم لعلك قرأتها في مقالات الكتاب الموالسين الذين يستشيطون غضبًا من عدم تصديق الناس لأيمانهم المغلظة بأننا نعيش أزهى عصور الرخاء، أو سمعتها في تصريحات المسئولين المدلسين الذين يلقون بمسئولية فشلهم على أكتاف المعارضين لهم؟

بيني وبينك، أنا كدت أقتنع يومًا ما بذلك المنطق المغلوط من فرط ما تعرضت له، ولم يمنعني عن ذلك إلا ما عايشته بنفسي في بريطانيا؛ أم الصحافة وعمة الصحفيين. لا زلت أذكر المرة الأولى التي سافرت فيها إلى بريطانيا قبل ثلاثة أعوام وقُيِّض لي أن أقضي هناك أربعين يومًا متصلة، وقتها كنت أعرف الصحافة البريطانية العريقة فقط كدارس لها، وليس كقارئ، ولذلك كنت أنفق كل يوم الكثير من الوقت والمال على الصحف والمجلات البريطانية، ولم أندم قطّ، فقد تأكد لي دقة «الإكليشيه» الذي كنت أسمعه دائمًا عن كون الصحافة معجزة بريطانيا الحقيقية، للأسف لا أستطيع أن أكثف لك شعوري المتعاظم بالانبهار مع كل صحيفة أو مجلة كنت أتعرف إليها، سواء كانت شعبية أو محافظة أو متخصصة أو تافهة أو نخبوية، يكفي أن أقول لك إنني كنت كلما

وقعت تحت يدي صحيفة أو مجلة أخذت أعد كم موضوعاتها الجديرة بالترجمة لكي يقرأها المصريون أو يأخذوا عنها فكرة، ثم أبدأ أفكر في الاشتراك في تلك الصحيفة أو المجلة، قبل أن أفرمل التحليق في خيالاتي مواجهًا نفسي بأنني لن أكون قادرًا أبدًا على قراءة ما سأشترك فيه في ظل ضغوط العمل والحياة، مكتفيًا بعد محاولات غربلة لا نهائية بصحيفة «الأوبزرفر» الأسبوعية ومجلة «ذي ويك» الأسبوعية ومجلة «إمباير» السينمائية الشهرية، والتي أقضي بفضل إنجليزيتي الكسيحة طيلة الشهر في قراءتها. ليس هذا موضوعنا الآن؛ فالحديث عن الصحافة الإنجليزية ذو شجون وسيقودنا حتمًا إلى حديث ذي سجون عن صحافتنا المصرية البائسة. ما أريد أن أقوله لك إنني لم أصادف، ولو على سبيل الخطأ، في كل الصحف والمجلات البريطانية العريقة التي قرأتها طيلة ثلاثة أعوام عنوانًا رئيسيًّا يتحدث عن إنجازات الحكومات البريطانية التي تستطيع أن تلمسها بنفسك وأنت تسير في مناكب بريطانيا كل يوم، دائمًا، أو دعنا لكي لا نقع في خطأ التعميم نقل غالبًا، لا صوت يعلو فوق صوت الحديث عن الإخفاقات والفضائح والمصائب والجرائم والكوارث القادمة، ليس فقط لأن الصحافة الإنجليزية تؤمن بذلك المبدأ العريق «الخبر السيئ هو الخبر الجيد»، وأن ما يجب أن تهتم به كصحفي هو خبر عن رجل عض كلبًا وليس العكس، بل لأن تلك الصحف المحترمة تؤمن بأن إراحة القارئ وإشعاره بالأمل ورسم البديل له ليس مهمتها، بل هي مهمة الحكومات، أما مهمة الصحافة الرئيسية فهي «إزعاج السلطات» بالنقد والمكاشفة والمواجهة، لأن أي سلطة في العالم إذا تدفأت وأحست بالأمان لدغت المواطنين بالإهمال والفساد واستغلال النفوذ.

لا أدعي أنني أمتلك علاقة وثيقة بأي من أفراد النخبة البريطانية، لكنني أزعم أنني كنت حريصًا على تكوين علاقات بالبشر العاديين لمحاولة إكمال الصورة التي أكوِّنها من قراءاتي ومشاهداتي، ومن بين هؤلاء البشر سأحدثك اليوم عن حلاقة اسكتلندية (أيوه سيادتك انسقت مرة وراء غواية الحلاقة لدى سيدة اسكتلندية واتضح أن عم سيد الحلاق برقبتها) سألتها عن سر غرامها بتجميع صحف الإثارة التي تهوى نشر الجرائم والحوادث المفزعة، قلت لها إنني شعرت خلال الساعة التي تصفحت فيها الصحف وأنا أنتظر دوري أنني لا بد أن أغادر البلاد فورًا لكي أنفد بجلدي من كل هذا الكم من السفاحين والمجرمين، بينما أنا أتجول مع أسرتي بأمان وسلام في شوارع مقفرة

من البشر ومدن تمتلئ بالعواجيز أكثر من امتلائها بالسفاحين، فردت عليّ بحكمة الحلاقين العابرة للقارات والتي اختصهم الله بها دونًا عن غيرهم: «يا عزيزي أنا أعشق قراءة هذه الصحف خصيصًا كل يوم قبل أن أبدأ في العمل؛ لكي أذكر نفسي أن الدنيا ليست آمنة وليست بخير أبدًا، وأن مصير أولادي فيها يكتنفه الغموض، وأنه لا بديل لي إلا أن أعمل بجد دون أن أتذمر أو أشتكي، وأنني لا بد أن أنتهي من عملي في موعده لكي أذهب للاستمتاع بصحبة زوجي وأبنائي، حتى إذا ما جاء اليوم الذي صادفت فيه سفاحًا أو مجرمًا وتعرَّضت لكارثة أكون قد عشت حياتي كما ينبغي دون أن أقصِّر في حق أولادي أو في حق نفسي».

طيب، إذا كنت تعتقد مثلي أن الحياة ليست سوى فيلم روائي طويل نواصل تصويره ومونتاجه كل يوم، قبل أن نتوقف يومًا ما بقرار حاسم ومفاجئ من المنتج، ولله المثل الأعلى، فأنت بلغة السينما ستعتقد أيضًا مثلي، أن الحياة في الأول والآخر زاوية رؤية، ولذلك ربما تكون قد انبهرت بزاوية الرؤية التي ترى بها تلك الحلاقة الاسكتلندية الحياة من حولها: «علينا أن نذكر أنفسنا دائمًا بأن الحياة خادعة ومستعدة دائمًا للفتك بنا، لذلك علينا أن نكون مستعدين لها دائمًا بالمزيد من العمل والمتعة». خذ بالك أنا لم أحدثك عن ثرية بريطانية تمتلك سلسلة فنادق عالمية، ولا عن عضوة في مجلس العموم تلقي خطابًا انتخابيًّا، بل عن حلاقة كان لديها إبان محاولتها تلبية رغبتي في تحديد الذقن بشكل يطابق صورتي في «الباسبور»، ثلاثة أبناء مطلّعين عينيها، وزوج مهدد بالتسريح من العمل، وحياة حافلة بالقروض والأزمات.

للأسف ليست الفرصة سانحة الآن لمناقشة ذلك الوهم الذي يسكن الكثير منا بأن الحياة في الغرب حلم فانتازي خلاب؛ فالحياة هناك تهرس الضعفاء بقوة غير آدمية، واسألوا الذين نجوا من المهرسة الغربية بأعجوبة. ربما يدفعني هذا لتذكيرك قبل أن تمارس بحقي هوايتنا القومية المفضلة في إطلاق الأحكام، بأنني لست من المؤمنين بأن الغرب يملك حلًّا نهائيًّا للبشرية، سأحكي لك يومًا ما عن تجارب مريرة أوصلتني إلى الاقتناع بخواء الحياة الغربية، وامتلائها بمشاكل خطيرة يمكن أن تبدد أي إحساس لديك بالسعادة أو الرفاهية، لكنني مع ذلك لا يمكن أن أنكر انبهاري العميق بقدرة غالبية الغربيين الذين رأيتهم وعايشتهم على وضع كل مشاكلهم الشخصية جانبًا فور أدائهم لأعمالهم التي يقدسونها تقديسًا مبهرًا لا خلاص لنا إلا بالاقتداء به. لا تخف لن أذكرك بمقولة الإمام

محمد عبده التي قالها بعد سفره إلى إنجلترا، فأنت لا شك تحفظها من فرط ما سمعتها، ومع ذلك لم تجدِ نفعًا في حياتنا؛ لأن القرآن الكريم نفسه لم يجدِ معنا نفعًا وهو يحضنا على العمل والعلم وترك مهمة الحكم على البشر لخالقهم.

ستقاطعني الآن وتصرخ في وجهي: «يا عم واحنا فين وبريطانيا وناسها فين.. ده احنا قدامنا ميتين قرن لما نبقى...»، لن أكمل بقية الجملة المعيبة فأنت تعرفها، واسمح لي أننا لن نكون كما تقول تكملة الجملة، إلا إذا صدقنا بصحتها، صدقني التقدم إلينا أقرب مما نتصور، وتستطيع بلادنا أن تحقق معجزة كالتي حققتها أيرلندا؛ التي كانت في الضياع وعبرت من الانقسام والحرب الأهلية والضياع إلى التقدم العلمي المبهر وتحقيق أعلى معدل نمو في العالم خلال عشر سنوات بس. تمنعني المساحة أن أفتح في سيرة التجربة التركية التي لعلك تعلم، إن كنت من زبائني القدامى في الدستور، انبهاري الشديد بها، أنا كما وعدتك أحاول جاهدًا ألا أحدثك نقلًا عن الكتب، بل أحدثك فقط عن قناعات عشتها وتفاصيل لا يكمن فيها الشيطان.

الخلاصة أن خلاصنا لن يتحقق إلا لو أدرك كلٌّ منا أننا وصلنا خلاص إلى النهاية، وأن صندوق الانتخابات هو خلاصنا الوحيد، لا تردد أرجوك تلك الأسئلة الكسيحة البلهاء عمن سيحكمنا، وأين هو، وانت شايف مين غيره، فإذا كانت هناك ميزة لحكم الرئيس مبارك، فهي إثباته بما لا يدع مجالًا للشك، أن أي شخص أيًا كانت كفاءته أو مؤهلاته قادر على أن يحكم مصر حتى إذا لم يكن يحلم بذلك أو يرغب فيه، فما بالك ومصر فيها مئات ولن أقول آلاف الكفاءات التي ينحني لها العالم تقديرًا وإجلالًا. الحكاية هل نحن نرغب حقًّا في التغيير؟ هل لدينا ما هو أكثر من البكائيات العاجزة التي تتشطر على البردعة وترمي همها على الصحافة السوداء التي تدفعنا لليأس وبرامج التوك شو التي تسوِّدها في وشنا، يا سيدي بدلًا من أن تسأل ذلك الكاتب أو تلك الصحيفة أو هاديك البرنامج عن الحل والمَخرج والبديل كأنك لا تعرفه، هل سألت نفسك بصدق وشجاعة وجرأة ما الذي فعلته لإصلاح من حولك، دعني أنقل لك هنا جملة عبقرية اتخذها المفكر البحريني الكبير د. محمد جابر الأنصاري عنوانًا لمقال رائع له: «آه لو أصلح كل عربي ما تصل إليه يداه». وحتى نلتقي مجددًا، افرد يديك أمامك، واسألهما عما صنعتاه لإصلاح ما تصلان إليه في بيتك وداخل أسرتك وبين أصدقائك وفي مجال عملك وفي نطاق شارعك، إذا وجدت نفسك قد أنجزت شيئًا، فأنت لا محالة سائر على الطريق وستصل حتمًا في يوم ما إلى

صندوق الانتخابات ولو مت دونه، فأنت من غيره ميت ميت، على الطرق الخربة أو في المستشفيات القاتلة أو بالمياه المُتَيفدة أو بالأطعمة المروية بالمجاري، أما إذا لم تكن قد فعلت بيديك شيئًا سوى اللطم وتدبيج عرائض اليأس والأسئلة التي تخدع نفسك بها عن غياب الطريق وافتقاد البديل وضياع الأمل، فَهُبّ فورًا إلى الكمبيوتر وانتع رسالة تسبُّني فيها، لأنني لم أفتح أمامك أبواب الأمل، واتشطّر عليّ براحتك، فأنا لا أمتلك أمنًا مركزيًا ولا مباحث أمن دولة، وأنت شجاع وأنا أستاهل.

أكتوبر ٢٠٠٩

أرجل واحد في مصر

(بالأمس أحيينا في نقابة الصحفيين ذكرى مرور عام على وفاة الراحل العظيم الدكتور محمد السيد سعيد، والذي كنت قد كتبت بعد وفاته هذه الكلمات التي أعيد نشرها وأهديها لكل المثقفين الذين حضروا لقاء السيد الرئيس وكل المثقفين الذين غضبوا لأنهم لم يحضروه).

مات أرجل واحد في مصر. مات الدكتور محمد السيد سعيد. مات المثقف الفعل الذي وقف شامخًا صلبًا في مواجهة رئيس الجمهورية ليجأر في وجهه بالحق، دون أن «يوطي» صوت قناعاته وينزل بسقف مبادئه مراعاة للظرف والمكان وهيبة المنصب، ودون أن يدعي البطولة ويتاجر بما فعله أبدًا.

سيسجل التاريخ لهذا الرجل العظيم أنه على عكس عادة المثقفين المصريين في «حصص الإملاء» التي كانت تُعرف باللقاءات الفكرية مع رئيس الجمهورية، وقف ليعلن رأيه بكل صراحة في حال البلاد، بينما كان غيره يتعامل، كما جرت العادة، على أساس أن البلد يحكمها أناس غير الرئيس مبارك ونحن يا عيني نشكو إليه منهم، لم يكتفِ محمد السيد سعيد بما أعلنه أمام الرئيس، بل أصر ذو القلب الذي لم يكن قطّ آثمًا ألا يكتم الشهادة، وقرر أن يعطي الرئيس يدًا بيد مشروعًا مقترحًا للإصلاح السياسي وضع فيه خلاصة خبرته في البحث السياسي والعمل الأهلي، وسيُسجل التاريخ أن الرئيس مبارك تعالى على هذا الرجل الذي اختلف معه بكل أدب، وقال ساخرًا منه أمام الجميع: «الورق ده تحطه في جيبك». وتدخل مساعدو الرئيس (طبقًا للواقعة التي نُشِرت بعد حدوثها لكننا ننسى) وسط ذهول الجميع لكي يأخذوا مشروع محمد السيد سعيد منه منعًا لمزيد من الإحراج، لكي يختفي المشروع في ظروف غامضة كما اختفت كل مشاريع الإصلاح والتغيير في هذا البلد المنكوب.

«حتى الرسول مات وأمر الله لا بد يكون». لم نقل شيئًا والله، راضون بقضاء الله وصابرون عليه، لكن القلب يحزن وهو يرى كيف تحتفي مصر الرسمية بأهل التطبيع والميوعة السياسية والتجارة بالمصطلحات وتوظيف الدال والنقطة لخدمة أحط الأفكار وأسفل النوايا، بينما تهرس أنبل أبنائها الذين أعطوها حبابي عينيهم دون أن يطلبوا جزاءً ولا شكورًا. بالقطع ليست مصادفة أن يموت محمد السيد سعيد وهو يُعالج على نفقة الحكومة الفرنسية بعد أن تأخر قرار علاجه على نفقة الدولة ليصدر قُرب فوات الأوان ولا يتم تنفيذه بعد صدوره. ليست مصادفة أن يكون آخر قرار يُصدره إبراهيم سِعدة قبل رحيله عن أخبار اليوم قرارًا يمنع الكاتب الحر صاحب الموهبة الأسطورية محمود عوض من العلاج على نفقة مؤسسته أخبار اليوم ليعيش رحلة معاناة مريرة مع علاجه أشرت إلى بعضها في حياته ومنعني احترام كبريائه من نشر الباقي وقت أن عشته وشهدت عليه. ليست مصادفة أن يُعالج وجه مصر المُشرق الدكتور الموسوعة التقي النقي الطاهر العلم عبد الوهاب المسيري على نفقة أمير سعودي ويُعلن ذلك مرارًا دون أن يحرك هذا النظام المتبلد ساكنًا، اللهم إلا أيدي ضباط أمنه الذين لم يرحموا شيبة الرجل الكبارة لمجرد أنه قرر أن ينزل إلى الشارع ليصل «الدايرة المقطوعة» التي لخَّص بها الخال الأبنودي الليلة كلها: «فإذا مش نازلين للناس فبلاش». أليست هي نفس الدائرة التي حمل هَمّ وصلها محمد السيد سعيد في رحلته مع الألم التي امتدت من سجون السادات ومبارك مرورًا بواقع الصحافة المرير الذي جابهه وهو يصنع تجربة البديل التي أسسها وأسكنها موقعًا مشرقًا في ذاكرة الصحافة المصرية وصولًا إلى آخر نفس صارع فيه المرض الخبيث.

«استشهد الشرفاء الأنقياء.. أسفي عليك يا مدينتي التي لا يتسلط عليك اليوم إلا المنافقون، لِمَ يا مولاي لا يبقى في المزاود إلا شر البقر؟!»، قالها أبونا نجيب محفوظ، ونقولها معه متألمين مجروحين دامعين، دون أن ننسى أن واجبنا الآن أن نحيي محمد السيد سعيد كمعنى لا غنى عنه في صراعنا مع قوى الفساد والاستبداد والتطرف وتغييب العقل والتجارة بالدين. يطلب مني الصحفي اللامع صديقنا خالد البلشي أن أوجه من خلال هذا العمود نداءً إلى مجلس إدارة صحيفة البديل بأن يضعوا أيديهم في أيدي كل صحفيي وكتاب البديل لتتم صناعة عدد خاص من البديل عن الراحل الكبير، لا نريده تذكاريًا، بل نريده ذاكرة يتعلم منها شباب مصر الآن وغدًا كيف عاش في مصر

ولمصر مثقف محترم؛ لم يتاجر بالأفكار النبيلة من أجل مصالحه وذاته وحساباته، مثقف آمن أن القيمة الوحيدة هي العمل دون انتظار النتائج، مثقف وضع كل إغراءات السلطة والمعارضة أيضًا خلف ظهره وقرر أن يكون نسيجًا وحده، وإذا كان قد رحل عن دنيانا إلى جوار الله قبل أن يرى تحقق ما ناضل من أجله، فعزاؤنا أن مصر العظيمة التي أنجبت في ظل كل هذا الانحطاط قيمة ورمزًا ومعنى مثل محمد السيد سعيد قادرة بإذن الله على أن تنجبه ألف مرة، لتعيش يومًا ما وحتمًا فرحتها غير المقطوعة.

الفاتحة أمانة والنبي.

أكتوبر ٢٠٠٩

معروف حمامة

آخر من كنت أتوقع أن أجد لديه توصيفًا جامعًا مانعًا لكل ما نعيشه في عصر الرئيس مبارك من سعادة وهناء هو الأديب الكبير الراحل إحسان عبد القدوس.

ستستغرب ما أقوله إذا كنت مثلي من الذين لم يقدروا إحسان حق قدره، أعترف أنني لم أكتشف الرجل إلا متأخرًا، ربما لأنني في سنوات المراهقة هرعت لقراءته فقط بفعل السُّمعة السيئة التي كان يروجها عنه بعض خطباء المساجد بوصفه من دعاة الانحلال، وعلى العكس وجدته أخلاقيًّا وداعيًا للفضيلة بطريقته، ولذلك تركته بعد أن وجدت الانحلال على أصوله لدى أدباء من سوء حظهم أن كتبهم أغلى من القدرة الشرائية لخطباء الجوامع، للأسف الشديد تكفل المتاقفون بتشويه سمعة أدب إحسان على مر العصور؛ إما تعاليًا وإما نفسنة وإما ممارسة لديكتاتورية أذواقهم المريضة التي رفعوا بفضلها أسماء عاطلة الموهبة إلى سابع سماء وخسفوا بموهوبين حقيقيين سابع أرض. لا زلت أتذكر مثقفًا كبيرًا وجدني أحمل مجموعة قصصية لإحسان اسمها «زوجات ضائعات» فنظر إليّ باحتقار كأنه ضبطني على جهاز الإرسال أبعث بتقرير إلى الموساد. لا يمكن أن نغفل أيضًا كيف تكفّل بعض مؤلفي المسلسلات الرديئة بإجهاض فرص اكتشاف العالم الأدبي الخصب للرجل الذي عاشت السينما عليه ومعه سنين من العز. ومع كتمة النَّفَس التي نعيشها في أزهى عصور الخنقة تحولت الأسماء الرايقة لروايات الرجل إلى إفيهات، أتساءل الآن لو كان إحسان حيًّا بيننا هل كنا سنقرأ له وهو المتفاعل دومًا مع مجتمعه، روايات تحمل عناوين «لا تسرطني معك. احترق قطار العمر. يد المتحرش لا تزال في جيبي. سليكون في صدري. لن أعيش في جلباب أبي سأرثه فقط».

أعدت اكتشاف إحسان مؤخرًا عندما طلب مني نجم سينمائي تحويل قصة لإحسان إلى فيلم، قلت متهكمًا: «هي الدنيا ضاقت عشان نلجأ لقصة لإحسان.. ما راحت عليه خلاص». رد الرجل عليَّ ردًّا مقنعًا، حكى لي القصة، انبهرت بفكرتها، وعندما قرأتها انبهرت أكثر (لا تنبر فيها وتسألني ما هي القصة، فأنا أفضل أن تشاهدها مشوهة في فيلم)، بعدها بدأت في إعادة قراءة أعمال إحسان القصصية بالذات، خصوصًا وقد تحولت أغلب رواياته الطويلة إلى أفلام سينمائية أغلبها جميلة، لأكتشف أن ما حصل عليه من جماهيرية ساحقة ومبيعات مذهلة لم يأتِ من فراغ، وأن الناس فعلًا كانت على حق عندما انحازت لأدبه وخاصمت آراء النقاد المتعالين عليه، وأن مهاجمة الرجل بتقليدية أسلوبه ربما كانت نقطة لصالحه؛ فقد جعله هذا الأسلوب البسيط الرائق يعيش عمرًا أطول ليصل إلى شباب هذه الأيام مثلما وصل إلى شباب عصره.

إحسان ليس بحاجة لي لكي أروج لأدبه، يكفي أنهم كانوا يقولون في عصره إنه موضة وستنتهي، وأثبتت الأيام وأرقام التوزيع العكس، لذلك دعني أحدثك الآن عن «معروف حمامة» بطل القصة التي قدَّم لي فيها إحسان تفسيرًا قاطعًا جامعًا مانعًا لعهد مبارك، مع أنه لحسن حظه لم يعش فيه سوى بضع سنوات. سيبك من أن القصة عنوانها «زئير في الأحلام والحياة في أقفاص»، وسيبك من أنها أقرب إلى كونها صورة قلمية، لكن الذي لن يسيبك بعد قراءتها هو قدرة إحسان المدهشة على تكثيف الواقع السياسي الذي لا يتغير في مصر، وهو يستعرض قصة معروف لا مؤاخذة حمامة الذي كان أسدًا في معارضة عبد الناصر؛ لأنه أغرق مصر بالأحلام ومات قبل أن يمتد به العمر ليكون واقعيًّا، ثم كان أسدًا في معارضة السادات؛ لأنه أغرق مصر في أبعد أعماق الواقع، ثم جاء مبارك الذي حمد معروفٌ اللهَ لأنه تولى القيادة بعد أن اجتاز عمر الشباب عمر الأحلام وأصبح في عمر لا يقبل تجاهل الواقع، ولذلك اختار معروف أن يصبح أسدًا في قفص في سيرك الحاكم الجديد الذي يشمل الشعب كله ويُترك فيه الجميع يزأرون كما يشاءون، بينما الحاكم لا يزال يحتفظ بالسوط بين يديه، ولكنه فقط لم يعد يطرقع به في الهواء، أصبح الزئير حقًّا شرعيًّا لكل الحيوانات السياسية سواء للأسود أو للقرود، حتى إنه بدأ يحس أنه لو عاد إلى الزئير فسيضيع بين كل الذين يزأرون، وكلما دفعته طبيعته كأسد سياسي إلى الزئير يُدرك أن الحاكم يستطيع في أي لحظة أن يسترد تبرعه ويخمد الزئير ويطلق الديكتاتورية من جديد،

ولذلك كان معروفٌ دائمًا يبتلع زئيره قبل أن يطلقه، فلا خير في الزئير إذا ظل فقرة في سيرك.

ليس عندي ما أضيفه إلى عبقرية إحسان في توصيف حالنا سوى أن أقول إن الله كان رحيمًا به فقبضه إليه قبل أن يرى كيف لم يعد لدينا في سيركنا السياسي لا بهجة ولا متعة، فقط رائحة الحيوانات المقبضة.

أكتوبر ٢٠٠٩

تغيير الشعب أم تغيير الرئيس؟

لا تدعهم يكذبون عليك. هؤلاء الذين لا همَّ لهم سوى تعداد الرذائل التي يتحلّى بها المصريون كأنهم دون شعوب الأرض خالون من الفضائل، هؤلاء الذين يعزفون على نغمة أن الإصلاح مستحيل في مصر لأن شعبها خانع مستبد ذليل لم يثُر قطّ في تاريخ حياته، وبرغم أنهم معارضون (أو هكذا يبدون) إلا أن ما يقولونه ليس سوى تنويعة معاكسة على النغمة التي يعزفها كتاب الموالسة الذين يقولون للمصريين إنهم لا يستحقون الرئيس الذي يحكمهم، وإنهم لا يرقون إلى مستوى عبقريته وحكمته وقدرته على القيادة، وفي الحالتين الشعب هو المُدان وهو الذي يستحق أن يُعمل فيه الجميع خناجرهم وينهالوا على ذاته جلدًا، بينما هم يعيشون على قفاه بفضل شتيمتهم فيه التي يستعذبها الشعب المأزوم، يغلقون أبواب الأمل في وجوه الناس ليفتحوا أمام أبنائهم أبواب المدارس الأجنبية، يكتبون في هجاء الفقراء فيزدادون غنى، ويتربحون من تجارة لعن سنسفيل الناس ليبثوا فيهم روح الإحباط واليأس، ويكرسوا تلك المفاهيم القاتلة للأمل والمبررة للعجز: «إحنا نستحق اللي احنا فيه.. إحنا شعب مش نافع أبدًا.. عمرنا ما هنتغير».

هل أنا الآن أنفي تمامًا مسئولية الناس عما وصلوا إليه؟ حاشا لله، قبل أن تتهمني بذلك اقض ساعة أو أكثر في أرشيف مقالاتي لتدافع هي عني. أنا يا سيدي فقط أفرّق بين أن نطالب الناس بأن ينهضوا من سُباتهم ليتحملوا مسئولياتهم ويُغيروا أحوالهم، وبين أن أواصل بدأب وإصرار جلد ذواتهم ليستقر في نفوسهم أنهم لن ينصلح لهم حال على الإطلاق. لا أدري أي خير يمكن أن يتحقق في مصر إذا كنت لا أختار للمصريين

من بين بطون التاريخ إلا ما يوحي أن الشعب المصري شعب خانع ذليل لم يثر قط، بينما أغفل تمامًا، وعلى سبيل المثال لا الحصر، أي ذكر لانتفاضة ١٩٣٥ المجيدة التي تثبت أن هذا الشعب يمكن أن يثور وبشراسة لو قادته نخبة نزيهة شريفة يثق فيها ويعلم أنها لن تبيعه في زواريق القصور ومكاتب «القلم السياسي». لن أغضب إذا لم تكن قد سمعت عن هذه الانتفاضة من قبل، فالذنب ليس ذنبك بل ذنب من يقرأون لك وعنك التاريخ، أنصحك أن ترجع إلى كتاب الدكتور حمادة إسماعيل «انتفاضة ١٩٣٥ بين وثبة القاهرة وغضبة الأقاليم»، وإلى كتاب عظيم وساحر ومهم كتبه الدكتور علي شلبي بعنوان «أزمة الكساد العالمي الكبير وانعكاسها على الريف المصري»؛ قدَّم فيه بانوراما تاريخية خلابة للظروف التي يمكن أن تدفع الشعب المصري إلى الثورة، لو قيض الله له ولو قائدًا سياسيًّا واحدًا شريفًا يخرج من بينه ليبث فيه الأمل ويدفعه إلى التمرد كحل للخلاص. (الكتابان بالمناسبة صدرا عن سلسلة الجانب الآخر للتاريخ التي تصدرها «دار الشروق» وكان يرأسها المرحوم الدكتور يونان لبيب رزق، وهي سلسلة لو كانت تصدر في بلاد يهتم إعلامها بتغيير الناس اهتمامه بالفضائح لتغير حال مصر، لكن قومي لا يقرأون).

دعونا من التاريخ إذا كان غباره يثير حساسيتكم، وإذا كنتم لا تحبون من سيرته إلا ما يغذي فيكم اليأس، خلونا في الحاضر وجماله كما يتبدى في بلد مثل البرازيل؛ أصبح في خلال عدد محدود من السنوات واحدًا من أكثر البلاد تقدمًا ونموًّا، دون أن تتبدل شخصية شعبه، ودون أن يصبح واحدًا من أفضل الشعوب على الإطلاق، ودون حتى أن يخاصم ناسه المخدرات والانحلال الأخلاقي والكسل وحب الهلس. كل ما حدث أنهم صدقوا شخصًا نظيفًا محترمًا صافي النية اسمه «لولا دي سيلفا»، ليس في تاريخه ملفات مريبة ولا تربيطات غامضة ولا إدمان لشهوة الكلام، جعل مهمته في تذكير الناس بأنهم لا يشترط أن يكونوا أكثر الشعوب ثقافة ووعيًا والتزامًا سياسيًّا وتحضرًا سلوكيًّا، يكفي أن يدركوا أن مصلحتهم الشخصية الضيقة اليومية النفعية مرتبطة فقط بالاستقتال على صندوق الانتخابات، فتح «دي سيلفا» للناس أبواب الأمل دون شعارات براقة أو شتائم فش غل أو مؤتمرات فضائية فالصو، فصدقه الناس وحملوه حملًا إلى قصر الرئاسة.

وفي مصر اليوم ألف «لولا دي سيلفا» يُغلوِش عليهم جهل الإعلام وخُبث أجهزة الأمن وفساد محترفي السياسة وأنانية المتكسبين من اليأس، فمن يخلي بينهم وبين الناس؟ لا أحد سوى الناس أنفسهم؛ فقط إذا تكاتفنا جميعًا لنعيد إليهم الثقة والأمل واليقين بأنهم ليسوا أسوأ شعوب الأرض، وأن التخلف ليس قدرًا، وأنهم كغيرهم قادرون على صنع الغد إذا أرادوا.

أكتوبر ٢٠٠٩

الإيهام بالتقدم

تعالَ نحسبها بالعقل: أنت الآن عالق في لجة بحر هائج تصارع الغرق، يا سيدي أنا لا أبشر في وجهك، أنت وأنا وكلنا كذلك بالفعل، وإذا لم تكن قد أدركت ذلك فتمنياتي لك بنوم عميق في قاع المحيط، أما إذا كنت مدركًا لما أنت فيه، ولا تحب أن يضحك عليك أحد، فقل لي بالله عليك: هل تحتاج وأنت في هذه الحوسة المبينة إلى شخص يرتدي قناع الحكمة ويلبس لبوس المعرفة لكي يكُر لك كمية معلومات عن عمق البحر وارتفاع الأمواج وعدد البشر الذين سبقوك إلى الغرق وأشهر السفن التي تحطمت وهوت إلى القاع، ثم إذا صرخت في وجهه أن يكف عنك لسانه ولا يصدك عن سبيل النجاة، قال لك بكل برود إنه لم يأتِ بشيء من عنده، وربما قال فيك شاخطًا: «يعني عايزني أكذب عليك وأزيف الواقع؟».

بالتأكيد لست محتاجًا في غرقتك إلى من يرتدي «ماسك» البهجة ويصف لك كم هو رومانسي أن يصارع الإنسان الغرق، أنت تحتاج إلى من يذكرك أنك في وضع صعب للغاية، لكن لا سبيل أمامك سوى أن تحاول النجاة، لعل حال البحر يتبدل، أو لعلك تصل إلى أقرب جزيرة أو تلتقطك سفينة عابرة، المهم ألا تتوقف عن مطاردة النجاة وألا تسلم نفسك للغرق ولو بدا لك واقعيًا؛ لأن في ذلك انتحار سينقلك من جحيم الدنيا إلى جحيم الآخرة، هو لن يسألك طبعًا ما إذا كنت قد استعددت لهذا اليوم وتعلمت السباحة أصلًا، فطريقتك في التضبيش ستكون كافية لكي يقرر هل سيواصل تشجيعك على المقاومة أم يتركك لمصيرك المجهول.

إذا أقنعك هذا الكلام، فدعنا نتأمل معًا أن يقنع كل آباتنا وأساتذتنا العظام الذين قضوا عمرهم العتيّ في النضال والمقاومة ومطاردة الأمل، ثم بعد أن فقدوا القدرة على مواصلة

التجديف بحكم السن أو الزهق أو الصحة أو الطاقة السلبية أو المرارة المفقوعة قرروا أن يكفوا عن مصارعة أمواج الباطل ويتفرغوا لإقناع الملايين الذين صدقوهم وسبحوا خلفهم بأن يستسلموا للغرق فورًا. هؤلاء الكبار الذين نقبل الأرض تحت أقدامهم، لم يعودوا منتبهين إلى خطورة ما يبخونه في وجوه شباب مصر من يأس وانهزامية وإحباط، نعلم أنها تصدر عن نفوس مكلومة وعقول متألمة وقلوب صادقة، لكننا نتمنى أن يعلموا هم أنهم بما يقولونه يقدمون أكبر خدمة للعدو الذي ظلوا طيلة عمرهم يحاربونه، وأنهم يرتكبون جريمة حقيقية في حق الشباب، بينما هم يظنون أنهم يحسنون صنعًا.

في مثل هذه الأيام قبل حوالي ٤٢ عامًا ألقت كتيبة من القوات الخاصة البوليفية بقيادة المقدم «أندرياس زليخ» القبض على المناضل البوليفي الأشهر «إرنستو شي جيفارا»؛ أحد رموز التمرد المشرقة في هذه الأرض (في ثقافتنا العربية رموز مشرقة أخرى لم تعرف طريقها إلى تيشيرتات شبابنا للأسف الشديد). قبل إعدام «جيفارا» بتعليمات من المخابرات المركزية الأمريكية التي أدركت خطورة أي محاكمة عادلة يمكن أن يحظى بها على مصالح العم سام، دار حوار لمدة ٤٥ دقيقة بين «زليخ» وأسيره «جيفارا»؛ الحوار ظل طي الصمت بتعليمات رسمية لمدة ٢٩ عامًا حتى مات «زليخ» وسمحت أرملته للصحفي الأمريكي «جولي أندرسون» أن يطلع على مذكرات «زليخ» التي سجل فيها نص حواره مع «جيفارا» في لحظاته الأخيرة:

«زليخ: يا كومندان، أجدك محطمًا إلى حد ما، هل يمكنك تفسير أسباب وجود هذا الانطباع لديَّ؟

جيفارا: لقد فشلت، كل شيء انتهى، هذا هو سبب رؤيتك لي كما أنا عليه.

زليخ: أنت كوبي أم أرجنتيني؟

جيفارا: أنا كوبي، أرجنتيني، بوليفي، من البيرو، من الأكوادور، أنت تفهمني.

زليخ: ما الذي جعلك تقرر القيام بعمليات في بلادنا؟

جيفارا: ألا ترى الظروف التي يعيش فيها الفلاحون؟ إنهم في حالة همجية، يعيشون في حالة من الفقر تجعل قلبك ينتفض ألمًا، ينامون ويطبخون في غرفة واحدة، ولا يوجد ما يستر أجسامهم، هم مهملون كما لو كانوا حيوانات!

زليخ: لكن هذا أيضًا موجود في كوبا؟

جيفارا: (يرد بعنف) لا، هذا غير صحيح، أنا لا أنكر وجود الفقر في كوبا، لكن على الأقل لدى الفلاحين هناك الإيهام بالتقدم، بينما البوليفي يعيش دون أمل، ومثلما يولد ينتهي إلى الموت، دون أن يرى أبدًا أي تحسين في وضعه الإنساني».

«جيفارا» مات، قبل أن يجد فرصة لتعديل منهجه في المقاومة، فهل يعي أساتذتنا الأجلاء درس «جيفارا»؟ هل يتوقفون عن بخ الإحباط ونفث اليأس في أرواح وعقول شبابنا؟ هل يواصلون تبصيرنا بأوضاعنا المزرية ولكن دون أن يقفلوا في وجوهنا باب الإيهام بالتقدم؟ لكي يتحول إدراكنا بحالنا المرير من يأس مُقعِد إلى غضب مغيِّر.

شوية إيهام بالتقدم، نبوس إيديكم.

أكتوبر ٢٠٠٩

القطار والجاموسة

أنا مش عارف يعني، هل الغلابة الذين استشهدوا في قطاري الصعيد مواطنون درجة عاشرة لكي تتعامل معهم أجهزة الإعلام الرسمية والخاصة بكل هذه التناحة والكلاحة؟! هل كان لازم يعني أن يكونوا من أبناء المسئولين لكي نعلن عليهم الحداد الرسمي، وتنقلب الدنيا رأسًا على عقب من أجلهم، وتتغير خريطة برامج التلفزيون، وتغلق القنوات أبوابها لتشغيل القرآن الكريم، أو حتى على الأقل يلم مذيعو ومذيعات التلفزيونات أنفسهم قليلًا وهم يتحدثون عنهم بدلًا من فشخ الضب المستفز والتباري في إظهار سماكة جلودهم؟ لو كان العشرون قتيلًا من أبناء علية القوم والمتنفذين والمسنودين هل كان السيد عبد اللطيف المناوي رئيس «انقطاع» الأخبار سيظل على رأيه بأن ما حدث مجرد «حادث كبير» وليس كارثة؟

هل يبدو ما أقوله لك اليوم تركيزًا في سفاسف الأمور، تُخطئ كثيرًا إذا ظننت كذلك، هذا هو لب المسألة ورحمة الذين صُرعوا غيلة وغدرًا، دعك من التباري في لعن سنسفيل المتسببين عن مصرع الضحايا ومرمطة المصابين في سلخانات وزارة الصحة، دعك من البحث عن جاموسة فداء للتعمية على المسئول الحقيقي عن هذه الكارثة وكل الكوارث التي سبقتها، الذي سلَّم القط مفتاح الكرار، ودَشَّن «زَفَق» السلطة على البيزنس، وألغى مبدأ الثواب والعقاب، وجعل الفاسدين والمقصرين مطمئنين إلى أنهم لن يدفعوا الثمن غاليا أبدًا، بل على العكس ربما كوفئوا برئاسة بنك أو شركة بترول أو مقعد برلماني، الذي لا يعرف أحد كيف يختار مسئوليه، ولا لماذا يقرر أن يقيلهم، ولماذا يقرر أن يبقيهم، الذي ليس مدينًا لأحد بتفسير أو بتبرير، لأنه أدرى بمصلحتنا منا، وعلينا أن نرضى باللي يجيبه وقت ما يجيبه.

إذا لم ندرك ذلك ولم نواجه أنفسنا به، فدعونا نُسمِّ الأمور بمسمياتها ونجيب الكلام من الآخر: «إيه يعني عشرين فقيرًا ولا خمسين ولا حتى ستين راحوا وارتاحوا، مجرد حادث كبير تسبب فيه خطأ بشري لعامل زوغ قبل موعده ونزلت عدالة السماء عليه فلقي مصرعه، لا تكبروا الموضوع، هل نسيتم أن الحزب الوطني رفع سعر صرف المواطن المصري المصروع في حوادث القطارات من ثلاثة آلاف جنيه إلى عشرين ألف جنيه، ولو مضايقكم المبلغ ممكن نهزه شوية، لا تلعبوا إذن أدوار البطولة، وترقصوا على جثث الضحايا، واحمدوا الله على قد كده، لا تغلوشوا على مسيرة الإنجازات، لا تأكلوا وتنكروا وتكونوا من الجاحدين، فقراء إيه اللي نعلن عليهم الحداد، هم كانوا عملوا إيه للبلد يعني، مش دول اللي بيوسخوا القطارات، وبياكلوا عيش كتير، وبيشربوا ست معالق سكر في كوباية الشاي، وطلباتهم ما بتخلصش، ومشاكلهم ما بتخلصش، وبيرموا الزبالة في الشوارع وبرضه نفسهم مش مسدودة عن الجماع وزرب العيال، الحوادث بتحصل في كل بلاد الدنيا، صحيح أن أهالي القتلى فيها يأخذون تعويضات ضخمة، والمصابين يتلقون عناية آدمية، والمتسببين فيها يحاسبون حسابًا عسيرًا، بس تقدر تنكر إن الحوادث بتحصل في كل بلاد الدنيا».

خلاصة الكلام، كنت في تركيا عندما وقعت في شهر رمضان المنصرم كارثة السيول التي داهمت محافظة إستانبول وما حولها، وأغرقت حوالي ١٥ مواطنًا، وأحدثت خسائر بالغة في الممتلكات، على الفور غيرت كل محطات التلفزيون الرسمية والخاصة خريطة برامجها، وأُعلنت حالة الحداد الرسمي في البلاد، وفُتحت حسابات التبرعات في جميع البنوك، ونسي الأتراك لـ«رجب طيب أردوغان» رئيس الوزراء المحبوب كل مآثره، وانهالوا عليه قدحًا وذمًّا، وقلَّبوا في دفاتره القديمة عندما كان رئيسًا لبلدية إستانبول، وطالبوا بالتحقيق في مسئوليته عن منح تراخيص مخالفة لمباني بُنيت في مواقع مخرات السيول، واضطر الرجل إلى أن يزور المناطق المتضررة ليلًا، ويطل عليها بالهليكوبتر نهارًا تفاديًا لرمي الناس له بالطين والبيض الفاسد، ونزل قادة المعارضة وأبرزهم «دنيس بايكال» إلى موقع الكارثة دون أن يُتَّهموا باستغلال الكارثة سياسيًّا. شاهدت في نشرة الأخبار «أردوغان» وهو يجلس في منزل فقير يفطر مع أسرة غرق منزلها، ويستمع وهو مكبوس إلى كلام شديد القسوة من الناس، دون أن يقف ليشخط

فيهم ويطلب منهم ألا يُحملوه مسئولية كارثة طبيعية لم تشهدها تركيا من عشرين عامًا، ويذكرهم بأفضاله على البلاد التي انتشلها هو وحزبه من هوة الضياع، ولم يكن سيكذب لو قال ذلك بالفم الملآن، لكنه لم يقله، ولذلك هو «أردوغان»، ولذلك تتقدم تركيا الديمقراطية كل ثانية بأهلها، ولذلك يموت الفقير فينا دون أن يحظى بما يليق بآدميته، لا في الحياة ولا في الحداد.

يا عيني على الفقير يا ولداه.

أكتوبر ٢٠٠٩

عشم إبليس في مبارك

أنا رجل أكل عيشي من الخيال، ولذلك سأشطح في خيالي، ولا يهمني.

دونًا عن كل كُتاب مصر عَظُم شأنهم أو هَزُل، سيقرأ الرئيس مبارك ما أكتبه اليوم بعناية فائقة، بعد أن ترفعه له الأجهزة المختصة مشفوعًا بتقارير موثقة تؤكد أن هذا الكاتب ليس لديه ارتباطات مشبوهة، وليس ممولًا من أحد، وأن الله فتح عليه فصار بيته مفتوحًا بفضل الشعب المصري، وأنه لم يكتب سطرًا في حياته كلها يؤيد فيه الرئيس مبارك، ولن يكتب في حياته المقبلة بإذن الله سطرًا يؤيد أي حاكم أيًا كان، سيتأثر الرئيس مبارك بكل هذا لسبب لا يعلمه إلا الله، وسيطلب على الفور من الأجهزة المختصة أن تتحقق من صدق ما كتبته من خلال تقارير موثقة مأخوذة بذمة وضمير من قلب الشارع المصري الشقيان المرهق المكدود والمنتظر لأي خبر حلو أو تغيير يبل الريق.

بكل المقدسات أستحلف الرئيس مبارك أن يتوقف طويلًا ومليًا عند غرام المصريين الجامح بالبحث عن خليفة له قبل الهنا بسنة. يستطيع بعض المحيطين بالرئيس إما عن اقتناع عماده محبتهم له، وإما عن قلة ضمير دافعها بقاء الوضع على ما هو عليه، أن يصوروا الأمر برمته للرئيس على أنه مجرد هوس ناس فاضية، أو قلة ذوق من المعارضين غلاظ الأكباد الناسين لأفضاله على البلاد، أو رغبة في البيع من صحف تدرك حلاوة اللعبة وقابليتها للتغليف بغلاف الهم العام، أو فراغ شباب هرب من تصلب شرايين الواقع إلى حيوية الواقع الافتراضي في منتديات الإنترنت وجروبات «الفيس بوك». يستطيع الرئيس أن يصدق ذلك إذا أراد، لكنه يستطيع أيضًا أن يستمع إلى وجهات نظر أخرى ترى فيما يحدث الآن إعلانًا صادقًا صريحًا وغير مدفوع الأجر عن عطش المصريين إلى التغيير، الذي هو سنة الله في الكون، وحاشا لسُنة الله أن تكون موجهة ضد أي شخص أيًا كان

رأينا فيه أو رأيه هو في نفسه. يستطيع الرئيس أن يعتبر فرحة المصريين بطرح (قد يكون وهميًا) لأسماء مثل عمر سليمان وعمرو موسى والدكتور محمد البرادعي والدكتور أحمد زويل أيًا كان رأينا في أحقية كل منهم بالمنصب، دليلًا على أن كل محاولات ملء دماغ المصريين بصلاحية جمال مبارك للرئاسة لم تنجح في جعله يملأ أعينهم، وأن لديهم عشمًا كبيرًا في أن حب الرئيس لمصر أقوى بالتأكيد من حبه لابنه، وأن خوفه على مستقبل البلاد أقوى بالتأكيد من أمله في ضمان مستقبل ابنه.

لا أدري هل يحب الرئيس مبارك كتب التاريخ أم لا، أنا شخصيًا أعشقها، ولذلك أعتقد أن الرئيس مبارك، ولو حتى من باب الفضول الإنساني الغريزي، يشغله أحيانًا التفكير في الموقع الذي سيحتله في كتب التاريخ. يظل الحاكم في حياته ملء السمع والبصر، لكن كتب التاريخ تترجم حكمه بعد مرور السنين إلى صفحات عريضة حافلة أو أسطر عابرة، يستطيع الرئيس أن يعود إلى مجلدات «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» للمؤرخ العظيم «ابن تَغْرى بردي»، ليرى كيف يُختزل في أسطر معدودات تاريخ ملوك ظلوا عشرات السنين على عرش مصر ولم يخدمهم التاريخ بما هو أكثر من ذكر أسمائهم.

لا يمكن أن يدعي أحد منا أنه يعرف قطعًا ما الذي سيُسجله التاريخ للرئيس مبارك وعليه، ولن يكون عادلًا أبدًا أن يحاول أحدنا ذلك الآن، لكنني أعتقد أن الرئيس لا زال يمتلك فرصة سانحة يتمناها الحكام الذين سبقوه إلى كتب التاريخ وفاتتهم الفرصة للأبد؛ لا أعني فرصة أن يصبح فقط أول رئيس سابق باختياره في تاريخ مصر، فالحكاية ليست بهذه السطحية التي يصورها بعض أراجوزات المعارضة، فلو حكم مصر اليوم صحابي جليل في ظل هذا النظام السياسي الذي يكرس حكم الفرد للأبد لضج الناس من فساده وظلمه بعد أشهر من حكمه. الفرصة السانحة التي أقصدها هي أن يجري الرئيس مبارك تعديلًا دستوريًا حقيقيًا يقصر مدة الرئاسة على فترتين رئاسيتين لا ثالث لهما ولا سبيل لزيادتهما، بأي شكل وتحت أي ظرف، ويضمن الإشراف القضائي الكامل على الانتخابات، ويعطي المصريين حقهم الإنساني الطبيعي، حق تقرير المصير.

أنا من المؤمنين بدور الفرد في التاريخ ربما أكثر من اللازم، وأعرف شواهد كثيرة لتحولات مفاجئة لحكام غيرت مجرى التاريخ، لكنني لا ألزم أحدًا بأحلامي أو حتى بأضغاث أحلامي. باختصار لا أعتقد أن خلاصنا ستحققه الحرية الشكلية التي تسعد

حوالي مائة شخص؛ ما بين كاتب ومذيع ومحترف سياسة، وترضي غرورهم وتحقق مصالحهم بينما يستمر شقاء شعب بأكمله. خلاصنا لن يتحقق بتحويل مصر إلى حقل تجارب يحولها إلى لبنان أو عراق لا سمح الله، أو بالجري وراء قفزات بهلوانات المعارضة الذين غرروا ببعض مخلصينا ليرصوهم في مشهد مهين أمام كاميرات الفضائيات التي عملت عليهم شوية شغل حلوين لن يصل صداه إلى الناس أبدًا؛ لأن الناس لا تأكل من الأونطة. خلاصنا لن يتحقق بالمشاركة في خداع الناس بأن الأمل يمكن أن يتجسد في شخص وليس في طريق.

أنا رجل آكل عيشي من الخيال، لذلك سأشطح في خيالي، ولا يهمني. ربما قرأ الرئيس مبارك كلامي، وربما تأثر به، وربما قرر أن يفعل ما يجعل الله يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ويضمن له على الأقل مجلدًا كاملًا في كتب التاريخ القادمة، وربما كان كل ما كتبته الآن ليس سوى عشم إبليس في الجنة، لكن ألست معي في أن الله حَرَّم على إبليس دخول الجنة، لكنه سبحانه لم يُحَرِّم العشم.

أكتوبر ٢٠٠٩

الشباب الذي سيغير مصر

عمنا إيليا أبو ماضي قالها: «والذي نفسه بغير جمال.. لا يرى في الوجود شيئًا جميلًا»، وهو لم يكن يقصد جمال مبارك يا سيدي الدوق، بل كان يقصد أن كلًّا منا يرى من الواقع فقط ما يريد أن يراه، مثلًا مثلًا يعني، عندما كنت أتجرع مرارة الفشل العاطفي كتبت عشرميت مقال أنعي فيها غياب الرومانسية واندثار العاطفة في زمن المادة وما إلى ذلك من الكلام الساكت الذي قيل وسيقال في كل العصور على لسان المجروحين عاطفيًّا، حقهم ولا يمكن إنكاره، ديِّتها أن يتحققوا عاطفيًّا فقط، وعندها سترى أعينهم على الكورنيش (أي كورنيش ولو كان كورنيش ترعة الزمر) كيف يستعصي الحُب على الفناء، وستبدل قوائم «البلاي ليست» على كمبيوتراتهم بقدرة قادر. هكذا هي الحياة، إذا لم ترد أن تراها كما هي، فأنت لن ترى منها إلا ما تريد.

لو مددت خط الفكرة على استقامته، لما لُمت من يقذف شباب مصر بأقذع الاتهامات ولا يرى إنقاذ مصر إلا بيد شيوخها، ناسيًا أن التاريخ يعلمنا أن الواقع لم تغيره حكمة الشيوخ بقدر ما غيرته حماسة الشباب الذين يسعون بعد ذلك لقتل التغيير الذي يمكن أن يطيح بهم أنفسهم بعد أن تتلبسهم الحكمة. لا أدعي أنني قد أحطت علمًا بشباب مصر اليوم، لكنني أستطيع أن أدعي أن هناك شبابًا مختلفًا لم يعد يكتفي بوضع يده على خده في انتظار خريطة الطريق التي يضعها الأوصياء أيًا كانت نواياهم طيبة، ومهما بدت أفكارهم براقة. يشهد الله أنني لا أتحدث عن أسماء بعينها، فقد بات الكل والحمد لله يمارسون غواية الوصاية على شباب مصر؛ الذي يظلمه البعض عندما يظن أنه فقط أولئك الشباب الذين يفقسون الجروبات على «الفيس بوك»، ويتهارشون في بعض منتديات الإنترنت، ويرضون عن جهلهم ويرضى جهلهم عنهم.

هناك في مصر شباب محترم وجاد ومُبهج، يشتغلون في الشارع ووسط الناس دون أن ينشغلوا بمحاولة البعض، وأنا منهم، بالوصول إلى نظريات قاطعة حول جدوى العمل الأهلي من عدمه، منذ أيام صفعتني رسالة أرسلتها إليَّ شابة متحمسة اسمها أغاريد؛ تعمل في إحدى المؤسسات الأهلية المحترمة:

«يا أهل الإعلام ابدأوا بأنفسكم وتجاهلوا الفترة الأخبار السلبية والفاضحة واستضيفوا أو اكتبوا عن مبادرة إيجابية يمكن الناس تحس بالأمل، هل سمعت عن مبادرات مثل: «أخلاقنا» أو «وفاء لمصر» أو «بلدنا» أو «أوتاد» أو «أنا باتغير.. بداية» أو «إسطبل عنتر» أو «فاتحة خير» أو «صندوق قرية بلا أمي أو عاطل» وكلها مبادرات تعمل منذ زمن وفي صمت، أنا على استعداد لتوصيلكم بهم لو أحببتم».

إلى جوار من ذكرتهم أغاريد في رسالتها يمكن أن أحدثك أيضًا عن شباب زي الفل أنشأوا مبادرة ثقافية رائعة اسمها «دار الكتب»، بدأت بموقع صغير على الإنترنت أصبح يكتسب جماهيرية واسعة يومًا بعد يوم جعلت صناعه يقررون النزول من الواقع الافتراضي إلى الواقع الحي بمبادرة اسمها «مهرجان تبادل الكتب المستعملة». نجح المهرجان بصورة مدهشة دفعت مكتبة الإسكندرية إلى استضافتهم يوم ٨ نوفمبر القادم لمدة ٤ أيام. في ساقية الصاوي هناك فريق اسمه «فريق معًا لاستثمار الموارد البشرية» قام بتخريج تسع دفعات من الشباب بعد تدريبهم على متطلبات سوق العمل بشكل عصري ومن غير ولا مليم. ثمة شباب آخرون لا تجمعهم انتماءات حزبية قاموا بإطلاق مبادرة كانت هي التي تستحق أن نلتف جميعًا حولها دعمًا وتشجيعًا؛ لأنها تمثل الخلاص الحقيقي لمصر، اسمها «صوتي مطلبي»، والنجاح الذي حققته الآن في أوساط الشباب خلال أشهر لم تحققه خلال سنين الأحزاب المتعفنة في مقراتها.

في آخر يوم من العام الماضي كتبت سطرًا عن جمعية «رسالة» التي اعتبرتها أفضل شيء حدث في مصر، وفوجئت بسيل من الإيميلات الفرحة بما كتبته، برغم أنه لا يوفي هؤلاء الشباب حقهم أبدًا، والمعنى أن هؤلاء الشباب برغم حبهم لما يعملون وإخلاصهم له لا زالوا بحاجة إلى التشجيع لا إلى التقطيم، بحاجة إلى المزيد من الفرص والأضواء وليس المزيد من المبادرات والتنظيرات، بحاجة إلى المساندة لا إلى الوصاية.

أذكر أنني اقترحت قبل أعوام على أحد أصدقائي من رؤساء التحرير أن يفرد صفحة

أسبوعية لتقديم نماذج مشرفة من الشباب الذين يعملون في الشارع سواء كان عملًا سياسيًّا أو خيريًّا أو اجتماعيًّا أو ثقافيًّا أو طلابيًّا، وذكرته بما قام به في السبعينيات الكاتب الكبير «لويس جريس» في مجلة «صباح الخير» عندما كان يجوب محافظات مصر لتقديم نماذج شبابية مشرفة في جميع المجالات، وكيف حققت تجربته نجاحًا مدهشًا لكنها أجهضت باتهامه بتقديم نماذج شيوعية مثل محمد منير وعلي الحجار وغيرهما، استغربت أن صديقي العزيز سخر من فكرتي ووصفني بأنني حالم أبله قائلًا: «الناس ما بتحبش شغل التنمية الذاتية العبيط ده». لست متأكدًا من دقة كلامه، لكنني متأكد أن ما قلته لا علاقة له ببلاهة التنمية الذاتية، بل له علاقة بأزمتنا الأزلية التي لخصها من زمان عبد الرحمن الكواكبي رحمه الله عن «الزمان الذي يضن علينا بأناس يذكون الهمم ويقوون العزائم».

أستاذنا محمد المخزنجي قالها: «في هذا الزمن يمنح الناس البطولة للذين يروجون لليأس، وليس للذين يبحثون عن الأمل». لكن، فليهنأ بالبطولة من يبحث عنها، نحن فقط نحتاج إلى أن نبحث عمن يؤمن بأن اللي يحب النبي يِزُقّ.

أكتوبر ٢٠٠٩

الجبهة الوطنية لتطفيش البرادعي

يا صاح.. من قال إن هذه البلاد لا تتغير؟

يترك البني آدم منا الكتابة عدة أشهر وهو يظن ظن السوء أن البلاد ستظل على حَطّة يده، لكنه عندما يحتشد للعودة إلى الكتابة، ويقضي ردحًا من الزمن في قراءة الصحف الحكومية والمواقع الإلكترونية والتمعن فيما يدور على ألسنة الناس من حوله على قعدات المقاهي و«شِلَت» الصالونات الفضائية والثقافية والسياسية والحلاقية، يصل إلى نتيجة واضحة وضوح الفساد في هذه البلاد، ألا وهي أن المصريين أخيرًا سينالون فرصتهم في التغيير.. تغيير الدكتور البرادعي.

نصف العمى ولا العمى كله. يعني إذا كنا قد فشلنا في تغيير حاكمنا الذي يحكمنا منذ ثلاثين عامًا، وعداد حكمه لا زال شغالًا بعون الله، مع أنه قال لنا إنه سيحكمنا لفترة رئاسية واحدة «ومش هاجدد»، فليس معنى ذلك أن نسمح لأول معارض حقيقي يهدد عرش حاكمنا بأن يبقى في واجهة المعارضة لأكثر من ثلاثة أشهر.

نقولها لمن يراقبنا من الخارج، إذا كنت لا تعرفنا فتذكر أننا، أو بعضنا على الأقل، أحفاد للشاعر العربي الذي قال يومًا: «ونحن أناسٌ لا تَوَسُّط بيننا». يا سيدي التغيير مطلوب لدينا، مطلوب بشدة، ليس فيما يخص الحكام، ولكن فيما يخص المعارضين، وإذا كان قد غرك فينا أننا رجونا حاكمنا يومًا ما أن «يدينا كمان حرية» في مقابل أن نظل «معاه إلى ما شاء الله»، فلا تظن أننا سنمنح هذا العهد السخي المجاني لكل من هب ودب، وأننا يمكن أن نصير على الدكتور البرادعي، فنمنحه ولو حتى نصف عام من الثلاثين عامًا التي منحناها للرئيس مبارك، ولا زلنا مستعدين لمنحه المزيد لكي يظل يحكمنا «حتى آخر

نفس» طبقًا لبشارته التي زفها إلينا ذات خطاب رئاسي قريب، وحاول بعض المشككين يومها أن يتساءل هل المقصود آخر نفس للبلاد، لكننا فوتنا عليه الفرصة وقلنا له إن المعنى واضح لدينا، نحن فقط «إللي مش عايزين نفسز».

ليس لدينا شيء ضد البرادعي، نحن نحبه كثيرًا، فرحنا له عندما كسب جائزة نوبل للسلام، وزعلنا منه قليلًا لأنه لم يهدها للرئيس مبارك راعي الطاقة الذرية والذريين، لكن حصوله على جائزة كهذه لن يدفعنا للتعامل معه بطولة البال التي تعاملنا بها مع الرئيس مبارك، ليس لأن البرادعي ليس لديه أمن مركزي يسحل، وصحف تعض، ومخبرون قادرون على نقلك إلى الدار الآخرة بركلة قدم، وليس لأن انتقاد البرادعي أكثر أمانًا من انتقاد مأمور قسم أو التقطيب في وجه ضابط كمين ليلي، لا، لا تظن بنا السوء لا سمح الله، فكل الحكاية أن جائزة البرادعي التي حصل عليها لأنه راجل بتاع سلام، لن تجعله يفضل بطل الحرب والسلام في نظرنا أبدًا، لا تنس أن الرئيس مبارك له جائزة باسمه يمنحها هو لمن شاء كل عام، فهل يستوي مانحو الجوائز مع الحاصلين عليها إن كنتم تعلمون؟

نحن لسنا متحاملين على البرادعي، كلا البتة، الرجل يسافر كثيرًا خارج مصر، ونحن شعب لا يحب السفر، يحب الاستقرار والملل، فلسفتنا في الحياة مقولة الشاعر: «جاي في إيه وسافرت في إيه.. وما ريحتش عندنا ليه». لا تقل لي إن الرئيس مبارك يسافر كثيرًا، إيش جاب لجاب؟ سفريات الرئيس من أجل المواطن محدود الدخل، فلمن يسافر البرادعي؟ سفريات الرئيس جلبت لنا أنهارًا من المعونات والمنح والمساعدات والعلاقات التاريخية والأواصر الوطيدة، فماذا جلبت لنا سفريات البرادعي المتكررة غير وجع القلب، وقلق الدكتور حسن نافعة، وزعل الأستاذ حمدي قنديل الذي كان على البرادعي أن يظل في مصر لا يغادرها ويُسقط لنا النظام الحاكم في أسرع وقت ممكن، ثم تكون أولى قراراته التاريخية إعادة طلة الأستاذ حمدي إلى شاشة التلفزيون المصري؟

يا سيدي تغيير الحاكم في بلادنا باهظ الثمن، ونحن لم يعد لدينا ما ندفعه، نحن نحتاج إلى من يدفعنا بعيدًا عن شريط قطار الكون، أما تغيير المعارض فهو أرخص وأوفر وأكثر أمنًا وأقل إرهاقًا، تغيير الحاكم يحتاج إلى شباب طويل النَّفَس أخضر القلب ليس لديه

«ماضي» ولا حسابات ولا أجندات ولا خبرات سياسية ولا حصيلة معرفية ولا مكاسب ولا خسائر، شباب «ماحيلتوش» غير الأمل، تغيير الحاكم في بلادنا حلم بعيد المنال يمكن أن يقلب في أي لحظة بكابوس مرير، لذلك ولذلك كله، دعنا إذن من حكاية الجبهة الوطنية للتغيير، وهيا بنا ننضم إلى الحزب الأكثر شعبية في مصر الآن: الجبهة الوطنية لتغيير البرادعي.

٣ يوليو ٢٠١٠

وزارة «الخالدية»

في أيام السيد المسيح كان الإنسان «يفتح ذراعيه للعالم فيُصلَب»، واليوم يفتح الإنسان فمه للمُخبر فيضع به باكتة بانجو ليختنق.

لا نريد أن نكون سلبيين! اليوم وبفضل وزارة الداخلية صارت مهمتك في إقناع المقربين منك بنبذ البانجو أسهل بكثير. اعرض لهم فقط صورة الشاب السكندري المغدور «خالد سعيد» قبل وبعد قتله، ثم قل لهم بصوت جهير دافئ: «هذا ما يفعله البانجو بشباب مصر». هل أنا لا سمح الله أتهم مخبري الداخلية بأنهم وضعوا البانجو في فم خالد عنوة، أرجوك لا تفهمني بسرعة أو ببطء، فأنا رجل يمشي طبقًا للأصول برغم بيعها، فضلًا عن أنني رجل يعرف مخاطر الإدمان، ولذلك أصدق أن خالد وضع البانجو في فمه من تلقاء نفسه، أصلًا القاصي والداني يعرف أن البانجو يلحس المخ، ويجعل الإنسان ذاهلًا حتى عن مقاس قصبته الهوائية. لستَ محتاجًا إلى تقارير طب شرعي تتفوق سرعة تسليمها على سرعة خدمة ماكدونالد للديليفري، لتعرف أن مصر مليئة بضاربي البانجو الذين يموتون كل يوم بعد أن يندفعوا بفعل النشوة المفرطة إلى ضرب أرجل المخبرين بأجسامهم.

الآن إذا لم تكن راغبًا في تبطيل البانجو، عليك كلما داهمك مخبر راغب في تفقد الحالة الأمنية، أن تسلم له الباكتة فورًا، ولا تبادر إلى ابتلاعها؛ لأن ذلك سيقتلك. هل يمكن أن يصدر قرار وزاري بوضع تحذير على كل دفتر ورق بفرة يقول: «احذر: الابتلاع يؤدي إلى الوفاة»؟ حتى لو لم يحدث ذلك فقد صرنا ندرك الآن أن البانجو لا يغرق شاربه في عالم من الخيالات اللذيذة كما تقول الأسطورة التي يروج لها «الديلرات» في أنحاء في العالم، بل هو يتسبب لحامله المصري فضلًا عن شاربه بجروح قطعية حادة وكسور

في الجمجمة وتورم في الجسد، لذلك عزيزي الشاب الضائع: البانجو لا يفيد، والقطنة ما تكدبش، والداخلية أيضًا، واسألوا مدام نظيفة التي لا علاقة لها بحكومة الدكتور نظيف بتاتًا، مجرد تشابه إعلانات.

طَب والله العظيم تلاتة، ليست لديَّ مشكلة في تصديق بيان الداخلية، بل المشكلة أنني أرتعد خوفًا من العواقب الوخيمة التي يمكن أن يحدثها تصديقه، خصوصًا بعد حرصها على تصدير صحيفة سوابق خالد للناس بوصفه صاحب جنحة سرقة وهارب من الجيش قبل أن يُظهر أهله شهادة خدمته العسكرية، ثم تصدر طبعة جديدة من بيان الداخلية تتحدث عن أدائه للخدمة بشكل «رديء». للأسف لم يفكر أحد من الذين نتعوا هذا البيان أن شعبنا الطماع يمكن أن يفتح عينه في وش الداخلية ليسألها لماذا لم تُسلط مخبريها مثلًا على نواب الحزب الوطني الهاربين من التجنيد لينهالوا عليهم سفعًا بالبواني والأقدام، وإذا كانت خدمة الركل الوطني قد بدأت بخالد صاحب جنحة السرقة، فمتى ستمتد إلى الذين ينهبون قوت الشعب ويسرقونه آناء الليل وأطراف النهار، وكيف سيكون رد فعل الداخلية لو امتدت أيادي وأقدام أبناء الشعب يومًا ما إلى زمارة رقبة صاحب عبارة غارقة، أو فَكّ حرامي قطاع عام، أو سلسلة ضهر مرتشي، تأسيًا بمبدأ العقاب الفوري الذي يكرسه بيانها، والذي يمكن ترجمته بالبلدي إلى عبارة واحدة «إنتو قالبين الدنيا على إيه.. ده حتى واحد هربان من الجيش وصاحب سوابق وكمان شايل بانجو!»، مع أنَّ في بلادنا من ارتكب جرائم مريعة في حق البلاد دون أن تمتد إليه أقدام مخبري الداخلية، بل هي على العكس مستعدة لركل من يقول له تلت التلاتة كام.

إذا كنت تعيش معنا في مصر، فأنت تعلم حجم التدليل الذي تحظى به وزارة الداخلية ماليًّا وسياسيًّا ونفسيًّا، ولذلك ستندهش لما جاء في بيانها من حديث حافل بـ«البارانويا» عن أولئك الأعداء الغامضين الذين يريدون توريطها فيما هي بريئة منه. في رأيي إذا كان للداخلية عدو، فهو الذي شار عليها مثلًا تلك الشورة المهببة بأن تلغي شعار الشرطة في خدمة الشعب لتعلن بداية عهد من الاستعلاء على المواطنين، وأن تصدر قرارات مثل منع إدخال المحمول إلى أقسام الشرطة مباشرة بعد ظهور كليبات التعذيب في الأقسام، أو اعتقال نساء بدو سيناء وأطفالهم حتى يُسلِّم الأزواج أنفسهم للداخلية، أو تجاهل الاختلال في الأجور بين كبار الضباط وصغارهم، وتطنيش الدور التخريبي الذي يلعبه بعض الأمناء والمساعدين والمخبرين في الشارع المصري بحملهم لصلاحيات غير

قانونية تسيء إلى صورة جهاز الأمن وتخرب عمله وتُعَمق ما بينه وبين الناس من هوة، وأخيرًا المكابرة في الدفاع عن قتلة خالد سعيد دون حتى إصدار بيان حصيف يمتص غضب الرأي العام، وكلها سياسات هوجاء تهيل التراب على الجهود المخلصة التي يبذلها الآلاف من رجال الشرطة على طول البلاد وعرضها، وهي جهود لا ينكرها إلا جاحد أو جاهل لا يدرك مدى احتياج مصر، في هذه الفترة التي ما يعلم بيها إلا ربنا، إلى جهاز أمني قوي وعادل يثق فيه الناس ويأتمنونه على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم.

أنا لا أطول، ومع ذلك، لو كنت وزيرًا للداخلية لافتتحت كل اجتماعاتي بهذا الدعاء: «اللهم احمِ وزارة الداخلية من نفسها، أما الناشطون السياسيون فبيادات الأمن المركزي كفيلة بهم».

٤ يوليو ٢٠١٠

جائزة مصر

طلب مني صحفي قومي شاب (أشبب مني بكثير) أن أقول له تعليقًا على فوز الأشعر عبد الرحمن الأبنودي بجائزة مبارك للآداب. وبعد أن حمدت الله وأثنيت عليه لأنه وهب لنا نعمة مزجاة اسمها عبد الرحمن الأبنودي كلما قرأنا شعره أو نثره ازددنا له حبًّا، وكلما استمعنا إلى أغنية من أغانيه أحببنا الحياة أكثر، ثم فجأة وجدت على طرف لساني سؤالًا طارئًا وجهته للصحفي: «ألَا صحيح ما عندكش نمرة موبايل الرئيس مبارك؟». وكما يقولون في الروايات القديمة «نَدَّت» عن فمه ضحكة عصبية، ربما توترًا وربما مشاركة له مني فيما تصور أنه إفيه، قلت له موضحًا: «على فكرة أنا باتكلم بجد.. وبالمناسبة لو مش معاك النمرة ممكن تسأل محرر الرئاسة بتاع الجرنان».
لم يكن توضيحي كافيًا لكي يأخذ الصحفي كلامي مأخذ الجد، بل ظن، وكل ظنه إثم، أن مَسًّا من الهطل قد أصابني، فبدأ يقطم في الكلام متحججًا بأن المكالمة ممكن تقطع في أي وقت «عشان أنا داخل على نفق»، مع أنه كان يكلمني من تليفون الجرنان، لكن يبدو أن فضوله استبد به قبل أن يدخل النفق فسألني: «أقدر أعرف إنت عايز تليفون سيادة الريس ليه؟». صوت جَزِّه على أسنانه وهو يقول «سيادة الريس» ذكرني بتصريح وزير الداخلية الشهير: «واللي خايف ما يتكلمش»، فقلت في عقل بالي: «طب والله فكرة أنا أقول اللي عايزه في التليفون.. صحيح أنه لن يصل إلى الرئيس؛ لأنه لا يهتم بسفاسف الأمور ولا سفاسف البشر من أمثالي، لكن أهوه أبقى عملت اللي عليَّ».
أنهيت الكلام مع عقل بالي لأعاود الكلام مع الصحفي: «أصل كنت عايز أهني الريس بحصوله على جائزة عبد الرحمن الأبنودي»، فارتبك قائلًا بتوتر يعكس ذكاءه الحاد: «على فكرة الأبنودي هو اللي حصل على جايزة سيادة الريس». قلت له: «دي وجهة

نظرك، لكن في رأيي أن أفضل ما حصل للرئيس مبارك خلال العام الماضي هو اقتران اسمه باسم عبد الرحمن الأبنودي».

انقطع الخط فجأة، عذرت الصحفي لأنني أعرف صعوبة الموقف عندما تدخل في نفق. لا أتحدث بالمناسبة عن النفق الذي أدخله الآن وأنا أسأل، إلا إذا كان السؤال قد حُرِّم من غير أن يقول لي أحد، عن المبررات الوجيهة التي تجعل أرفع جائزة في البلاد تحمل اسم الرئيس مبارك، ولا تحمل اسم مصر، باعتبار أن جميع من دخل المدارس يعلم أن «مصر فوق الجميع»، لا أعلم إذا كان ذلك قد تغير في مناهج المدارس منذ أن قرروا وضع صورة الرئيس فوق علم مصر داخل كل الفصول، لكن الذي أعرفه أن الرئيس مبارك سيرحل عن الحكم يومًا ما، بعد عمر طويل أو قصير، ليس ذلك شأني ولا اختصاصي، فماذا سيكون مصير الجائزة إذن؟ هل سيصبح اسمها جائزة الرئيس السابق مبارك؟ وهل يناضل دعاة التوريث إذن من أجل إيصال جمال مبارك إلى مقعد الحكم لكي يجنبوا الدولة عناء وتكلفة تغيير اسم الجائزة، فضلًا عن آلاف المدارس والأنفاق والكباري والميادين التي تم تسميتها باسم الرئيس في طول البلاد وعرضها؟ بالمناسبة لا أعلم هل كانت هناك جوائز تحمل أسماء عبد الناصر والسادات وفاروق من قبل، وهل يتذكرها أحد الآن؟ بالمناسبة أيضًا عندما يموت أحد الكبار أقرأ في نعيه أنه حصل على جائزة الدولة التقديرية مثلًا، فأسأل لماذا لم يسموها جائزة مصر التقديرية، أليس ذلك أفضل من إطلاق اسم زائل أيًا كان قدره وتقديره على جائزة يفترض أنها باقية.

يا ناس يا هوه! بالله عليكم، هل توجد دولة متقدمة، أو تريد أن تكون متقدمة، تُطلق اسم رئيسها الحالي على أرفع جائزة فيها، مع أنه لا يدفع قيمة هذه الجائزة من جيبه، بل من أموال الدولة التي هي أموال الشعب الذي يدفع الضرائب والرسوم والمكوس والدمغات والاستقطاعات، أليس ذلك مبررًا كافيًا لتسمية الجائزة باسم جائزة الشعب المصري، أعتقد أن كل من سيحصل عليها ستغمره السعادة هو وأولاده وأحفاده وأحفاد أحفاده من بعده كلما نظروا إلى ورقة البردي المعلقة على الحائط التي تعلن بالخط المُذهَّب حصوله على جائزة الشعب المصري، طيب لكي نتأكد تعالوا نسأل الدكتور مصطفى الفقي الذي حصل على جائزة الرئيس مبارك هذا العام في مجال العلوم الاجتماعية، وهو كما يعلم كل المتخصصين في العلوم الاجتماعية

أكثر من يستحقها في مصر في هذا المجال؛ فهو شخصية اجتماعية إلى أبعد حد، لا يغادر ندوة إلا أحصاها، ولا حفل كوكتيل إلا حلَّ به، تعالوا نسأله: «لو خيَّروك يا دكتور مصطفى بين أن تحصل على جائزة باسم الرئيس مبارك أو جائزة باسم مصر أو الشعب المصري، أي جائزة ستختار؟»، ألو ألو دكتور مصطفى، هل تسمعني؟ واضح إنه دخل النفق أيضًا.

١٠ يوليو ٢٠١٠

اللهم «أرجنتنا»

بكيت على خروج الأرجنتين المُهين من كأس العالم كما لم تبكِ أرملة في «بوينس أيرس» على رحيل «أبو عيالها».

إذا كنت قد تجاوزت الثلاثين من عمرك فأنت إذن عاصرت ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين، ولست محتاجًا لأن أخبرك أن الرئيس مبارك كان يحكمنا وقتها برضه، ولا كم كان الساحر الأرجنتيني «دييجو مارادونا» يعني لنا ولكل أبناء العالم الثالث قاطبة، إذا كنت لم تعاصر تلك الفترة اسأل أحدًا من الناجين من محرقة امتحانات الثانوية العامة في صيف ١٩٩٠، واجعله يحكي لك عن عشرات الشباب الذين كاد «مارادونا» أن يضيع مستقبلهم عندما ضحوا بمراجعة الجبر والفلسفة والتفاضل، وفضَّلوا تشجيع الأرجنتين وهي تسحق البرازيل ويوغوسلافيا وإيطاليا، قبل أن تنهزم أمام ألمانيا بضربة جزاء ملعوب في صحتها، قيل يومها إن خطيب مسجد دعا في صلاة الجمعة: «اللهم انصر إخواننا في الأرجنتين على الألمان الصليبيين»، وبعد الصلاة مباشرة اقترب منه مصلي ليهمس في أذنه بكلام ما، جعل الخطيب يعتذر، ليس لأنه تفوه بهذا الدعاء الطائفي، بل لأن الإخوة الأرجنتينيين طلعوا صليبيين أيضًا.

لم أصدق هذه الواقعة، مع أنها بدت منطقية في ظل الهوس الأرجنتيني الذي كان يجتاح الكون بأسره، كان لنا صديق حَرِّيف بلغ هوسه بـ«مارادونا» إلى درجة أنه قام بتدبيس بوسترات «مارادونا» على وجه وضهر «الكوفرتة» التي يتغطى بها، ولم يرتدع إلا بعد أن قال له والده كلامًا لا يصح نشره هنا، كان صديقنا ميسور الحال، لكنه كان يضيع مصروفه على شراء كل صحيفة أو مجلة تنشر أي كلام من أي نوع عن «مارادونا». مرة فاجأنا بأنه قرر أن يبدأ في شم الكوكايين بعد انتهاء الامتحانات، فقط لكي يمتلك الدماغ التي تجعل

«مارادونا» يلعب بكل هذه الحرفنة، كنا نظن أنه يمزح، لكنه كان جادًا أكثر مما توقعنا، وعندما حاولنا أن نبين له مخاطر الكوكايين ونقنعه بالاكتفاء بالحشيش، اتهمنا بانعدام الطموح، بعد الامتحانات قيل له إن هناك من يبيع الكوكايين في مكان ما بجبل ناعسة، وعندما ذهب إلى هناك وهو يظن أنه يضع قدميه على أول طريق المجد المارادوني، ثبَّته اثنان من فراودة المنطقة اللذين هرشا كونه فرفورًا عندما سألهما: «مفيش حد بيبيع كوكايين هنا يا جماعة؟»، فقاما بتقليبه وفعلا فيه أشياء يندى لها الجبين، كان من نتيجتها أنه ترك الملاعب والبلد بأسرها، وكان آخر ما علمته من أخباره أنه هاجر إلى صلالة.

لم يصل بي عشق «مارادونا» إلى هذا الحد المزري، لكنني ظللت على مر السنين أتابع انتصاراته وانكساراته بشغف وتعاطف، ازددت له حبًا بعد أن شاهدت فيلمًا روائيًا أرجنتينيًا بديعًا عنه اسمه «يد الله»، وفيلمًا وثائقيًا صنعه عنه أحد كباتن السينما العظام الصربي أمير كوستاريكا، وهأنذا بعد أن ظننت أنني قد فقدت إلى الأبد تعصبي الكُروي، اتضح أنه عاد إليَّ وبشراسة مع رؤيتي للمدرب «مارادونا» وهو يقف كالأسد الهصور القصير على خط الملعب. أشفقت عليه عندما خذله لاعبوه الأوغاد الذين لعبوا كحفنة من المخنثين، ليفترسهم الألمان الذين نزع الله من قلوبهم الرحمة ومن أقدامهم الوهن، ظننت مع نهاية المباراة أنه سيصاب بأزمة قلبية، وظللت أتابع تعبيرات وجهه بترقب إلى أن انقطع الإرسال من الملعب، وبدأ رغي الاستديوهات التحليلية، فهرعت إلى الإنترنت أبحث عبثًا عما يطمئنني على بطل مراهقتي، إلى أن وجدت ما يجعلني أطمئن على الأرجنتين، البلد وليس الفريق، وأزداد غمًّا على حال مصر، البلد والفريق والمجتمع والناس.

مراسل الـ«بي بي سي» في «بوينس أيرس» نشر خبرًا في نفس يوم الهزيمة الأرجنتينية عن إحالة الرئيس الأرجنتيني الأسبق «جورج فيديلا» إلى المحاكمة لدوره في قتل ثلاثين معارضًا يساريًا خلال توليه الحكم بعد انقلاب عسكري بدأ منذ عام ١٩٧٦ واستمر حتى عام ١٩٨١، مع أن «فيديلا» أصلًا يقضي عقوبة السجن مدى الحياة هو وعشرين من قيادات عهده بسبب جرائم ارتكبوها بحق مواطنين أرجنتينيين معارضين، كان الرئيس السابق «كارلوس منعم» قد منح «فيديلا» عفوًا في عام ١٩٩٠، لكن المحكمة العليا ألغت هذا العفو المريب وأعادت «فيديلا» إلى السجن ذليلًا صاغرًا برغم بلوغه سن الرابعة والثمانين وإصابته بسرطان البروستاتا، كانت المفارقة أن «فيديلا» استغل عقد كأس العالم في بلاده عام ١٩٧٨ لكي يغلوش على ما تناقلته وسائل الإعلام العالمية

ن انتهاكات حقوق الإنسان في بلاده، وها هي عدالة السماء تختار هذا التوقيت التحديد لكي تنزل على أم رأسه مع أنه لم يقتل المعارضين بيديه، ولم يعذبهم بقدميه، كن العدالة أوجبت محاكمته؛ لأن جرائم التعذيب حدثت تحت مسئوليته السياسية، جرائم التعذيب لا تسقط بالتقادم.

لم تعد الأرجنتين واحدة من جمهوريات الموز التي لا سعر فيها للمواطن ولا كرامة ه، فلا خوف عليها إذن إن انهزمت في الكرة، طالما تنتصر فيها العدالة، طالما أن الظَّلمة الفاسدين والحرامية لا يموتون فيها كما قال الخال الأبنودي: «بدون عقاب ولا قصاص.. يموتوا وخلاص».

حكمتك يا رب، اللهم إن لم ترزقنا ذات يوم لاعبين بمهارة «مارادونا»، فاجعل عدالة لسماء تنزل علينا كما أنزلتها على محاكم «بوينس أيرس».

١٢ يوليو ٢٠١٠

مقالة كأنها مكالمة

هل قرأت «الحتة» التي كتبتها يوم السبت الماضي عن جائزة مبارك وتهكُّمي على منحها للدكتور مصطفى الفقي في فرع العلوم الاجتماعية؟ قرأتها؟ يا خسارة، كنت أتمنى أن تجيب بلا لكي نتكلم في موضوع آخر، لكن بما أنك قرأتها دعني أشركك معي في هذا السؤال: ماذا ستفعل لو كنت مكاني وفتحت موبايلك، أو لكي لا يغضب أستاذنا فاروق شوشة ومجمع اللغة العربية، لو فتحت هاتفك المحمول أو نقالك أو «خِليويّك» لتجد على بريدك الصوتي رسالة من الدكتور مصطفى الفقي يقول لك فيها بصوت يبدو واثقًا؛ لأنه يضغط على كل مخارج الحروف ويتحدث بهدوء شديد كما لو كان ضيفًا في ندوة سيدات روتاري: «صباح الخير يا أستاذ.. بنستمتع والله بكل مقالاتك الاصطباحية اللي بتكتبها ومتابعينك من ساعة ما رجعت.. أنا كنت عايز أشكرك على الكلمات الرقيقة اللي انت كتبتها عني.. حبيت أقولك الكلام ده قبل ما أدخل النفق».

لن تأخذ وقتًا طويلًا في التفكير وستقول لي: «طبعًا لا بد أن تهاتفه فورًا لتشكره على سعة صدره وكظمه الغيظ، ولأنه لم يترك لك رسالة غاضبة أو يرفع عليك دعوى قضائية كما يفعل غيره من الليبراليين والتنويريين». دعني أقل لك إنني لن أتمكن من ذلك للأسف؛ لأن الدكتور مصطفى اتصل بي من رقم من ذلك الذي يسمونه «برايفت نمبر» أو رقم خاص، كنت أظن جاهلًا فيما مضى أن «البرايفت» رقم لا يحصل عليه إلا الشخصيات الخطيرة جدًّا، حتى كلمني مرة من رقم «برايفت» صديقي الفنان محمد هنيدي، فأدركت أنه رقم يحصل عليه الذين لا يحبون أن يعرف أحد رقمهم، لا أقصد والله أن هنيدي لا يستاهل «البرايفت نمبر»، على الأقل هو يسعد المصريين والشخصيات الخطيرة تنكد عليهم، أنا بس أحبيت أن أوضح لك الصورة فجئت لأعُكَّها كالعادة، مبسوط كده!

بالمناسبة عندما استيقظت ووجدت على قائمة الـ«ميسد كولز» أو المكالمات الفائتة مكالمة «برايفت نمبر»، ظننت جهلًا مني أو لنقل عشمًا، أن ثمة مكالمة جاءتني من الرئيس مبارك الذي أعلم أنه لا يقرأ إلا الصحف القومية، كما قال في أحد حواراته، لكنني افترضت أن أحدًا ابن حلال نقل إليه رغبتي في معرفة رقم موبايل سيادته، طبعًا لو كان ذلك قد حدث لما كنت قد قلت له حرفًا من الذي كتبته بخصوص أن تسمية جائزة تمنحها الدولة باسمه أمر لا يليق بدولة ترتجي التقدم، لست جليانًا لكي أفعل ذلك، فقط كنت سأسأله متى سيستجيب لمطالب الدكتور البرادعي بعمل إصلاحات سياسية ودستورية حقيقية؛ لأننا نتعشم والعشم في الله كبير، أن يدخل سيادته التاريخ كأول رئيس مصري سابق على قيد الحياة.

أعلم أنني أقل من أن يتصل بي الرئيس مبارك، ربما لأني لم أُنقَل بعد إلى المستشفى في حالة حرجة كعادة الذين يتصل بهم الرئيس في لفتات أبوية حانية، أو ربما لأن الرئيس لا يشاهد برنامج «عصير الكتب» كما يشاهد على قناة دريم برنامج الحقيقة لصديقنا وائل الإبراشي، أو برنامج نأسف للإزعاج للأستاذة منى الحسيني، وقد نال الاثنان شرف اتصال الرئيس بهما، على أي حال لا أحلم بمكالمة الرئيس لسبب خاص، فهي مستورة والحمد لله، كنت فقط أريد أن أتأكد أن مطالب الدكتور البرادعي وصلته ولم يتم إخفاؤها عنه؛ لأنني متأكد أنها لو وصلته لكان استجاب لها فورًا، للأمانة صار عندي الآن مطلب شخصي هو ألا يتم غلق البرنامج بعد هذه المقالة، على الأقل حتى أنتهي من الكلام عن الكتب التي أحبها. بالمناسبة وقبل أن أنهي هذه النقطة التي لا تريد أن تنتهي، لا زلت أفكر دائمًا في موقف المُخبر الذي يراقب تليفون شخصية عامة معارضة مثل وائل الإبراشي، كيف يكون شعوره عندما يسمع صوت الرئيس مبارك على الخط؟ وهل يتم رفع الرقابة مؤقتًا إلى أن يقفل الرئيس؟ تسألني: «من قال إن هناك رقابة أصلًا؟»، الحقيقة وزير الداخلية هو الذي قال: «اللي خايف ما يتكلمش»، ولذلك لن أتكلم أكثر من كده وسأقفل.

يووه، قبل أن أقفل، نسيت أقول للدكتور مصطفى الفقي شاكرًا: برجاء الاتصال في وقت آخر، لكي أشرح لك أن ما كتبته لم يكن يُمثِّل موقفًا شخصيًّا من حضرتك، والدليل أنني سأقول لك قائمة طويلة بأسماء مجموعة من كبار علماء العلوم الاجتماعية الذين لا زالوا على قيد الحياة والإنتاج، والذين أعتقد أنهم كانوا أحق بالحصول على الجائزة

التي يسمونها باسم الرئيس مبارك مع أن «الربعميت» ألف جنيه التي تشكل الجائزة قيمتها يدفعها الشعب المصري، الذي لا يذكرون اسمه إلا في جملة «باسم الشعب» التي يعقبها دائمًا قرارات لتطليع عين الشعب.

أنا آسف لو الخط قطع. سأتصل بك غدًا في نفس الموعد ونفس المكان، إلا إذا كان هناك إعلان ونقلوني إلى صفحة داخلية.

١٣ يوليو ٢٠١٠

الخط والدائرة

«وجدتها وجدتها.. هو ده بالضبط تلخيص مشكلتنا في مصر.. لأ يا ربي ده تلخيص لمشكلة الإنسان في الحياة نفسها». هكذا هتفت مع أنني لم أكن أستحم في البانيو وأتأمل في الملكوت كما كان يفعل المرحوم «أرشميدس»، بل كنت أقرأ رواية رائعة اسمها «قصر القمل» للكاتبة التركية «إليف شفق».

إذا كنت قد سافرت إلى تركيا أو قرأت كثيرًا في الأدب التركي فلن تستغرب كيف يمكن أن يجد الإنسان تلخيصًا لمشاكل مصر في رواية تركية. وإذا كنت قد قرأت على سبيل المثال لا الحصر «ثلاثية» عمنا نجيب محفوظ أو رواية «جسر على نهر درينا» لعمنا «إيفو أندريتش» أو جميع أعمال عم الكل «تشيكوف» فلن تستغرب كيف يمكن أن يجد الإنسان تلخيصًا لمشكلته، بل وحلًا لها في رواية، وليس في كتاب علم نفس أو علم اجتماع، فقد قدم هؤلاء العظماء وكثيرون غيرهم أرفع نموذج للأدب الروائي عندما يتجاوز وظيفة الإمتاع والتسلية، أقول يتجاوزها ولم أقل يفقدها، لكي تصبح الرواية رحلة يبحر فيها الإنسان في نفسه وواقعه وأحوال الدنيا والبشر من حوله، كأنه عالم يمسك في يده نظارة معظمة أو ينظر من خلال ميكروسكوب أو تلسكوب ليكتشف تفاصيل مبهرة لم يكن سيدركها بعينه المجردة.

رواية «إليف شفق» التي ترجمها السوري القدير عبد القادر عبد اللي، ليست عن مصر طبعًا، وإن كان ذِكر القاهرة يرد في مقطع منها بوصفها المدينة الأكثر صخبًا والتي لا يسمع أهلها صخبها الهادر، هي رواية عن تركيا المعاصرة، ولكنها كشأن الكثير من الروايات العظيمة تضعك وجهًا لوجه أمام الخديعة التي انطلت علينا، أو بلعناها بمزاجنا لأن تصديقها «أريح»، خديعة أن مشاكلنا في مصر مستحيلة الحل وغير موجودة في

أي مكان في العالم وكتالوج الحل موجود فقط عند الذين يستبدون بنا وينهبون بلادنا ويورثونها لأبنائهم والأولى بالمعروف من أقاربهم، بينما لو قرأنا أي عمل أدبي عظيم سنجد أننا لسنا بدعًا بين البشر، وأن كتالوج الحل في أيدينا نحن، ويمكن أن نمتلكه كما امتلكه باقي خلق الله الذين أدركوا أن خلاصهم في الديمقراطية الحقيقية، التي برغم كل عيوبها إلا أنها تظل أفضل نظام بشري صالح لحل مشاكل الإنسان؛ لأنه يضمن إلى أبعد الحدود الممكنة بشريًّا قيمًا إنسانية مهمة مثل تداول السلطة وحرية التعبير والتفكير والبحث العلمي وتكافؤ الفرص، على شريطة أن يتذكر الإنسان أنه لن يجد حلًّا لمشاكله يمكن أن يسقط عليه من السماء، بل لا بد من أن يدفع ثمن هذا الحل ويسعى لتحقيقه بكل ما أوتي من قوة وجهد، وربما كانت أول خطوة يقوم بها هي أن يتذكر دائمًا أنه يجب أن يكون خطًّا مستقيمًا، وليس دائرة.

هذا بالضبط ما تقوله «إليف شفق» على لسان أحد أبطال روايتها الذي كان يناقش مع زملائه فكرة الحظ وعلاقته بشعور الإنسان أن حياته عادلة أو أنها ظلمته ولم تعطه ما يستحق، كانوا مؤمنين إلى حد أغاظه بفكرة الحظ التي قال «ميكيافيللي» إنها تدير نصف الحياة وليس ثمة ما نستطيع فعله إزاء ذلك، فرد عليهم قائلًا: «لم أفهم لماذا عَلِقتُم إلى هذا الحد عند الحظ؟ القضية ليست قضية حظ وما حظ، بل هي الفرق بين الدائرة والخط المستقيم، إذا اعتقدت بأنك تسير على خط مستقيم، فستعتقد بأنك تترك وراءك أمورًا ما، وأنك ستصل إلى مكان ما، ولكنك إذا فهمت الحياة بحسب الدائرة، فلا يمكن أن يكون هنالك ما يُدعى تقدمًا، هل أنت متصالح مع التكرار، أم لا؟ هذه هي القضية، رجل مثل «ميكيافيللي» لا يمكن أن يكون متصالحًا مع التكرار، ماذا يعني هضم التكرار؟ هل يعني أنك ستعيش الحياة التي تعيشها الآن مرة أخرى، ولن يكون الغد مختلفًا عن اليوم إلى هذا الحد، إننا نصل إلى السؤال الذي طرحه «نيتشه» حول «روسو»، إذا نزل إبليس صغير جدًّا من جهنم في الساعة الأكثر وحدة من عمر الوحدة، ووقف أمامك وقال: لا تخف يا أخي، أنا أضمن لك عدم وجود ما يدعى الموت، لا يوجد سوى التكرار فقط، وستعيش من جديد كل ما عشته حتى الآن، كما عشته بالضبط، مرة أخرى بعد ذلك، وبعدها مرة أخرى، وسيستمر هذا إلى الأبد، فماذا ستشعر حينئذ؟ كم منا من يستطيعون تحمل عيش الحياة مرارًا وتكرارًا؟ لا يمكن حتى للذين يؤمنون بدلال الحظ أن يعيشوا الحظات جنون كهذه، إن رجلًا مثل «ميكيافيللي»

سيقطع الدائرة من مكان ما، ويحولها إلى خط مستقيم من أجل تمكنه من تحمل الحياة، بعد ذلك تتولد فكرة التقدم، والفردية أيضًا».

أي والله يا ست «إليف»، لذلك نحن نسأل أنفسنا كثيرًا: ليه إحنا بس دونًا عن بلاد الله المتقدمة ما نعيده نزيده؟! مشاكلنا في أوائل القرن العشرين هي نفس مشاكلنا في أوائل القرن الحادي والعشرين، كل يوم ستجد من يستشهد لك بفقرة تصف أحوالنا فتنبهر من عمق الوصف وهو يدخر لك مفاجأة أن هذه الفقرة كتبت منذ مائة سنة في صحيفة كذا، فتُحبط وتظن أن بنا عيبًا خلقيًّا اختصنا به الله، وتنسى أن المشكلة فينا نحن، نحن الذين قررنا أن نعيش حياتنا كدائرة، وليس كخط مستقيم، لا أحد فينا يفكر كل يوم فيما سيتركه خلفه، ولا إلى أين ينبغي أن يصل، هو يسير وخلاص كأنه يؤدي دورًا في مسرحية عبثية لا يريد حتى أن يعلم كيف ستنتهي، لو لم نكن كذلك لما قبلنا أن نترك مصيرنا لأناس بهذا القدر من الرداءة؛ رداءة الفكر والطموح والسلوك، أناس ليس لديهم أي خيال، لأنهم مثلنا بالضبط يعيشون كأنهم دوائر، ولم يخطر على بالهم قطّ أن يكونوا خطوطًا مستقيمة، فانحرفوا وانحرفت بهم بلادنا وستظل تواصل الانحراف إذا لم نتعدل نحن أولًا، ونتوقف عن عار الفرجة والاكتفاء بالصراخ الذي لن يخرجنا أبدًا من هذه الدائرة الجهنمية التي آن أوان أن نكسرها، الآن وليس غدًا.

١٤ يوليو ٢٠١٠

محاكمة الضحايا

قبل أن تدخل إلى المقال، هل تسمح لي أن أرجوك بأن تترك أفكارك المسبقة خارجه حتى لو أحببت أن تحتفظ بالحذاء؟ ثم دعني أسألك وأسأل نفسي معك: نحن الآن نركب معًا سيارة بيجو منبعة راكب يقودها سائق أرعن إما أنه «مونون حبتين»، وإما أنه غير كفء على الإطلاق، وإما أنه، وهذا الأغلب، يجمع بين الونونة وانعدام الكفاءة، والركاب هربوا من الرعب الذي خلقته قيادته الرديئة في نفوسهم ولكن كل بطريقته: هذا أخرج مصحفًا من جيبه وبدأ يقرأ بتركيز، وتلك أخرجت الموبايل وبدأت تلعب فيه، وتلك احتضنت طفلها وسلمت أمرها لله، وهذا راح في نوم عميق، وذلك انشغل بالنظر من الشباك وهو يسمل ويحوقل، أنا وأنت نجلس مزنوقين في الكرسي الخلفي الحقير، في البدء تبادلنا النظرات الغاضبة وبدا أننا مستاءون جدًّا من تلك القيادة الرديئة ونفكر في الاعتراض عليها، لكن السائق جاءه اتصال من زميل يحذره من الرادار أو من كمين يعرف الجميع مكانه على الطريق، فدوَّى صوته المزعج في فضاء العربية منطلقًا بالشتائم واللعنات وقلة الأدب، عدنا ثانية لتبادل النظرات القلقة هذه المرة، وقرأ كل منا أفكار الآخر: «ده باين عليه راجل قليل الأدب وشرَّاني وبما إنه ضارب حاجة.. فأكيد مش هنسلم من لسانه.. مش طالبة الواحد يتهزأ ويسمع له كلمتين.. أنا عارف هيقول إيه.. هو أنا باسوق كده عشان أمي؟.. مش عايزين توصلوا وتلحقوا أشغالكو؟.. وساعتها مفيش حد من الركاب هيفتح بُقه ويوقف معانا.. وساعتها مش بعيد يعمل علينا دكر وينزلنا في الطريق.. حصلت مع واحد صاحبي قبل كده.. نعمل إيه طيب.. نخليها على الله وربنا يسترها».

السؤال بقه: بِعد الشر لو عملت العربية بنا حادثة من تلك الحوادث المريعة التي تقع كل ساعة في طرق مصر، ألسنا نتحمل جزءًا من المسئولية عما حدث؟ لو كنا بكل ما فينا

من قوة تكاتفنا ورفضنا تلك القيادة الرديئة وأجبرنا السائق على أن يلم نفسه ممارسين حقوق دافعي الأجرة في قيادة آمنة، إلى أي حد كنا سنقلل من فرص «أن تعمل بنا العربية حادثة»؟ آه، هل أخذت بالك أساسًا من التعبير الذي نقوله كمصريين في حالات كهذه «العربية عملت بيهم حادثة»، كعادتنا نلقي المسئولية على جماد العربية، لا على قادتها المتهورين أو عديمي الكفاءة، أو على ركابها الذين سابوا له الحبل على الغارب، أو حتى على أجهزة العربية التي أغفلنا صيانتها، أو على الطرق الرديئة الخالية من الإضاءة والمليئة بمفاجآت لا ينجيك منها إلا الله، أما نحن فلسنا مقصرين ولا مهملين ولا مسئولين عما «يتعمل بينا» من فساد وظلم ونهب وتجهيل وإفقار. لأ، العربية هي التي عملت بينا الحادثة.

إذا كانت سيرة حوادث العربيات المقبضة قد أغمّتك على الصبح، فدعني أنتقل بك إلى سيرة أكثر غمًّا، وتخيل معي أننا نعمل معًا في هيئة أو شركة أو مصلحة، ونركب معًا في أتوبيس الشركة كل يوم، عندما يقف أحد الموظفين الكبار من زملائنا ليتحدث مع السائق ببذاءة وغلظة، ويمارس عليه الفرعنة التي بتنا نمارسها جميعًا على بعضنا، من أول بائع السندوتشات في مطعم الفول الذي يكاد يفتك بك بنظراته وهو يأخذ منك بون السندوتشات، وحتى بائع الوطن الذي يستغرب لأنك لا زلت قادرًا على أن تقول: «أي بيوجع»، للأسف لن يقف أحدنا ليقول: «عيب ما يصحش كده.. إزاي تكلمه بالطريقة دي»، لن نناصر السائق ضد الموظف الكبير الذي يمكن أن يحطنا في دماغه، سنجلس لنستمع إلى السخريات القاسية التي تنهال على السائق، وسننظر إلى زملائنا في الأتوبيس؛ هذا يقرأ في المصحف، وذلك يلعب في الموبايل، وذلك ينظر من الشباك، وتلك راحت في النوم، وسنكتفي أنا وأنت كعادتنا بتبادل نظرات الاستياء، ويقرأ كل منا أفكار الآخر: «وأنا إيه اللي يدخلني يا عم ما بين الناس دي.. هاخد لي أنا كمان كلمتين.. خليني ساكت.. يصطفوا مع بعض.. المهم نوصل في معادنا قبل ما نتأخر على الساعة.. عايزين نلحق الغدا من غير مشاكل.. وبعدين هو السوّاق لو كان عنده كرامة ما كانش يسيبه يكلمه كده.. حاجة تقرف.. نعمل إيه طيب.. نخليها على الله وربنا يسترها»، ثم نفيق جميعًا على الواقعة وهي تقع على رءوسنا جميعًا.

سأقولها معك: «اللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير»، لكنني سأذكرك بالحقيقة المُرّة: للأسف أنا وأنت كشأن كل المصريين نتكلم في الدين طول الوقت، نحب كثيرًا الأحاديث التي تتكلم عن الحجاب والأذكار وموجبات الكفر وتحريم الغناء وعذاب القبر، لكننا

لا نفضل الآيات والأحاديث التي تتحدث مثلًا عن إعمال العقل وطلب العلم وفضيلة الحرية، أو عن الناس الذين إذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده، ولذلك نحن نصمت دائمًا على كل ما يحدث في عربية الوطن التي نركبها من أخطاء، سواء كانت من السائق أو من الركاب الأعلى صوتًا، كل ذلك على أمل أن نصل في موعدنا، قائلين: «هنعمل إيه طيب.. نخليها على الله وربنا يسترها.. المهم نوصل»، وللأسف في النهاية لا نصل أبدًا!

١٧ يوليو ٢٠١٠

في حدود الظُرف

«شفتو أهوه.. آدي الرئيس الفرنساوي «نيكولا ساركوزي» ذات نفسه طِلِع متهم بالفساد.. عشان تحمدوا ربنا وتعرفوا إن مصر بخير.. والفساد فيها لسه في الحدود الآمنة المسموح بيها دوليًّا». كلمات أكاد والله ألمحها على أفواه كتبة الصحف الحكومية. يتمنون لو استطاعوا أن يكتبوها لكي يرضى عنهم الذي منحهم مناصب لا يستحقونها، لكن تمنعهم عنها غلاوة السيد «ساركوزي» لدى سادة بلادنا الذين لا بد أنهم أيضًا مستاءون من حرمانهم بسبب مراعاة «الصداقة والعيش الباجيت والملح» من غناء موشح «فساد دولي كار» الذي أصبحنا جميعًا نحفظه صَمّ: «الفساد موجود في كل حتة.. الفساد ظاهرة عالمية.. ومع ذلك فمصر لن تتستر على الفاسدين.. ستعريهم حسب الظروف وستضحي ببعضهم في حالة وجود حاجة ماسة لذلك.. أما الباقون الذين يعرفون قواعد اللعبة جيدًا فلندع ربنا يسترها عليهم في الدنيا ويحاسبهم في الآخرة بمعرفته».

بني وطني: قرأت نص الاتهامات التي وجهتها لـ«ساركوزي» وليّة كانت تعمل محاسبة لإحدى كبار سيدات الأعمال في فرنسا، فداهمتني مشاعر الشفقة والصعبانية تجاه المسيو «ساركوزي» لدرجة أنني لو رأيته بعدها لضممته إلى أضلاعي ضمة أم حنون، ولأخذت أرقيه وأبخّره وأغني له حتى ينام هادئ البال قرير النفس، لكنني بعدها وعندما قرأت تفاصيل الضجة المثارة في فرنسا حول تلك الاتهامات، تبدلت مشاعري الحنونة إلى غضب عارم تجاه أولئك البلهاء في فرنسا الذين يظنون أن هذا العبث الذي تحدثت عنه المحاسِبة يمكن أن يُدعى فسادًا! قال إيه، كان «ساركوزي» يذهب إلى قصر سيدة الأعمال في أجل معلوم لكي يأخذ ظرفًا مليئًا بالفرنكات يساعده في حملاته السياسية! تقولها المحاسِبة الحاقدة وهي تظن أنها أحرزت هدفًا محققًا في مرمى «ساركوزي»،

وبدلًا من أن يسلط فخامته عليها زمرة من أشاوس أمن الدولة لكي يعلموها كيف تخاطب أسيادها، أو يأمر أجهزته لكي تلفق لها قضية زنا محارم، أو يصدر قرارًا بتأميم صحيفة «اللوموند» ويعين رئيس تحرير لها لكي يكشف في سلسلة مقالات عن عداء هذه السيئة للمسيحية وصلاتها المشبوهة بتنظيم القاعدة ونسائه المبرقعات، بدلًا من كل هذا يجلس لكي يرد على اتهاماتها في حوار تلفزيوني، مكتفيًا بنفي الاتهامات والتعبير عن إحباطه؛ لأن هناك من لا يقدر ما يفعله من أجل فرنسا، بل ويطلب من أحد وزرائه الذين طالتهم هذه الاتهامات أن يستقيل من منصبه الحزبي.

ظَرف؟ أي ظَرفٍ ذاك الذي تتحدثون عنه يا معشر الفرنسيين؟ طيب يا رب نعيش حتى نرى في بلادنا اليوم الذي يقتنع فيه الفاسدون بأن يتقاضوا أموالًا في حدود مساحة وحجم «الأظرف»، وليس في حدود الظروف التي لا يعلمها إلا الله وبعض من عبيده العاملين في بنوك سويسرا وجزر الكايمان وجزر البهاماز. يا أبناء الفرنجة، احمدوا الله، وقبّلوا وجوه أياديكم وظهورها لأن الله رزقكم بساسة بررة لديهم من التواضع ما يجعلهم يذهبون بأنفسهم لأخذ الأظرف من بيوت مانحيها، ولديهم من القناعة ما يجعلهم يكتفون بقدر معلوم من الفساد يتوافق مع حيز الظرف الذي مهما كبر حجمه وبلغت سعته، فلن تدركوا صغره وتفاهته إلا إذا ابتليتم بمسئولين يقول لهم المانح رغم أنفه وقد كاد يخرُّ تحت أقدامهم تذللًا وتزلفًا: «حضرتك تؤمر بإيه يا فندم عشان سيادتك ما يرضيكش إن مصالحنا تتعطل أكتر من كده»، فيقولون له وهم يداعبون حبات مسابحهم وتضيء وجوههم بابتسامة العارفين: «إللي تشوفه.. إنت وذوقك.. شوف انت العملية دي هتكسبك قد إيه واحسبها انت.. راعي إني مش هاخد المبلغ ده لوحدي.. أنا لو عليَّ أعملها لك ببلاش.. طيب نخليها خمسين في المية من الأرباح إن شاء الله».

يا أيها الفرنسيس، احمدو الله أن لديكم قدرًا معلومًا من الفساد، وأن لديكم قانونًا لا يمنع التفتيش في ثروات الرؤساء وأبنائهم وأقاربهم، وأن عندكم نظامًا يجعل آخر الرئيس إذا تم التساؤل عن ذمته المالية إبداء الضيق والاستياء، لا إنزال البطش والعصف والقهر، وادعوا لنا ساعة هطول المطر تحت برج إيفل، لا أن يرزقنا الله حرية وقدرة على محاسبة مسئولينا كالتي لديكم، بل فقط أن يرزقنا الله ما لديكم من فساد معلوم القدر، وفاسدين من ذوي الأظرف لا من ذوي الشيكات ذات البياض التي لا يعلم إلا خالق البياض والسواد بكم من المبالغ تم تسويدها.

يا أبناء «ديجول» اعتذروا لرئيسكم المفدى «ساركوزي»، واعرفوا قيمته جيدًا، ماذا وإلا، سأضطر أن أقول لكم الجملة الوحيدة التي أحفظها بالفرنسية: «لاغوش ديلابوش ديلاموا»؛ وهي جملة حفظتها من زميلة لي أيام الجامعة، قالت لي إنها تستخدم على سبيل الهجاء المقبول، وأسأل الله ألا تكون جملة «أبيحة» يعاقب عليها القانون الفرنسي.

هذا ولا يملك المرء منا إلا أن يقول في نهاية المطاف: ميرسيه يا رب.

١٨ يوليو ٢٠١٠

أزهى عصور العك

القاعدة الفيزيائية تقول بأن «العك لا يتجزأ»، وحتى لو لم تكن هناك قاعدة فيزيائية تقول ذلك بالفعل، ستستنتجها بنفسك وأنت ترصد مظاهر انعدام الكفاءة والضعف المهني وغياب الاحتراف التي تسود كل جوانب حياتنا من أروقة الحكم إلى زخانيق المعارضة، ومن المؤسسات الخدمية إلى المنابر الصحفية والإعلامية، وكل ذلك مما لا يخفى على فطنتك، وحتى لو لم تكن فطنًا فأنت لن تحتاج الفطنة طالما أنت مغموس في ذلك العك إلى الأذقان.

القاعدة التاريخية تقول إن تغيير الحاكم العكاك لا يحدث إلا على أيدي نخبة معارضة تقود الناس الذين يصدقونها؛ لأنها خالية من العك أو حتى أقل عكًا، فلا يوجد إنسان معصوم من العك، ولذلك عندما يرى الناس أن النخب المعارضة ليست سوى نسخ أكثر عكًا من العكّ الرسمي، يفضل الناس اتباع غريزة البقاء التي خلقها الله داخلهم ويقررون الانكفاء على ذواتهم والاكتفاء بالبحث عن مخارج شخصية آمنة لهم ولأبنائهم ولذويهم من العك الضارب أطنابه في أرجاء الوطن.

ولأن العَكّ بالعَكّ يُذكر، لا تسلني لماذا لم ينجح هذا السيل المتدفق من الصحف والمجلات والبرامج التي تَغُصُّ بالكُتاب والمذيعين والمُعلِّقين والمناضلين الفضائيين ونمور الهواء في جعلنا أقل عَكًا، بل اسأل نفسك: لماذا صار عزيزًا ونادرًا أن نجد من بين هؤلاء، الذين صاروا أكثر من الهم على القلب، أحدًا يشغل نفسه بأن يقول للناس كلامًا خاليًا من العك أو حتى كلامًا به نسبة آمنة من العك، كلامًا متعوبًا عليه، كلامًا يفكر فيه ويتأمله قبل أن يقوله أو يكتبه، كلامًا لا يسمعه هو من الذين حوله قبل أن

يرتقي منبره الصحفي والإعلامي ليبُخّه ثانية في آذان الناس وعقولهم ظنًّا منه أنه بهذا يعبر عن الناس ويؤدي واجبه، وهو لا يدري أنه يزيد الطين بلة، ويساهم في تكريس حالة التشوش والتخبط التي جعلت المذهب الفكري الأكثر انتشارًا لدينا، مذهب: «ماحدش فاهم حاجة».

المشكلة أنه عندما يأتي كاتب موالس ليقول للناس إنهم يعيشون في أزهى عصور الحاجات، لا يصدقه الناس؛ لأنهم يعرفون جيدًا في أي عصر يعيشون، لكن عندما يأتي كاتب متساخط ليقول لهم إنهم سيروحون حتمًا ولزمًا في ستين داهية، وإن البلد خلاص ضاعت وذاهبة إلى الجحيم، يصدقونه فورًا؛ لأنهم لا يعرفون أنه يغلق في وجوههم أبواب الأمل بعد أن أمَّن مستقبل أولاده وربما أحفاده، يصدقونه للأسف لأن اليأس أرخص بكثير وأقل أرهاقًا من الأمل.

عندما يرى الناس فضائيًّا موالسًا يصقون عليه بعزم ما فيهم، خصوصًا وقد زاد الله هؤلاء بسطةً في الغتاتة والكلاحة تساعد على ألا تأخذك بهم رأفة ولا شفقة. لكن الناس يا عيني عندما يرون جنرالًا فضائيًّا يمتشق صهوة فرسه ويصول ويجول في تسويد عيشتهم وتسخيف كل المعاني في نظرهم، يصدقونه؛ لأنهم لا يعرفون مع من سيتعشى بعد أن يخرج من «هوائه»، ولا يعرفون شيئًا عن تربيطاته وأجنداته ولا عن خدر البطولة اللذيذ الذي يسري في دمائه بفضل تصديقهم له.

تقتضي الأمانة أن أُقِرَّ أمامك بأن هناك من يصدقون أنفسهم تمامًا عندما ينفثون اليأس في وجوه الناس؛ لأن أغلبهم ينتمي إلى جيل كان مُناه يا ولداه أن يرى مصر في حياته كما حلم بها، ولأنه يعلم أن ذلك صار أمرًا عصي المنال، فقد قرر أن يقاسمه الناس إحباطاته ويأسه، دون أن يفكر في خطورة ما يقوله على الذين لا زالوا يبدأون حياتهم، ولم يحصلوا على عشر معشار ما ناله حضرة اليائس في حياته، أو لعله للأمانة فكر في خطورة ما سيقوله، ثم قرر أنه ليس مطلوبًا منه سوى أن يبدي وجهة نظره كما يراها وخلاص، لأنه سيخدع الناس لو قال لهم إن هناك أملًا في البلاد وخيرًا يُرتجى من شعبها، وهي درجة من الصدق تذكرك للأسف بأولئك الصادقين الذين ضجوا من إحباطات الحياة ولم يحتملوا ضغوطها فقرروا أن يسرحوا في الشوارع بشعور منكوشة، وأسمال بالية، وأجساد خاصمت «الحموم»، ونفوس خاصمت الأمل، وعقول خاصمت المنطق، جاعلين

مهمتهم في الحياة لعن سنسفيل الناس وتبشيرهم بالويل والثبور وفظائع الأمور، لكن هؤلاء للأمانة أكثر صدقًا مع النفس من الذين يبشرون الناس بنيران الجحيم القادم التي ستُحرق كل شيء، بينما هم يتنقلون في أثناء تبشيرهم بالجحيم من تكييف العربية إلى تكييف المكتب إلى تكييف الاستديو.

١٩ يوليو ٢٠١٠

ثورة أطلقها جمال

حدث في مثل هذا الغد أن سقطت الملكية في مصر وقامت الجمهورية، فالحمد لله على كل حال.

هناك دول في العالم لم يصادفها الحظ في أن تكون جمهورية مثلنا، وظلت مؤمنة بالنظام الملكي الذي يستبد فيه فرد واحد وأسرته بمقدرات الشعب وثرواته، وإذا فهمت أنني بهذا الكلام أنبِّط على أحوالنا، فدعني أذكرك أننا في مصر لا يستبد بمقدراتنا وثرواتنا فرد واحد وأسرته، بل للأمانة يستبد بها عدد من الأفراد وأسرهم وأقاربهم والذين يتشددون لهم.

في مطلع هذا الشهر كنت في المملكة المتحدة التي ندعو لها الله من قلوبنا مخلصين أن تشهد قيام النظام الجمهوري؛ لكي نرى فيها يومًا أسود كيوم دنشواي. كانت الملكة «إليزابيث الثانية» قد غادرت البلاد والرعية وتوجهت إلى الأمم المتحدة لكي تلقي خطابًا سياسيًّا، ربما لكي تُذَكِّر نفسها بأمجاد الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس، مع أن الشمس قلما تشرق داخل قلب الإمبراطورية نفسه. أنت تعلم أنني قوي الملاحظة، ولذلك ستصدقني أنني لم أقرأ في أي صحيفة بريطانية عنوانًا يصف خطاب الملكة بالتاريخي، برغم أنه كان تاريخيًّا بالفعل؛ لأن الخطاب الذي سبق أن ألقته الملكة العجوز كان وهي في عز شبابها، لم أرَ في أي قناة تلفزيونية شحطًا بريطانيًّا صرف أهله دم قلبهم عليه لكي يجلس في نهاية المطاف ذليلًا خانعًا في استديو قطاع الأخبار البريطاني ليحلل المعاني المدفونة بين السطور في خطاب سيادة الملكة، وهو يعلم جيدًا أن هناك شحطًا كتب لها الخطاب، وشحطًا آخر شَكَّلَهُ، وشحطًا ثالثًا ساعدها على قراءته، بالعكس كان عنوان الخبر الذي نقل خطاب الملكة في نشرة الـ«بي بي سي» رائدة الرصانة الإعلامية: «قبعة جميلة يا جلالة الملكة».

وقبل أن تقول «إيه الجليطة دي يا أخي؟»، انتظر حتى ترى الجليطة التي على حق ربنا، في نفس يوم إلقاء الخطاب كانت الصحف البريطانية على اختلاف مشاربها مشغولة بالإعلان السنوي لنفقات العائلة المالكة التي يتحملها الشعب البريطاني، وكيف أنها أصبحت تكلف كل بريطاني ٦٢ بنسًا، وبرغم أن الرقم شهد انخفاضًا قدره ٧ بنسات عن العام السابق، فأصبحت الملكة تكلف دافعي الضرائب ٣٨,٢ مليون جنيه إسترليني بانخفاض قدره ٣,٣ مليون عن العام السابق، إلا أن الشعب لم يشكر ملكته المفداة ويبوس الأرض تحت قدميها لإحساسها بمعاناته التي سيجتازها مع خطة التقشف الاقتصادي الجديدة التي أقرتها حكومة تحالف المحافظين والديمقراطيين الأحرار، بل استمر في التبجح ومحاسبة الملكة على كل سحتوت تصرفه، وبرغم أن نفقات سفرها هي وزوجها خارج البلاد انخفضت، إلا أن الإعلام نشر تفاصيل نفقات أبناء الملكة إلى القرى الأكثر فقرًا والقواعد العسكرية لمساندة الجيش البريطاني معنويًّا، ولم يشفع للملكة أنها قللت من سفرها إلى الخارج؛ فقد صرخ بها الناس: «إزاي جلالتك تصرفي على القطار الملكي مليون باوند لغاية آخر مارس اللي فات بينما تم استخدامه ١٩ مرة فقط، يعني الرحلة تكلف ٥٠ ألف باوند واحنا طالع عين أبونا في الحياة». قالها الشعب بالعامية الإنجليزية طبعًا، ولم يقلها في عقل باله، بل جأرت بكلامه صحافته التي حاول بعضها أن يهدئه بإعلان أن الحكومة ستخفض نفقات قصور العائلة المالكة برقم قد يصل إلى ١٤,٥ مليون باوند، وأنه تم إلغاء خطط لإصلاح أسقف العديد من القصور وشبكات تدفئتها وتكييفها.

طيب، هل وقفت الملكة وقالت: «إنتو نسيتو فضلي عليكو يا دوجز، نسيتو إن كل اللي انتو عايشين فيه ده من خيري، أنا اللي علمتكم العزة والكرامة وعبرت بيكم المستحيل وحققت لكم الاستقرار، وإلا كان زمانكو زي العراق والصومال»، بالعكس تحلت جلالتها بصمت ملكي جليل، وطلبت من المسئول المالي عن العائلة الملكية أن يدلي بتصريح يقول فيه إن العائلة المالكة تدرك صعوبة المناخ الاقتصادي الآن.

ما الذي أريد قوله من وراء هذا الكلام الماسخ الذي يحرق الدم على الصُّبح؟ هل أريد أن أعيد مصر إلى الملكية، حيث لم تكن مخصصات الملك وعائلته سرية قطّ، بل كانت معلنة ومسجلة في الدفاتر وارجعوا إلى كتاب الباحث الفذ عبد الخالق فاروق «جذور الفساد الإداري في مصر» لتطالعوا الأرقام بأنفسكم، بما فيها أرقام المصروفات السرية؟

صدقني ما أريد أن أقوله أعمق وأهم. طيب.. هل يمكن أن أنسى أفضال الثورة على أولاد الفقراء من أمثالي؟ حاشا لله، أما عن أحوال الفقراء الآن فأنا أعلم أنها صارت كذلك بفعل سياسات الثورة المضادة التي لم يتم إعلانها رسميًا. طيب.. هل أريد أن أخدع الناس بأن أقول لهم إن مصر قبل الثورة كانت جنة الله في الأرض؟ أعوذ بالله، لديهم كتب التاريخ ليقرأوها ويعرفوا ما عاشته مصر من فساد وانهيار على كل المستويات، وسيعلمون أن كل الطرق قبل الثورة كانت تؤدي إليها سواء على أيدي الضباط الأحرار أو على أيدي أحرار ليسوا ضباطًا؟ طيب.. هل أريد أن أعرف نفقات الرئيس مبارك مثلًا، يتقطع لساني ولسانك لو نطقها، نحن شعب أصيل ولسنا كالإنجليز، لذلك لا نريد حتى أن نعرف كم تكلفت زيارات جمال مبارك إلى القرى الأكثر فقرًا التي أصبحنا نعلم الآن بفضل زملائنا في قسم التحقيقات كيف ازدادت فقرًا بعد زياراته لها.

«طيب.. عايز تقول إيه خلصنا؟!». كل ما أريد أن أقوله: لماذا إذن لا نكون واقعيين وصادقين مع أنفسنا، ونتوقف عن تسمية مصر «جمهورية»، ونعلنها جماهيرية.

مع خالص التحية لثورة ٢٣ يوليو التي أطلقها جمال، ونتمنى ألا يقضي عليها جمال!

٢٢ يوليو ٢٠١٠

خرافة الانفجار

إذا كنت تظن أن خلاصنا الآن بات على يدي عزرائيل وحده فأنت واهم.

لا تسألني تفسيرًا لهذه الجملة من فضلك؛ لأنني بصراحة تعودت أن أذهب إلى النيابات والمحاكم في الشتاء، لأن الذهاب إليها في الصيف يجعل موقفي أسوأ في أي تحقيق عادل بفعل كميات العرق غير المنطقية التي تتصبب مني، ولذلك سأعتمد على ذكائك في قراءة ما بين السطور، محتفظًا لك بحقك في تفسير كامل مع دخول الخريف، يحيينا ويحييك.

والحق ما شهدت به الأعداء يا صديقي، لذلك عندما تجد أن صحيفة «يديعوت أحرونوت» الإسرائيلية تقول ما نصه:

«سيناريو اليوم التالي لمبارك بات جاهزًا بتفاصيل التفاصيل، وكل واحد ممن يؤدي المناصب العليا والحساسة يعرف دوره ومهمته في ذلك اليوم».

عندها عليك أن تضيف إلى حزنك القائم أحزانًا جديدة؛ لأن عدونا بات يعرف واقع بلادنا أكثر من كثيرين من أبناء جلدتنا التي كلما أذابها الحزب الوطني بَدَّل الله لنا جلدة أخرى لكي نذوق العذاب الذي نستحقه لرضانا بحكام كهؤلاء.

أتحدث عن أولئك الذين يشيعون في أحاديثهم وكتاباتهم خرافات عن الانفجار القادم، والحريق الذي ينتظر البلاد، والانهيار الذي سيعقب الرحيل، وهو كلام يقوله كلٌّ لأسبابه التي لا يتسع المقام ولا الخُلق لذكرها جميعًا، يكفي فقط أن أشير إلى أن البعض يفعل ذلك بحسن نية لكي يرضي مشاعره العدوانية التي ضاقت بكل هذا الركود والجمود، أصبح راغبًا في أي انفجار والسلام، دون حتى التفكير في أن ذلك الانفجار المتخيل لن

يستثني أحدًا من دماره، أما البعض الأكثر نسبة ووضاعة فهو يردد تلك الأقاويل بحرفنة أحيانًا وبغباوة أحيانًا أخرى، فقط لكي يشيع مشاعر الخوف المبررة لدى أكبر عدد ممكن من الناس الراغبين في حياة كريمة وآمنة، أو حياة آمنة حتى لو لم تكن كريمة، لتتعلق قلوبهم بأي بديل يطرحه النظام القائم، فيصبحون على استعداد للذهاب إلى الانتخابات المزورة القادمة لمنحه أصواتهم، أو البقاء في البيوت للتواطؤ على جريمة وصوله إلى الكرسي بالتزوير، كل ذلك لأنهم خائفون من الانفجار القادم الذي يضبطون أنفسهم كثيرًا وهم يفكرون فيه، بل وأحيانًا يحلمون به.

هل هي جريمة أن يحلم الإنسان بانفجار يهِدّ الأوضاع الفاسدة، أو بحريق يمحو هذه الشبكات الأخطبوطية من الفساد والظلم؟ طبعًا من حق الإنسان أن يحلم بذلك، خصوصًا إذا سُدَّت في وجهه منافذ الإصلاح وطرق التغيير السلمي، لكن المشكلة أنه في مصر لا تحدث انفجارات جذرية، ولا انهيارات مدوية، ولا حرائق تطهيرية، كالتي تخيلها عمنا أسامة أنور عكاشة في ملحمته الخالدة «عصفور النار»، ليس لأن مصر بلد ميئوس من انصلاح حالها، بل لأن سُنَّة الله في الكون اقتضت أن معنى التغيير اللذيذ المنعش لا يمكنه أن ينتقل إلى أرض الواقع ويصبح حقيقة ملموسة إلا إذا ارتبط بمصالح فئة أو طبقة أو جماعة بشرية تعمل على إخراجه من أحلام الناس إلى واقعهم، ولو أمعنت النظر في واقع مصر الآن لوجدت أن كل الطبقات القادرة أو الفئات الفاعلة التي يمكن أن تعمل على ذلك ليس لديها أي مصلحة في التغيير على الإطلاق، بل بالعكس فقد تم ربط مصالحها الضيقة والواسعة معًا بهذا النظام، النظام الذي يتجاوز فكرة اسم أيًا كان قدره، نظام حكم الفرد الذي يستمد شرعيته الدولية اللازمة لجلب المعونات والقروض والمنح من دساتير ملعوب في أساسها التشريعي والأخلاقي، وانتخابات صورية مطبوخة سلفًا، وحرية صحافة تخضع لريموتات كنترول الشد والجذب والملاحقات القضائية، و«سفاح» (بكسر السين) لم يعد أحد من الذين يمارسونه من الساسة ورجال المال خجِلًا منه أو راغبًا في الإقلاع عنه. وفي ظل نظام كهذا لو صعد إلى كرسي الحكم شخص يتعلم فينا من جديد دون أن تكون لديه حتى الخبرة السياسية أو الأصول الشعبية التي تجعله يضرب ويلاقي، ويُلَبِّس الطواقي، ويكبر دماغه مع كلام يعلم أنه لن يزيحه عن كرسيه، ويُمَرهِم الخوازيق، ويستعين

دائمًا بفراودة في تشبيك الظلم وتطبيخ حواوشي الفساد، فسيأتي علينا زمان نترحم على سابقه كما ترحمنا على الذين سبقوا سابقيه.

وقبل أن أسمعك تقولها: «روح يا شيخ اتقفل في وشك باب الرحمة زي ما قفلته في وجوهنا». دعني أقل لك إن هذا الوضع الذي يبدو لك موجبًا لليأس والموات، هو نفسه الذي يبدو عندي موجبًا للأمل والمقاومة، وهو ما أُحدِّثك عنه غدًا بإذن الله، فقط إذا لم يخلصك عزرائيل من شري.

٢٥ يوليو ٢٠١٠

هل إلى خروج من سبيل؟

في ظل أوضاع مأساوية كالتي حدثتك عنها بالأمس، مع أنك تعلمها وغارز فيها حتى والدة رأسك، صدقني ليس الأمل وهمًا على الإطلاق؛ الأمل هو السبيل الوحيد، ولكن أي أمل؟ فقط الأمل المبني على المقاومة، على إحساس الإنسان أنه لم يعد لديه ما يخسره، على إدراكه أنه يجب ألا ينتظر الآخرين وأن يبدأ بنفسه، على يقينه بأنه سيدفع ثمن صمته وخنوعه واستسلامه وسكوته على ضياع حقه، سيدفع الثمن على أيدي مخبر باطش، أو زميل عمل فقد صبره، أو شريك حياة مهزوم، أو حتى صحة انهارت بعد أن فقدت قدرتها على مقاومة فساد كل ما تأكله وتشربه وتشمه، والأهم من كل ذلك الأمل المبني على ذكاء الإنسان وإدراكه لواقعه وعمله على مساحات كثيرة يتيحها الدستور والقانون ويتركها الناس فارغة فقط بسبب خوفهم وعجزهم وانتظارهم أن يحدث التغيير العظيم الذي لا يحدث أبدًا لأن الجميع يكتفي بانتظاره.

قبل أن تسألني كعادتك عن الحل، اسأل نفسك أولًا عن المشكلة، ما هي مشكلتنا الحقيقية؟ لو قلت لي إن مشكلتنا في هذا الشخص أو ذاك فأنت واهم، حتى لو كانت كل مشاكلنا ومصائبنا تتجسد في أولئك الأشخاص لدرجة تجعلنا نتوهم أنها ستزول بزوالهم، فعلناها قبل ذلك كثيرًا، ثم أخذنا جميعًا نردد: «رب حاكم كنت فيه فلما صرت في غيره بكيت عليه». مشكلتنا باختصار أن مصر لم تعد للمصريين جميعًا؛ صارت فقط للقادرين والواصلين والمتنفذين والمسنودين والواصلين إلى طرق القادرين والواصلين والمتنفذين والمسنودين، هل لديك سلطة؟ هل لديك مال يوصلك إلى عديمي الضمائر في السلطة؟ هل لديك ما يجعلك تصبح في خدمة وحماية من لديهم سلطة أو لديهم مال؟ إذن أنت في نعيم مقيم، أما إذا لم تكن كذلك فأنت إذن تعاني ما يعانيه الغالبية الساحقة من المصريين

من إهدار لحقوقهم وامتهان لكرامتهم في المستشفيات والمدارس الحكومية وأقسام الشرطة والوظائف الرفيعة التي لم يعد أبناؤهم يحلمون بنيلها؛ لأنها صارت محجوزة سلفًا لذوي الوجاهة واللياقة الاجتماعية، الذين كنا نناديهم زمان قبل الثورة بأصحاب الأعيان والأطيان، وها نحن بعد كل هذه الأعوام من الثورة نراهم وقد نالوا حصانات وامتيازات لم يكونوا يحلمون بها، أهمها أنهم صاروا منزهين من المساءلة ومعصومين من المحاسبة، وبحكم القانون الذي قد يسأل أحيانًا من أين لك هذا، لكنه لن يسأل أبدًا، ولماذا لم يحصل ابن الفقير على هذا المنصب وحصل عليه ابن البيه؟

هذه هي المشكلة، وتغييرها لن يأتي على أيدي المُنَظِّرين وإن حسنت نواياهم، سيأتي على أيدي المتضررين وحدهم، هؤلاء الذين أغلقت في وجوههم أبواب الأمل يجب أن يفتحوها لأنفسهم، يجب أن ينسوا تلك الخرافات والخزعبلات التي توارثوها جيلًا بعد جيل بأن مصر ستظل دائمًا محروسة بالأولياء الذين سيوصلون إلى كراسي الحكم مستبدين ينشرون العدل بين الناس، وأنهم لن يدفعوا ثمن صمتهم وخنوعهم، وأن حقوقهم جاية لهم لحد عندهم، وأن يدركوا أنه حتى لو كان الله عز وَجل قد أكرم مصر بذكرها في القرآن دونًا عن غيرها من الدول فإن ذلك لن يعني أنه سيغير سُنَنَهُ من أجلها، وسيظل دائمًا لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وسيظل ينتظر من العبد أن يسعى لكي يسعى معه، وستظل أبواب خيراته مفتوحة فقط للذين يتفكرون ويتدبرون ويعقلون ويؤمنون الإيمان الذي يدفعهم للعمل والتغيير، وليس للتنبلة والتكفير والتخلف والطرمخة.

كل الأشياء في مصر اليوم تعمل في خدمة أرباب النفوذ، أنا نفسي، هل أبدو لك شجاعًا لأنني مسنود على نجاحي، متهيألك، يمكن ببساطة أن تجدني مسحولًا في أي لحظة تحت أقدام من لم يتعلم ربع ما تعلمته، ولم يجتهد مثل ما اجتهدت، ولم يعمل كما عملت، بقائي ناجحًا ومتحققًا يعتمد فقط على ظروفي وليس على حقوقي، وأنت مثلي مهما كانت درجتك العلمية أو نجاحك المهني أو ما حققته من كسب مادي، إذا لم يكن لديك نفوذ فلا حصانة لكرامتك ولا لحريتك، ولا أمل لي ولا لك ولا لأحد من السكان الأصليين لهذه البلاد إلا بأن نتكاتف معًا لكي نعيش في دولة يسودها العدل وتكافؤ الفرص، يتساوى فيها ابن البواب مع ابن الوزير، وبنت الشغالة مع بنت الهانم، في الحقوق والواجبات التي تمنحها الدولة، مثلما يحدث في أي دولة متقدمة لم يتحقق

التقدم فيها بالأحلام ولم يهبط عليهم العدل من السماء، بل صنعوه بأيديهم ودفعوا ثمنه فحق لهم أن يهنأوا به الآن.

ونحن أيضًا يجب أن نصنع ذلك بأيدينا؛ بالالتفاف حول الدكتور البرادعي ومن شابهه من المخلصين المستنيرين «النُّضاف»، بتقوية الأحزاب السياسية الشرعية التي يقودها المحترمون أو بالاشتراك في مؤسسات العمل الأهلي التي تنشر التنمية وليس الشحاتة، بالقراءة والوعي والشعر والمعرفة والفن والغناء والشقاء على أكل العيش والكوميديا وقصص الحب الطموحة والدراما والصياغة المنضبطة وتحويل الدين إلى روح وسلوك وأخلاق، وقبل ذلك وبعده بالبعد عن كلمة «يا ريت» التي للأسف لم نصدق أجدادنا عندما قالوا لنا إن كلمة يا ريت عُمرها ما عَمَّرت بيت.

٢٦ يوليو ٢٠١٠

ما قاله السَّمَّاك للزيات

لعلمك، أنا ضعيف تجاه الأسماك وباعتها وطُهاتها وكل ما يَمُتُّ لها بِصِلَة، وأشيلهم على رأسي من فوق دائمًا، ولذلك لو كنت قابلت تاجر السمك الذي قابله الأستاذ منتصر الزيات في الإسكندرية الأسبوع الماضي، وسألني مثلما سأله: «لماذا ينبش الدكتور خالد منتصر في الماضي؟ ويطالب بمحاكمة جيل ثورة يوليو الذي أسماه جيل الحلم والكابوس.. قل له: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾».

لو قال لي عمنا السَّماك كل ذلك لكنت قد وافقته في رأيه طمعًا في أسماكه الطازة، ولكتبت عنه مقالة أحييه فيها مثلما فعل الأستاذ منتصر الذي لا أتهمه هنا بأنه ضعيف تجاه الأسماك مثلي، لكنني أعتب عليه أن انبهاره بثقافة العم السَّماك والذي أعلنه الزيات في مقال نشره في المصري اليوم منذ أيام، أنساه أن يقول للسماك وللقراء الذين يعشقون الأسماك مثلي، إنه لا يصح أن يتم إدخال آية قرآنية كالتي استشهد بها في جدل سياسي كالذي دعا إليه الدكتور خالد، خصوصًا إذا كانت هذه الآية قد وردت في سياق قرآني بعيد كل البعد عما كان يناقشه الدكتور خالد، لكي لا يجد كل من يفكر في فتح ملفات ثورة يوليو نفسه متهمًا بمخالفة القرآن الكريم، ويلقى نصيبه من الويل والثبور وعظائم الأمور.

الآية التي استشهد بها العم السماك ووافقه الأستاذ الزيات هي الآية رقم ١٣٤ من سورة البقرة، والتي تكررت بذات النص في الآية رقم ١٤١ من نفس السورة، وهي ترد في معرض تحذير القرآن الكريم للمسلمين من أن يكتموا شهادة الحق كما فعل الذين من قبلهم، حيث يقول تعالى في الآية السابقة لتلك الآية مباشرة: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾، وكما يقول الإمام الشوكاني في «فتح القدير» نقلًا عن كبار المفسرين مثل قتادة وابن الربيع فإن المقصود بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ هم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق والأسباط. والنهي هنا للمسلمين متعلق بسياق محدد هو كتم الشهادة كما كتمها الذين من قبلهم، وحاشا لله أن يطالب عبيده بأن يغفلوا الماضي ولا يتأملوا فيه ولا يوسعوه تقييمًا وبحثًا ومحاسبة، خصوصًا وهو القائل في سورة آل عمران آية رقم ١٣٧: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، وهو القائل في سورة النساء آية رقم ٢٦: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، فأين هذا كله ممن يريد أن يصور لنا ولو بحسن نية أن محاكمة تاريخ معاصر لا زالت بلادنا تعتصر تحت وطأة سياساته هو حديث عن أمة قد خلت.

يمكن أن تختلف مع الدعوة التي أطلقها الدكتور خالد منتصر لأسباب سياسية كيفما شئت، وهو ما فعله الأستاذ الزيات في جزء من مقاله، وإن كان قد زايد على خالد فصوره كأنه رجل لا يكتب إلا عن الماضي ولا يهتم إلا بنبش القبور، مع أن كل من يقرأ لخالد منتصر - اختلف معه أو اتفق - يعلم أن الرجل مشغول دائمًا بحاضر بلاده ومستقبلها، ويكتب في ذلك كتابات محترمة هي التي استحق عنها جائزة البحرين لحرية الصحافة. بالمناسبة لا أكتب هذا المقال دفاعًا عن خالد منتصر الذي تدافع عنه كتاباته، بل أكتبها ضد إقحام نص قرآني في جدل سياسي مع لوي عنق النص ليصبح دعوة باسم الدين لإغلاق أخطر الملفات السياسية التي لا زالت تؤثر في واقع مصر والمصريين بدعوى أنها تخص «أمة قد خلت».

المؤلم أنه في نفس الأسبوع الذي كتب فيه الزيات هذه الكلمات، كانت الأرجنتين مثلًا تعيد محاكمة قادة الانقلاب العسكري الذي حكمها في أواخر السبعينيات لتحديد مسئوليتهم عن مقتل ٣٠٠ معارض يساري، وكانت فنزويلا تفتح قبر محرر أمريكا اللاتينية «سيمون بوليفار» ليحدد خبراء الطب الشرعي ما إذا كان هناك شبهة في موته مسمومًا أم لا، وكانت بريطانيا قبلها بأسابيع تشهد صخبًا سياسيًّا بسبب إعلان الحكومة نتائج تحقيق مطول في وقائع حادثة الأحد الدامي التي قُتل فيها منذ سنين طويلة عدد من المواطنين الأيرلنديين العزل على يد البوليس البريطاني وانتهت بإعلان اعتذار رسمي

لأهالي الضحايا بعد مرور كل هذه السنين، وحتى رومانيا قررت منذ أيام فتح قبر طاغيتها «تشاوشيسكو» بناء على طلب من أهله لتحديد ما إذا كان هو المدفون في قبره أم لا، ولن تجد لو عدت إلى الأرشيف القريب دولة محترمة في العالم أو حتى قررت أن تسير في طريق الاحترام، إلا وهي تعتبر أن فتح الملفات التاريخية الغامضة التي تتعلق بحقوق الناس وحياتهم أمر لا ينفصل عن سعيها لتحقيق الحكم الديمقراطي الرشيد ومحاربة الفساد ورفع معدلات التنمية.

ياه! كاد الشيطان أن ينسيني ذكر ما حدث في تركيا التي يحكمها حزب العدالة والتنمية المحترم الذي لم يتعلم إسلاميو بلادنا منه أي شيء، لا الذكاء، ولا المرونة السياسية، ولا التركيز على مقاصد الشريعة الإسلامية بدلًا من شكلياتها، في الأسبوع الماضي ألقى «رجب طيب أردوغان» خطبة تاريخية حث فيها الأتراك على التصويت لصالح التعديلات الدستورية التي اقترحها حزبه؛ ليتمكن الأتراك في ظل التعديلات المقترحة من محاكمة قادة الانقلاب العسكري الذي حكم تركيا في أوائل ثمانينيات القرن الماضي، والذين قتلوا وسجنوا العديد من الأبرياء، وقرأ «أردوغان» على الملأ رسالة من شاب كان مسجونًا في ذلك الوقت وينتظره مصير مجهول ويخشى أن يتم إعدامه دون ذنب جناه سوى أنه يحمل رأيًا مخالفًا لقادة الانقلاب، كانت الرسالة التي وجهها الشاب لأمه مؤثرة جدًّا لدرجة أن «أردوغان» بكى وهو يقرأها، وبكى معه الشعب التركي الذي انتخب «أردوغان» في انتخابات حرة ديمقراطية، ولم يشغل نفسه بالمتطرفين الذين كفروا «أردوغان» وصحبه وأخذوا يتهمونهم بمخالفة الشريعة والبعد عن طريق الله، الشعب الذي وقف وراءه حتى حقق لتركيا انتصارات سياسية واقتصادية لم يكن يتوقع أحد أن تحدث في هذا الوقت القياسي، وأظنها والعلم عند الله انتصارات يرضى الله عنها أكثر من رضاه عن الذين ارتضوا أن يعيشوا في ظل التخلف والفساد والخنوع والقهر.

صدقوني، سنتمكن يومًا ما من محاسبة الذين أغرقوا ألف مصري في مياه البحر الأحمر، وقتلوا خالد سعيد، وأهانوا كرامة المصريين، وسرطنوا غذاءهم، ولوثوا مياههم، ونهبوا ثرواتهم، وأنزلوا مصر إلى الدرك الأسفل من مؤشرات البؤس، عندما نقرر أن نعرف أولًا من قتل خميس والبقري وكمال السنانيري وشهدي عطية الشافعي وعبد العظيم أبو العطا وكل الذين ماتوا ظلمًا وقهرًا في كل العصور، وعندما نحاسب الذين أهدروا كرامة الأبرياء وانتهكوا حرياتهم بدعوى مصلحة البلاد العليا، سواء كان ذلك في ظل حكم

عبد الناصر أو السادات أو مبارك، ونقدمهم لمحاكمات عادلة لينالوا جزاءهم، لتتعلم الأجيال الجديدة أن العدل قيمة لا تسقط بمرور السنين، وأن دماء الأبرياء لا يجب أن يهدرها مرور الأيام، وأن جرائم التعذيب لا تسقط بالتقادم ولا يتحمل مسئوليتها خدم الطغاة، بل الطغاة أنفسهم، وأن الوطن الذي يهدر كرامة مواطن واحد ويصمت عليها لا يستحق التقدم ولن ينال التنمية ولن يدخل المستقبل.

اللهم اهدنا سُنن الذين من قبلنا، وتُب علينا من الذين يستشهدون بكَلِمِك في غير موضعه، وهم يظنون أنهم يُحسِنون صُنعا.

٢٧ يوليو ٢٠١٠

ما تجيب بوستر

أول الغيث قطرة، وأول التوريث بوستر.

أنت تعلم أن الذين علقوا لجمال مبارك في شوارع مصر بوسترات كتبوا له عليها «جمال.. مصر» يحلمون كل ليلة باليوم الذي يكتبون له بدم الحمام لافتات مبايعة بالدم تقول بالبنط الحياني «مصر جمال.. من أجل فترة رئاسية سادسة»، هكذا فعل أسلافهم مع أبيه من قبل، وهكذا هو الحال في بلادنا المنكوبة بحكامها وشعبها: قبل أن يصل الحالم بالسلطة إليها يعلن أنه وهب نفسه لمصر، وبعد أن يترستق على سُدَّة الحكم يَسُدُّ كل المنافذ المؤدية إليه ثم يعلن أنه باق فيه طالما لم يجد أحدًا يَسِدُّ مكانه، وبعدها تصبح مصر موهوبة له، بعد أن كان موهوبًا لها.

كما تعلم فإن شيخ الطريقة الصفرية فضيلة الدكتور علي الدين هلال الذي ثَقَّف جمال مبارك سياسيًا فأحسن تثقيفه، حذرنا مؤخرًا من «تلقيح الجثث» لكي لا يقال على دولتنا أنها «هُزُؤ»، لذلك حاشا لله أن نخالف تعاليمه فنمارس تلقيح البوسترات على السيد جمال، الذي جاء في الصحف أن مصادر مقربة منه نفت علاقته بالبوسترات، لا تقاطعني أرجوك لتسألني: «إذا كان جمال مبارك ما زال يحبو في بلاط السياسة، وبات هناك مصادر مقربة تنفي له ومصادر عليمة تتحدث بالنيابة عنه، فكيف ستكون الحال لو قرر أن يعلن فعلًا خوضه انتخابات الرئاسة، هل سيحتجب في مغارة سلطانية ببطن جبل المقطم ويرسل إلينا بياناته الانتخابية بالحمام الزاجل؟».

يا سيدي، المسألة ليست «شَكَل» للبيع، المهم أن تصدق فورًا أنه لا علاقة لجمال مبارك بأي من بوسترات تأييده التي ملأت جدران الشوارع على حين غفلة من أمن

بلادنا الساهر في «سايبرات» الوطن، نحن قوم نعلم أن أمن الدولة في بلادنا لا يمارس أدنى رقابة على مطابعنا الحرة المستقلة، بإمكانك أن تتوقف عن قراءة هذا العمود، وتنزل حالًا بالًا إلى أقرب مطبعة بوسترات لتتأكد من كلامي بنفسك، فتطلب مثلًا من صاحبها الحر المستقل عمل بوستر حر مستقل بالألوان الحرة المستقلة يقول مثلًا: «وديتوا فلوس البلد فين؟»، أو بلاش خليها أحسن: «بعتوها بكام ولمين؟». وليس شرطًا هنا أن تحدد اسم البلد منعًا لإحراج صاحب المطبعة، ولًا أقولّك، اختر شعارًا عموميًا لدرجة الغموض المُلغز يقول مثلًا: «أظن كفاية بقه لحد كده»، وصدقني لن تجدْ في كل الأحوال أحدًا يقول لك: «تلت التلات بوسترات كام؟»، لن تُشاك بشوكة في المطبعة ولا على الجدران المحيطة بها إذا أراد الله أن تصل إليها، انزل وجرب بنفسك، لكن أرجوك عندما نلتقي يومًا ما خارج العنابر ونحن ذاهبون إلى أخذ التعيين، لا تحاول الانقضاض عليَّ وتتهمني بأنني خربت بيتك بدعاباتي السمجة، الغلطة غلطتك لأنك عملت عقلك بعقلي.

يا سيدي، حتى لو لم تكن من أتباع مولانا «أبو الأصفار»، تذكر أننا مأمورون شرعًا بألا نشق عن قلوب الناس، ولذلك عندما يقال لنا من مصادر مقربة إن جمال مبارك لا علاقة له ببوسترات تأييده، يجب أن تصدق فورًا، ولا تضطرني لأن أسألك: «هلا شققت عن قلبه؟»، فيسمعني أحد ويفهم خطأً وتجيب لنا مصيبة، يا سيدي حتى لو قال الذين علقوا هذه البوسترات إن جمال مبارك راض عما علقت أياديهم، فهل نصدقهم ونكذب رجلًا لم يقل بعضمة لسانه إنه يريد أن يكون رئيسًا علينا؟ بل غاية الأمر أنه يريد أن يخرجنا من الوحلة التي صرنا فيها بسبب سياسات ربع القرن الماضي. أعلم أن الشيطان يلعب في دماغك الآن بِمِفَك، ويوسوس لك بالعربية الفصحى لكي يكسب وسوسته جرسًا موسيقيًا يدفعك لتصديقها: «تقصد أننا يجب أن نصدقه مثلما صدقنا والده فخامة الرئيس عندما قال لنا مثلًا في بدايات حكمه إنه لن يترشح لفترة رئاسية جديدة؟». استعذ بالله من الشيطان الرجيم ولو كان فصيحًا، وتذكر أننا نحن الذين ضغطنا على الرئيس لكي نظل «معاه إلى ما شاء الله»، فكانت النتيجة «حتى آخر نَفَس». ولكي لا تسلم نفسك لأحابيل الشيطان، عليك أن تتذكر هنا، فيما يخص وساوس التوريث، أن الرئيس مبارك قالها جلية خفاقة واضحة لا لبس فيها: «مصر ليست سوريا».

لا تقل لي إن الشيطان قرر أن يغير خطته الرجيمة هذه المرة، وأخذ يلعب في دماغك بالعامية قائلًا: «أيوه سيادته قال إن مصر مش سوريا.. بس ما قالش إنها مش ممكن تبقى كوريا.. أقصد كوريا الشمالية؟». لأ بقه، شوف لك حل في شيطانك اللي لا يطاق ده، أعوذ بالله من شيطانك الرجيم يا أخي، آديني سايب لك العمود باللي فيه، ومن غير سلامو عليكو.

٢ أغسطس ٢٠١٠

عبيد بالاختيار

«... لست أبتغي شيئًا إلا أن أفهم كيف أمكن هذا العدد من الناس... أن يحتملوا أحيانًا طاغية واحدًا لا يملك من السلطان إلا ما أعطَوه ولا من القدرة على الأذى إلا بقدر احتمالهم الأذى منه، ولا كان يستطيع إنزال الشر بهم لولا إيثارهم الصبر عليه بدل مواجهته. إنه لأمر جلل حقًّا، وإن انتشر انتشارًا أدعى إلى الألم منه إلى العَجَب، أن ترى الملايين من البشر يخدمون في بؤس وقد غُلَّت أعناقهم، دون أن ترغمهم على ذلك قوة أكبر، بل هم فيما يبدو قد سحرهم مجرد الاسم الذي ينفرد به البعض.

... يا لذل شعوب فقدت العقل ويا لبؤسها! يا لأمم أمعنت في أذاها وعَمِيَت عن منفعتها! تسلبون أجمل مواردكم وأنتم على السلب عيان، تتركون حقولكم تُنهب ومنازلكم تُسرق وتُجرَّد من متاعها القديم الموروث عن آبائكم! تحيون نوعًا من الحياة لا تملكون فيه الفخر بملك ما، حتى لكأنها نعمة كبرى في ناظركم لو بقي لكم ولو النصف من أملاككم وأسركم وأعماركم، وكل هذا الخراب، هذا البؤس وهذا الدمار يأتيكم لا على يد أعدائكم، بل يأتيكم يقينًا على يد العدو الذي صنعتم أنتم كِبَرَه، والذي تمشون إلى الحرب بلا وجل من أجله، ولا تنفرون من مواجهة الموت بأشخاصكم في سبيل مجده. هذا العدو الذي يسودكم إلى هذا المدى ليس له إلا عينان ويدان وجسد واحد، ولا هو يملك شيئًا فوق ما يملكه أقلكم على كثرة مُدنكم التي لا يحصرها العدُّ إلا ما أسبغتموه عليه من القدرة على تدميركم. فأنّى له بالعيون التي يتبصص بها عليكم إن لم تقرضوه إياها؟ وكيف له بالأكف التي بها يصفعكم إن لم يستمدها منكم؟ أنّى له بالأقدام التي يدوسكم بها إن لم تكن من أقدامكم؟ كيف يقوى عليكم إن لم يَقوَ بكم؟ كيف يجرؤ على مهاجمتكم لولا تواطؤكم معه؟ أي قدرة له عليكم إن لم تكونوا حُماةً لِلِّصِّ الذي ينهبكم، شركاء

للقاتل الذي يصرعكم، خونةً لأنفسكم؟ تبذرون الحب ليذريه. تؤثثون بيوتكم وتملأونها حتى تعظم سرقاته.

... ما هذا يا ربي؟ كيف نُسَمِّي ذلك؟ أيُّ تَعس هذا؟ أيُّ رذيلة، أو بالأصدق أيُّ رذيلة تعسة؟ أن نرى عددًا لا حصر له من الناس، لا أقول يطيعون، بل يخدمون، ولا أقول يُحكمون، بل يُستبد بهم، لا ملْك لهم ولا أهل ولا نساء ولا أطفال، بل حياتهم نفسها ليست لهم.. أن نراهم يحتملون السلب والنهب وضروب القسوة، لا من عسكر أجنبي ينبغي عليهم الذود عن حياضهم ضده، بل من واحد لا هو بهرقل ولا شمشون، بل خُنَث، هو في معظم الأحيان أجبن مَن في الأمة وأكثرهم تأنثًا، لا ألفة له بغبار المعارك، وإنما بالرمل المنثور على الحلبات (إن وطئها)... أنسمّي ذلك جبنًا؟ أنقول إن خُدَّامه حثالة من الجبناء؟ لو أن رجلين، لو أن ثلاثة أو أربعة لم يدافعوا عن أنفسهم ضد واحد لبدا ذلك شيئًا غريبًا، لكنه بَعدُ ممكن، ولو سعنا القول عن حق إن الهِمَّة تنقصهم. ولكن لو أن مائة، لو أن ألفًا احتملوا واحدًا ألا نقول إنهم لا يريدون صده، ليس لأنهم لا يجرءون على الاستدارة له، لا عن جبن، بل احتقار له في الأرجح واستهانة بشأنه؟ فأما أن نرى لا مائة ولا ألف رجل، بل مائة بلد، ألف مدينة، مليون رجل، أن نراهم لا يقاتلون واحدًا أقصى ما ينالهم منه هو القنانة والرقّ فأنّى لنا باسم نسمي به ذلك؟».

مقاطع من كتاب «مقالة في العبودية المختارة» للمفكر الفرنسي «أتين دي لابويسييه»، والذي كتبه في القرن السادس عشر ولم يُنشر إلا بعد وفاته بقرنين من الزمان ليصبح واحدًا من أهم الآثار في تاريخ الفكر الإنساني، وقد ترجمه إلى العربية الدكتور مصطفى صفوان مشكورًا مأجورًا.

أهدي هذه المقاطع إلى كل الذين يرفضون أن يكونوا عبيدًا في هذا الوطن الذي نأمل ونعمل من أجل أن يأتي عليه يوم تصبح فيه الكتابة عن الاستبداد ومقاومة العبودية جزءًا من تاريخه لا من حاضره.

٣ أغسطس ٢٠١٠

جرس الفُسحة ضرب ضرب

يبدو أن الفُسحة أوشكت على الانتهاء.. حتى لو لم تسمعوا صوت الجرس رسميًّا، هناك مؤشرات كثيرة تدل على اقتراب قرعه، مؤشرات لن أسردها لك لأن «إللي ما يشوفش من الغربال يبقى أعمى»، لكن عندي إحساس بأن لديك إحساسًا بتلك المؤشرات المتصاعدة؛ لأن حضرتك «من هنا برضه وعارف».

في العالم المحترم تعتبر الفُسحة حقًّا أصيلًا للطالب، لا منحة من الناظر، ليس من حق الناظر أن يلغيها متى شاء ولا أن يقرر طبيعة ما يقال فيها وما يدور خلالها، أما في عالمنا التعبان فمن حق الناظر وحده أن يجعل أيامنا كلها فسحة، ومن حقه وحده أيضًا أن يلغي الفسحة إلى الأبد، فهو وحده الأدرى بمصلحة رعاياه وهو الأحن عليهم من أنفسهم.

قال لي رجل محترم يعرف كثيرًا من النافذين الذين يطلعون في نشرة ستة، التي ستظل تطلع حتى تطلع أرواحنا: «استمتعوا على قد ما تقدروا بهامش الحرية؛ لأنكم ستترحمون عليه عقب الانتخابات الرئاسية أيًّا كان اسم الذي سيقررون إنجاحه فيها»، ثم حكى عن حوار دار بينه وبين أحد أولئك النافذين الذي قال له بالنص: «إللي بيحصل دلوقتي كتير، والبلد كلها في خطر. وخلاص ما عادش في مكان للصبر.. إحنا مش هنسيب شوية عيال يولعوا البلد.. ولا يهمنا لا ضغط دولي ولا نيلة.. مصلحة البلد فوق كل اعتبار».

بعيدًا عن قالوا وقلنا مما يجوز نشره أو يتعذَّر، وعلى عكس ما قد تظن، فإن هذا الاتجاه المتصاعد الذي يسعى لإنهاء فُسحة الحرية التي يراها طالت أكثر مما ينبغي وحان أوان

قطافها، لا يدعمه فقط المشهود لهم بالفساد في أروقة الحكم، بل تدعمه للأسف وبقوة أسماء مشهود لها بالوطنية ونظافة اليد، خذ عندك على سبيل المثال: محافظ كفر الشيخ اللواء أحمد زكي عابدين الذي قرأت له في صحيفة الدستور هجومًا شنه خلال مؤتمر شعبي على «الصحافة الفاضية اللي عايزة جنازة تشبع فيها لطم»، أو ما شابه ذلك من عبارات يمكن أن ترجع إلى نصها في الصحيفة، لكنني أظنك تتوقعها ربما لأنك سمعتها من مسئولين كثيرين لا يحظون بما يحظى به اللواء عابدين من احترام، على الأقل من طرفي كمواطن يتابع نشاطه من بعيد، وكان يتمنى أن يُكَذِّب تصريحاته أو حتى يقول إنها قد أسيء فهمها.

خذ عندك أيضًا، ما قاله اللواء محمد مراد موافي محافظ شمال سيناء في تصريحاته الخطيرة التي أدلى بها الأسبوع الماضي لصحيفة الشروق، لعلك تابعت ردود الأفعال الغاضبة التي سببها الحوار الذي قال فيه المحافظ كلامًا مؤلمًا بحق بدو سيناء، لم يكن يجب أن يقال، ولذلك لن أعيد نشره تقديرًا لبدو سيناء، مع احترامي لحقك في المعرفة الذي يمكن أن تناله بقراءة الحوار على الإنترنت. أكثر ما أفزعني في الحوار أن المحافظ الذي لا أشك لحظة في وطنيته وحبه للبلد، قال في جزء من الحوار كلامًا عن موقفه من الإعلام والصحافة لم يتوقف عنده الكثيرون برغم خطورته، حيث قال بالنَّص:

«... للأسف، من يكتب في الصحافة لا يضع مصلحة مصر أمام عينيه وهو يكتب، فإسرائيل بها مشاكل وبها معارضة وبها إعلام وصحف، لكن عند مصلحة إسرائيل الكل يقف على قلب رجل واحد، ولكن في مصر الكل يبحث عن فرقعة إعلامية والكل يبحث عن كتابة عنوان صارخ وصورة قاسية، وأن يضر هذا العنوان وتلك الصورة بمصلحة مصر على حساب كرامتها وأمنها فليس هذا مُهِمًّا، فنحن نعطي الفرصة للخارج كي يتساءل عما يحدث في مصر، ونحن نفتح الصحف الآن ولا نرى سوى قتل وسرقة ونهب ورشوة، والسينما دعارة وجنس وكوكايين وكأنه ليس هناك أية إيجابيات في مصر، فللأسف الإعلام في مصر غير عادل في عرضه لما يحدث في البلد. إشمعنى مصر بس هي اللي بيحصل فيها كل الكلام ده، ولماذا لا نسمع أخبارًا مثل هذه عن السعودية أو قطر أو الكويت، ماحدش سأل نفسه لماذا؟ لأن مصر مستهدفة وإن لم يخف عليها أولادها فلن يخاف عليها أحد».

في اليوم التالي نشرت الشروق تصريحات جديدة للمحافظ لم ترد على سبيل نفي حواره، بل على سبيل توضيحه، أعرب فيها عن تقديره لمشايخ البدو وإشادته بدورهم البطولي في حرب أكتوبر، قرأت التصريحات الجديدة متمنيًا أن أجد فيها تراجعًا من المحافظ عن تصريحاته التي تخص الصحافة والإعلام والسينما، لكنني للأسف لم أجدها ولا أظنني سأجدها قريبًا؛ لأنني لا أظنه حتى مهتمًّا بأن يبذل أحد جهدًا في تصحيح فكرته عن الصحافة الإسرائيلية، أو عن وظيفة السينما وطبيعة دور الدراما، أو عن كون الصحافة ناقلة للأخبار وليست صانعة لها، أو حتى فكرته أصلًا عن مصر التي كان بها صحافة حرة مستقلة جريئة وأحزاب قوية غير قابلة للترويض قبل أن تنشأ الدول التي استشهد بها في حواره، كل هذا كان ممكنًا لو كان سيادته يتحدث من منطلق رغبة في الحوار، وليس من منطلق الخوف على مصلحة مصر، الذي يجعله بالضرورة يفترض أن الطرف المخالف في الرأي ليس خائفًا عليها وليس مهمومًا بمصلحتها، هو بالمناسبة لم يتحدث عن شخص أو حتى عن قائمة أشخاص، بل تحدث بصيغة التعميم التي حتى لو افترضنا أنها جاءت بحكم استرساله في الحوار، فإن أي استثناءات يمكن أن يضعها المحافظ في حوار تفصيلي قادم لن يكون بينها من يسخط على أحوال البلاد، ويرى أن مصر مستهدفة فعلًا، ولكن من رجال بيزنس التوريث، وأن مصر تحتاج لأن يخاف عليها أولادها فعلًا، ولكن من أن تظل متخلفة عن ركب العالم الحر المتقدم الذي أصبح يعتبر أن تداول السلطة، ونزاهة الانتخابات، والفصل بين السلطات، وحرية الإعلام المطلقة، مسائل حياة أو موت للدول والشعوب.

المسألة أكبر من أن تكون ردًّا على محافظ أو وزير، بل هي أخطر من ذلك بكثير، لن أتحدث هنا باسم أحد؛ لأنني لا أملك إلا أن أتحدث عن نفسي فقط، أنا والحمد لله على قولة أنا، أكتب ما أكتبه لأنني أريد لمصر أن تكون أفضل، وحتى يحدث ذلك سأدافع دائمًا عن حريتي التي أراها حقًّا لي، وليست منحة من أحد، لم أمارسها لأن أحدًا قال لي أنت الآن في الفُسحة فخذ راحتك إلى أن تنتهي وتطلع بعدها على فصلك، بل كنت أظن أنني أصون حريتي بيدي مع كل سطر أكتبه، وأعرف كثيرين غيري يؤمنون بما أؤمن به، ويعلمون أنهم سيدفعون ثمن مواقفهم إن عاجلًا أو آجلًا، بالطبع أنا سعيد لأنني بحمد الله لم أدفع حتى الآن ثمنًا قاسيًا لِمَا أكتبه، وأتمنى كأي بشر طبيعي ألا أدفع ذلك الثمن أو حتى ألا يكون ثمنًا يفوق قدرتي على احتماله، لكنهم علَّمونا في الكتب أن نيل

المطالب ليس بالتمني، وأن التقدم ليس مجانيًا، وأنه لا يوجد أبدًا استبداد حنون أو حكم فردي صبور إلى الأبد، ومع ذلك أنا أيضًا أدرك أن الحرية هي فطرة الله التي فطر الناس عليها، وأنه على عكس ما يعتقد البعض أو على عكس ما نتمنى جميعًا، يمكن لمصر أن تعود إلى الخلف، وبسهولة فائقة وسرعة مدهشة، لكن نتائج تلك العودة لن تكون وخيمة فقط على الذين سيفقدون حريتهم في التعبير، بل ستكون أشد وبالًا على الذين يظنون أن الحرية «فُسحة» يمكن أن تنتهي بصفارة الناظر وحده.

٤ أغسطس ٢٠١٠

مبارك عليكم العمر

كل سنة وأنت تحاول أن تكون طيبًا.

عندي لك نصيحة رمضانية لوجه الله: حاول أن تكون حذرًا هذا العام وأنت تمارس عادتك السنوية في الدعاء للرئيس مبارك عند مدفع الإفطار. لا تسألني كيف عرفت أنك تدعو للرئيس مبارك في ساعة مباركة كهذه، لا يحتاج الأمر للرجم بالغيب لكي أعلم أنك من فرط شعورك بالامتنان لهذا القائد العظيم تبديه دائمًا على نفسك وأهل بيتك لحظة الإفطار، ليس نفاقًا ولا تزلفًا، بل لأنه ربان العبارة التي تمخر بنا عباب البحار منذ أكثر من ربع قرن، ودعاؤنا له بأن يلهمه الله إرسال أي إشارة استغاثة إلى أقرب ميناء في الوقت المناسب، ليس دعاء لسيادته بقدر ما هو دعاء لأنفسنا ولأهلينا وذوينا والذين يتشددون لنا وعلينا.

للأسف، هذا العام لن يكون بمقدور أحد منا أن يدعو جهارًا للرئيس مبارك بالصحة والعافية؛ لأن ذلك الدعاء سيعتبر مشاركة مغرضة في حملات ترويج الشائعات المُغرضة التي تشكك في صحة الرئيس مبارك، لن يكون مجديًا أن تدخل مع من سيقبض عليك أو سيحقق معك في جدل بيزنطي حول أن طلبك الصحة لإنسان لا يعني عدم توفرها لديه، لذلك خذها من قصيرها وأمّن نفسك وارفع يديك إلى السماء والهج بهذا الدعاء بصوت جهير يخرج من خلجات صدرك عاليًا خفاقًا: «اللهم ارزق الرئيس مبارك مزيدًا من الصحة، ومزيدًا من العافية التي نقر ونعترف بين يديك أنه يتمتع بها، لكننا نطمع دائمًا في زيادة كرمك علينا وعليه، اللهم أنعم علينا بالصحة التي أنعمت بها على الرئيس مبارك، اللهم إنا نبرأ إليك من كل من يشكك في صحة الرئيس مبارك، اللهم أضعف أبدانهم وأوهن أرواحهم وشككهم في أصابع أيديهم كما رغبوا في تشكيكنا في صحة

الرئيس مبارك التي هي كالفل، اللهم وإن كتبت على الرئيس مبارك وعكة صحية في يوم من الأيام فنسألك أن تنزلها علينا نحن أبناء هذا الشعب، وتعافيه منها رحمة بالأطفال الرضع، والشيوخ الرُّكع، والشباب العُطَّل عن العمل، والفتيات العُنَّس، والآباء الطُلَّع على المعاش المبكر، فجميعهم يا الله أحوج ما يكونون إلى كل دولار من دولارات الاستثمارات الأجنبية التي تتدفق على مصر دون سائر بلاد الأرض عندما تعلم أن الرئيس مبارك صحيح معافى وتهرب منها إذا شكت أنه ليس كذلك، اللهم وحتى تلهمنا حلًا ناجعًا نتمكن به من إقناع الاستثمار الأجنبي أن الرئيس مبارك سيعيش معنا إلى الأبد، فاكتب لسيادته دائمًا المزيد من الصحة والمزيد من العافية، اللهم إنا نقر ونعترف بين يديك بأن الرئيس مبارك سليم معافى صحيح البدن وافر النشاط متقد العزيمة، وأقفل المحضر في ساعته وتاريخه».

يبدو لك هذا الدعاء غير واقعي أو غير عقلاني، أنت حر، أنا عملت الذي عليَّ وحذرتك، عليك فقط ألا تفغر فاهك اندهاشًا عندما تقرأ هذا الدعاء الذي أسلفته لك منشورًا في الغد في الصحف القومية، أو عندما تسمعه يُتلى على ألسنة فقهاء النظام، أو لو وجدته يوزع مطبوعًا في الأتوبيسات تحت عنوان «دعاء مكافحة الشائعات وجذب الاستثمار الأجنبي». صدقني ونحن في هذه الأيام «المُحتبسة» لم يعد هناك شيء مستبعد في ظل وصول معدلات تدفق النفاق إلى أعلى درجاتها فوق كل الأجواء، حتى إنني لن أستغرب أبدًا لو قرأت في الصحف القومية مانشيتًا عريضًا يقول «الشعب المصري يهنئ شهر رمضان لأن الرئيس مبارك سيصومه».

(ربما تظن أنني كتبت هذه الكلمات يوم أمس أو ربما أول أمس، من وحي كل ما يثار في جميع وسائل الإعلام الأجنبية عن صحة الرئيس مبارك ومستقبل الحكم في مصر.. لكنني للأسف كتبتها ونشرتها قبل أربعة أعوام، ومع ذلك لا تزال صالحة للنشر في ظل أزهى عصور الملل.. فقط أدعو الله ألا أكون حيًا عندما أضطر لإعادة نشرها بعد أربعة أعوام.. ولَّا أقولك بما أن دعاء الصائم مستجاب، لذلك خليها بعد عشرة أعوام.. يدِّينا ويديك طولة العمر والبال، ومبارك عليك الشهر).

١١ أغسطس ٢٠١٠

والله العظيم عيب

أما بعد..

فإن سألوك عن مصر وكيف بات حالها بين الأمم في زمانها؟ فقل لهم: هي ولا حول ولا قوة إلا بالله، البلاد التي يذهب فيها رئيسها لافتتاح معبر يُسهل المرور فيغلقون من أجله المرور، وتضيق من زيارته الصدور، ويُضرب بينه وبين الناس حجاب لدواعي الأمن، فلا يعرف كيف يعيشون، ولا مِمَ يشكون، ويعود إلى قصره سعيدًا بما رآه، ويعود الناس إلى بيوتهم كارهين ساخطين.

إن سألوك عن مصر فقل لهم: هي البلاد التي يجمع فيها رئيسها من حوله وزراءه وكبراءه ليسألهم عما يشغل الناس، فيقفون أمامه منحنين متقافزين، لا يقولون له إلا ما يحب أن يسمعه، لا ما يجب أن يسمعه. يسأل حاكمها وزراءه عن القمح، فيترقب سؤاله أبناء شعبه الذين يقلقهم ما يقرأونه ويسمعونه عن أزمة القمح العالمية التي كشفت لهم كيف أصبح أمنهم في خطر محدق، فلا يجدون أمامهم وزير الزراعة لكي يسمعوا ويسمع حاكمهم منه الجواب، بل يتولى الإجابة بدلًا منه وزير فشل في توصيل المياه إلى البيوت وتوفير المساكن للشباب. وبات لدى الناس موضع تساؤل بعد أن أوقف رئيس البلاد بيع جزيرة في قلب النيل لشركة تابعة له، فهللت أبواق النظام لما قام به الرئيس، وظن الناس من فرط ما سمعوه من تهليل وتزمير، أنها بداية حميدة لفتح ملفات الأراضي التي بيعت في عهد هذا الوزير، ونهاية طال انتظارها للتزاوج المقيت بين السلطة ورأس المال، ثم إذا بهم يرون ذلك الوزير يقف أمام حاكمهم معززًا مُكرَّمًا، يفتي في كل الأمور، ويهرف بما لا يعرف، بل ويمتلك الجرأة لأن يقول لحاكم البلاد: «ما نقدرش نزرع القمح يا افندم لإن ربنا ادانا ميزة نسبية إننا نزرع حاجات تانية بداله، فحرام نفقد الميزة التي اداها لنا ربنا

عشان نزرع القمح»، فيهز الحاكم رأسه موافقًا، دون أن يقول له وهو يمتلك الحق في أن يقول ما يشاء: «صه يا هذا، بأي حق تتحدث في ملف ليس من اختصاصك؟ ولماذا تُدخل رب العزة في شأن كهذا ونحن دولة تدعي أنها تحارب الذين يقحمون الدين في شئون السياسة؟ ولماذا أصبح الناس في عهدك يشكون من البنية الأساسية التي أفاخر بها؟ ولماذا أصلًا أسمح لك بالتحدث في ملف ليس لك به شأن؟».

إن سألوك عن مصر فقل لهم: هي البلاد التي يرضى حكامها عنها دائمًا وأبدًا، دون أن يواجهوا أنفسهم بأي تقصير أو يُقروا بأي خطأ، ويرفعون على الدوام شعار «كله تمام»، وإن فرح الناس بأن لدى حكامها رغبة في التساؤل عن أمر من أمورها يقض مضاجعهم، لا تدوم فرحتهم دقائق، قبل أن يروا حكامها مقتنعين بأن عيبها في ناسها؛ إذا شح القمح فليست المشكلة أن الدولة فشلت في زراعته وتأمينه ولو حتى من خلال التعاون مع بلاد شقيقة وصديقة قابلة لزراعته، بل المشكلة أن الناس يتكاثرون ويتناسلون ويتوالدون، كأنه لا يتكاثر شعب في الدنيا غيرهم. وإذا انقطعت الكهرباء في عز الصيف الجهنمي فما ذاك إلا لأن بينهم من رفض أن يعيش عيشة أهله، وقرر أن يشتري تكييفًا بالتقسيط الذي لا يعلم كيف سيسدده، دون أن يتحدث أحد عن القصور والسرايات والبنايات التي يعيش أهلها في التكييف المركزي دون ضابط ولا رابط.

إن سألوك عن مصر فقل لهم: هي البلاد التي تفتتح الدولة فيها مرفقًا ثقافيًا عظيمًا مثل متحف الفن الإسلامي، يندر أن تجد له مثيلًا في العالم، حتى إنك من فرحتك به تفحم أسئلة تثور في صدرك عن سر افتتاحه متأخرًا بعد كل هذه السنين، لكن فرحتك تلك تموت عندما تدرك أن حكام البلاد أفسدوا حياة الناس خارج المتحف، وجعلوهم يسيرون كالثيران في السواقي من أجل أن ينقضي يومهم على خير، فصارت زيارة المتاحف فقط للناس الرايقة الفاضية، والناس الرايقة الفاضية يجدون غِيتهم في ملاعب الجولف لا في متاحف الفنون، لذلك ربما كان حاكم البلاد وحاشيته هم أول وآخر المستمتعين بذلك المتحف نادر المثال.

إن سألوك عن مصر فقل لهم: هي البلاد التي ما زال حكامها وإعلامها الرسمي يعتقد أن افتتاح رئيسها لكوبري جديد أو مرفق متميز، أمر يستحق أن تلهج الألسنة له بالثناء، ويشعر الناس بالامتنان والفخر، دون أن يدركوا أن افتتاح ذلك المرفق لم يكن أصلًا

بحاجة إلى زيارة رئيس البلاد، وإنما لزيارة رئيس الحي الذي يقع فيه المرفق، وأن الناس سيكونون سعداء حقًا لو شهدوا رئيس البلاد يفتتح مرفقًا علميًا رفيعًا طال تعثره، أو يدشن مفاعلًا نوويًا يرون رئيسهم يسأل عنه كأنه ما زال يشك في جدواه، أو يعلن مشروعًا قوميًا لإصلاح التعليم الذي بات سر تخلف بلادهم، أو يعلن استجابته لأحلامهم في إصلاح دستوري حقيقي يختم به مشواره، ويكفر به عن سيئات حكمه، وينهي حكم مصر بهذه الطريقة العتيقة البالية التي لا تستحق أن تحكم بها أبدًا.

أمّا وإن سألوك: أمَا من فرج قريب لمصر؟ فقل لهم: فرجها لا يصنعه إلا أهلها، وفجرها الذي ظنه الناس مستحيلًا من كُثر ما رأوه من فُجر، قادم إن أراد أهلها إليه سبيلًا، وإن استبدلوا اليأس بالأمل، والسخط بالمقاومة، وإن آمنوا أن انتظار البلاء هو السبيل إلى وقوعه، وأن الذي لا تعرفه هو دائمًا خير من الذي عرفته وجبت آخره، وأن العمر واحد والرب واحد، وأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وإن سألوك: ألا تنتهي هذه المقالة أبدًا؟ فقل لهم: سلام عليكم، آديها انتهت.

١٧ أغسطس ٢٠١٠

يوم عشرة

الساعة الآن الثانية ظهرًا، واليوم هو العاشر من رمضان الموافق لليوم السادس من أكتوبر في عام ١٩٧٣، أعلم أنه كان يوافق يوم أمس، لكن معلهش نحن فيها، تخيل أنه اليوم، وتخيل أنك الآن تقف صائمًا على شط القنال، تضع روحك على كفك، وتتأهب لاقتحام أقوى مانع عسكري في العالم، وتتلهف إلى اللحظة التي ترفع فيها علم بلادك على أرضك السليبة مستعدًّا لدفع حياتك ثمنًا لذلك. فجأة يأتيك هاتف شيطاني قادم من المستقبل ليوسوس إليك قائلًا: إن الأرض التي ستبذل روحك من أجلها لن يستمتع بخيرها أبناؤك من بعدك، وإن بلادك ستصبح يومًا ما قابلة للتوريث كأنها متاع أو عقار، وإنها ستنسب إلى اسم حاكم كأنها مملوكة له، وإن الأراضي التي حررتها لن ينال خيرها أبناء الذين عبروا مثلك، بل أبناء الذين هبروا، وإنك ستسحق خط بارليف لينسحق أبناؤك يومًا تحت خط الفقر الذي صنعته بإصرار حكومات الفشل وانعدام الكفاءة والتخبط السياسي، وإن هناك أجيالًا سيسعى المتنفعون لكي يمحوا من ذاكرتها كل معاني الوطنية والعزة والكرامة، لكي لا يبقى من ذكرى الشهداء لديها إلا العرفان لهم لأنهم يزيدون رصيد تلك الأجيال من الإجازات.

ماذا ستفعل وقتها بالله عليك؟ أعلم أنه سؤال مرير مؤلم يفتح عمل الشيطان من قنوط ويأس وإيثار للسلامة، لكنني أعتقد جازمًا، والعلم عند الله، أنك لو كنت واحدًا من أحفاد خير أجناد الأرض، وجاءك ذلك الهاتف اللعين، فإنك لن تستسلم له أبدًا، بل ستفعل نفس ما فعله المقاتل المصري في يوم العاشر من رمضان، ستعبر الهزيمة وتستعيد أرضك مضحيًا بروحك، ستؤدي واجبك وتفعل ما عليك، دون أن تفكر في مستقبل الأرض التي ستُحررها؛ لأنك تعلم أن مسئوليتها في المستقبل ستتحملها الأجيال القادمة

التي سيكون عليها أن تختار مصيرها بنفسها، عندما تجد هذه الأجيال نفسها يومًا معرضة للهزيمة أمام جحافل الفساد والإفقار والتجهيل والتطرف والتوريث وسحق الإرادة؟ هل ستختار إرادة العبور أم ستفضل الاستسلام؟ أنت تعلم أن تلك الأجيال ستجرم في حق نفسها لو ظنت أن صمتها وسلبيتها وطرمختها وعبثيتها سيجعلون حياتها أفضل، وأنها ستكون واهمة لو تصوَّرت أن انكفاء أفرادها على حلول خاصة سيعبر بهم وببلادهم إلى بر الأمان، وأنها ستجرم في حق نفسها لو لم تدرك أن العالم تغير ولم يعد فيه مكان لحكومات مستبدة تُطعم الشعوب من جوع وتؤمنها من خوف، ولا لشعوب تظن أنها تمتلك امتيازات إلهية خاصة تجعل الله تعالى يُغير سنته من أجلها، وأنها إذا لم تتحرك لإنقاذ نفسها ستنهار وتفنى.

أنت أيها المقاتل المصري العظيم تعلم أن شعبك ليس شعب الله المختار كما يروج البعض، وليس شعبًا محكومًا عليه بالخنوع والذل كما يزعم الكثيرون، أنت تعلم أنه كأي شعب من مخاليق الله في دنياه الواسعة، عندما يواجه اختبار الفناء، ستستيقظ فيه غريزة البقاء، وسيختار الحياة بدلًا من الموت، والتغيير بدلًا من الفناء، هذه فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ولذلك ستدير ظهرك لوساوس الشيطان وستعبر، وأنت تدرك واثقًا أن فكرة العبور التي ستجسدها بدمائك ستكون وحدها الملهمة للأجيال التي ستليك إذا رغبت في الخلاص.

كل الكلام رخيص أمام الدم الزكي الذي سال على تراب سيناء، صدقني ما أسهل الكلام، ولكن صدقني ما أصعبه أيضًا عندما تكون في حضرة دماء الشهداء، لذلك لا تنتظر مني اليوم أن أجيد الكتابة، تمامًا كما أنني لن أنتظر منك إكمال هذه المقالة المتعثرة المرتبكة المخنوقة. عارف؟ هناك خطوات كثيرة قطعتها الصحافة باتجاه الاتصال التفاعلي، كنت أتمنى لو كان من بينها أن أتوقف عن الكلام الآن، وأسمِعك فورًا صوت الفنان المصري الفذ المعجز سيد مكاوي وهو يشدو من كلمات والد الشعراء العظيم فؤاد حداد بأغنية من أغنيات ملحمتهما الخالدة «المِسحراتي»؛ اخترت لها على كمبيوتري اسم «يوم عشرة»، بعد أن أهداها لي الإنترنت الذي أنقذها من مجزرة محو الذاكرة المصرية، وها أنا أستمع إليها الآن وأنا أحاول أن أكون قد ما أكتب عنه، وأتمنى أن تصنع بنفسك جميلًا وتُنزلها من على الإنترنت، أظنك لو كتبت في جوجل اسم سيد مكاوي ستجد إليها سبيلًا مثلي، بالله عليك اسمعها اليوم قبل السحور بعد أن تقرأ الفاتحة للأبطال

الذين صنعوا النصر الذي ظللنا من ساعة تحققه، نحاول أن نمحوه ومع ذلك لم ننجح تمامًا في سعينا، ولن ننجح بإذن الله.

اسمع مرة، وفي الثانية لا تكتفِ بالاستماع، خذ طبلتك أو قلمك أو لافتتك أو صنعتك أو هوايتك أو حرفتك أو خوفك أو أملك أو يأسك، وانزل به إلى شوارع المحروسة، وشارك سيد مكاوي وفؤاد حداد في سعيهما إيقاظ مصر والمصريين، وابدأ بنفسك أولًا: «اصحى يا نايم.. اصحى وَحِّد الدَّايم.. وقول نويت بكرة إن حييت.. الشهر صايم والفجر قايم.. اصحى يا نايم وَحِّد الرزَّاق.. رمضان كريم.. مسحراتي في ليالي السماح.. مِنَقَّراتي وطبلتي بجناح.. ونَغَمي يِلف القلعة والسيدة.. والدنيا زي العَيِّلة مِعَيِّدة.. ونغم يلف القنطرة والعريش.. وعشت يوم فرحان بإني أعيش.. ونغم يدوب في مصر وحبها.. ست الجمال والحسن والأبهة.. وأدحرج الضحكة على الفدادين.. نغم على الجبهة يِحَيِّي الجنود.. يا بدر من رمضان يا نور النبي.. يا كل أحلام الجدود قَرَّبي.. اصحى يا نايم وَحِّد الرزَّاق.. رمضان كريم..

يوم عشرة بالحرية والانتصار.. مصر الأميرة تِبَشَّر الأمصار.. كل الولاد بيقولوا يحيا الوطن.. وانا باغني وأقول شرارة بدر.. طاقة قدر.. المشي طاب لي.. والدق على طبلي.. ناس كانوا قبلي قالوا في الأمثال: الرجل تِدِبّ مطرح ما تحب.. وانا صنعتي مسحراتي في البلد جوال.. حبيت ودبيت كما العاشق ليالي طوال.. وكل شبر وحتة من بلدي.. حتة من كبدي حتة من موال.. أنزل لكم في الندى والطل أتنسم.. للضي أضحك لكم.. في الضلمة أتبسم.. نغم المحبة بيجمع لما يِقَسِّم.. ولا أبطل غُنا ولا أبطل التسحير.. بقلبي طول السنة وبطبلتي موسم.. اصحى يا نايم.. اصحى وَحِّد الدَّايم.. السعي للصوم خير من النوم.. دي ليالي سِمحَة.. نجومها سِبحَة.. اصحى يا نايم.. يا نايم اصحى.. وَحِّد الرزَّاق».

٢١ أغسطس ٢٠١٠

أزهى عصور الخشخاش

انظروا إلى الجانب المُشرق من الصورة. جميع لوحات الوزير الفنان فاروق حسني بخير.

ثم احمدوا الله على كل حال، لكي يزيدكم من نعيمه، ولا تنسوا أنهم إذا كانوا قد سرقوا لوحة زهرة الخشخاش، فنحن والحمد لله لا زلنا نمتلك البرواز، ويمكن أن نضع بداخله أي لوحة من لوحات الوزير الفنان ونقول للعالم إنها لوحة زهرة الخشخاش: «حتى أهوه هذه البقعة هي الزهرة وهذا الخليط اللوني المتنافر هو الخشخاش»، ولا تسألوا إذا كان العالم سيصدقنا أم لا، فذلك السؤال لم يشغلنا عندما قلنا له بكل فخر إننا قفشنا الذين سرقوا اللوحة وإنها رجعت كاملة لينا، ثم اتضح بعدها بدقائق أن ذلك لم يحدث، وأن وراء تلك المهزلة سياسة «قالوا له» التي ينتهجها أهل بلادنا من أتعس غفير إلى أطول وزير.

تصدقون بالله، أنا اللي صعبان عليَّ في هذه الحكاية هو المرحوم «فينسنت فان جوخ»، الذي لم يكفه أنه عاش فقيرًا كئيبًا، ومات محسور القلب مقطوع الأذن مكروش النفس، ثم لم يكتفِ الزمن الوغد بكل هذا العذاب الذي ألحقه به، بل حكم عليه عندما أصبحت لوحاته تساوي ملايين الدولارات، أن تأتي لوحة من أجمل لوحاته وأشهرها إلى بلاد حكمها أناس جعلوا عيشة أهلها هبابًا، فبعد أن كان أجدادهم أول من أبدع الفنون وعلمها للدنيا، أصبح أحفادهم يعتبرون زيارة المتاحف «فضا وروقان بال»، ولا يعرفون أن في متاحفهم كنوزًا يأتي الناس من أنحاء الدنيا لزيارتها، ولا يتورع بعضهم عن انتهاز أي فرصة للمساعدة على سرقة هذه الكنوز وبيعها لأي راغب مقتدر؛ عملًا بالمبدأ الذي يعتنقونه منذ عصور المماليك: «لو بيت أبوك خرب اِلحق وخد لك منه قالب»؛ وهو مبدأ

بات الذين يجلسون منهم للتآمر على سرقة لوحة أو تمثال أثري، يفككونه إلى جمل أخرى أكثر تفصيلًا من نوعية: «يعني هي جت علينا احنا.. ما البلد كلها بتتسرق.. على الأقل احنا باللي هنسرقه هنأكّل عيالنا ونستّر بناتنا.. وبعدين هي اللوح والأثارات دي بتاعة حد.. مش أحسن ما هي متلقحة ومفيش حد بيبص عليها نطلع بلقمة حلوة منها.. وبعدين هو يعني إحنا هنسرق حاجة تنفع الناس.. ده شغل فاضي بتاع ناس فاضية.. ياخدوه بقه الخواجات اللي هم أولى بيه»، ولا تستبعد أبدًا أن يكون أحد هؤلاء قد شارك في سرقة اللوحة بقلب جامد؛ لأنه سمع مرة شيخًا يفتي بأن الفن التشكيلي حرام لأنه تجسيد لخلق الله، مع أن لوحة «زهرة الخشخاش» تنتمي إلى فئة لوحات الفاكهة والأنهار والحقول والأزهار التي يتسامح معها بعض الشيوخ المتشددين.

عارفين، لو كان أخونا «فان جوخ» حيًّا يُرزق لما فوَّت هذه الفرصة التاريخية لكي ينتج أجمل أعماله الفنية على الإطلاق، ويرسم جدارية كبيرة يسميها «دولة الخشخاش»؛ تصور أحوال دولة يحكمها نظام فردي معمر، يتسامح مع خطايا الوزراء إذا كان دمهم خفيفًا على قلبه، ولا ينسى لهم أنهم أدخلوا له المثقفين الذين كانوا يرجعون قلب نظام الحكم إلى الحظيرة، لذلك يبقى الوزير ملتصقًا بكرسيه مهما حدث، سواء احترق في عهده نخبة من أجمل مسرحيي البلاد، أو احترق أثر إسلامي فريد بسبب إهمال وزارته، أو تساقط كبار مساعديه بتهم الفساد دون أن يُساءل سياسيًّا عن اختيارهم، أو أصبحت المتاحف ملطشة لكل من يرغب في تحسين دخله، أو ماتت صناعة السينما التي كانت نوارة البلاد وفخرها بين الأمم، أو ساد التطرف والجهل أرجاء البلاد، في حين يفضل الوزير أن يكلم نفسه ومثقفي حظيرته فيعقد لهم مهرجانات المسرح التجريبي ومؤتمرات النقد التفكيكي وسمبوزيومات الفنون النخبوية، دون أن يسأل أحد لماذا لم تساهم كل تلك الفعاليات الرائعة في تقدم البلاد وأهلها، بل أدت إلى انعزال الثقافة ورواج التطرف، ولا لماذا يعتبر الوزير أن ما قام به من إنجازات لا يمكن إنكارها في مجالات النشر والآثار والفنون التشكيلية وقصور الثقافة نِعَمٌ يتفضل بها على البلاد، وكأنه أنفق عليها من جيبه الذي أتخمته حصيلة بيع لوحاته لرجال الأعمال التي لم يفكر أحد في أن يسأل ولو مجرد سؤال عن طبيعة التطور المذهل في أسعارها منذ توليه الوزارة، ولا عن كون متاجرته فيها في أثناء توليه الوزارة أمرًا يخالف القانون.

خلال زيارة الرئيس مبارك الأخيرة إلى المتحف الإسلامي، الذي لا يمكن إنكار

أنه إنجاز لوزير الثقافة حتى لو كان قد تأخر عشرات السنين، وقف الوزير فالقًا ضبه عن ابتسامة طويلة وهو يحكي للرئيس عن أكبر متحف في العالم سيقام بفضل سيادته ويضم مئات الآلاف من القطع الأثرية النادرة، سأله الرئيس عن موعد فتح المتحف، فطالت ابتسامة الوزير أكثر وحدد له عددًا من الشهور، ثم قال للرئيس: «بس هنستسمح سعادتك إننا نتأخر كام شهر»، فرد عليه الرئيس مستغربًا: «ليه.. مش حددتوا معاد للافتتاح يبقى تلتزموا بيه»، فطالت ابتسامة الوزير حتى صارت أطول من الدكتور أحمد نظيف وقال له: «معلهش سعادتك مفيهاش حاجة يعني.. كلها كام شهر تأخير بس هيبقى إنجاز عالمي وكله بفضل سيادتك ورعايتك للمتاحف والفنون». تذكرت هذا الحوار الذي كان يوحي بأن الوزير مسيطر على تفاصيل الوزارة وقابض على مقاليدها، وأنا أتابع بذهول المهازل التي تكشفت عن أحوال متحف محمد محمود خليل، ونقلتها كبرى المواقع العالمية لتصير فضيحة دولية بجلاجل، فقرأت الفاتحة وآية الكرسي والمعوذتين بنيَّة أن يحمي الله ما تبقى من آثارنا المعروضة في المتاحف التي تقع تحت مسئولية وزير لم يفكر حتى في تأمين أقرب هذه المتاحف إلى مقر وزارته، برغم أنه يحوي بعضًا من أغلى وأهم اللوحات في العالم.

نصيحة: اقرأوا معي الفاتحة وآية الكرسي والمعوذتين، وبعدها انظروا إلى النصف الملآن من البرواز، إذا كانوا قد سرقوا زهرة الخشخاش، فالخشخاش نفسه موجود في السوق. وقضا أخف من قضا.

٢٤ أغسطس ٢٠١٠

بين رَنّتين

نسيت أن أغلق الموبايل وقلت أريّح حبتين حتى يأتي موعد السحور، لم تكد عيناي تغفلان حتى داهمتني رنة الموبايل فمرَّرت تعسيلتي، نظرت إلى شاشة الموبايل فلم أجد اسمًا أعرفه، لست من الذين يمارسون التفرقة الطبقية على أرقام الموبايلات فيردون على الأرقام المميزة؛ لأن الأرقام المميزة «أي حد بيجيبها دلوقتي»، أنا من الذين يعتنقون مبدأ «إذا داهمك جرس الموبايل ولم تكن مُسجلًا رقم المتصل لكي تتهرب منه فلا بد أن تواجه قدرك وترد، فلست تدري، ربما تحمل لك المكالمة خبرًا سعيدًا أو رزقًا قادمًا أو صديقًا تقطعت به السبل.. ثم لن يتصل بك أحد هكذا بعد نُص الليل لسبب غير وجيه.. ثم إنك لو واصلت حديث الروح هذا لزهق المتصل وقطع اتصاله وصحيت من نومك أونطة وزهق القارئ من مللك وأنت تصف ما حدث.. يالله رد».

جعلت صوتي خشنًا كخطوة دفاعية لازمة للتعامل مع متصل مجهول: «مين يا افندم؟» وكان هذا آخر ما قلته؛ لأن المتصل لا يؤمن بالوقفات بين الكلام ولو من أجل التنفس: «سلامو عليكو.. أنا لسه قاري الكلام اللي انت كتبته عن اللوحة بتاعة زهرة الخشخاش وكان عندي اقتراح عشان نحل المشكلة دي في المستقبل ونمنع الأثارات والتحف بتاعتنا إنها تتسرق.. يعني بدل ما عساكر الأمن المركزي يا عيني راميينهم في الشوارع عشان يأمنوا المظاهرات اللي مش هتقوم.. ويحرسوا العمارات والمحلات.. ياخدوا العساكر دي ويحطوا عسكري تحت كل لوحة وجنب كل أثر في كل المتاحف.. على الأقل يرحموهم من الحر ويقعدوهم في التكييف وبالمرَّة نحمي آثار بلدنا اللي المفروض نسيبها للأجيال اللي بعدينا.. عشان كده حرام علينا مش هنسيب ورانا حاجة زي اللي سابها لنا أجدادنا.. أنا مقهور والله يا باشا وما عرفتش أنام إلا لما أقول لك الكلمتين دول عشان تكتبهم».

ربك والحق فاجأني الاقتراح فألغى أسئلة من نوعية: «إنت عارف الساعة كام دلوقتي؟ إنت أصلًا جبت نمرتي منين؟»، لأكتفي بسؤال أكثر إلحاحًا هو: «مين حضرتك؟».

«أنا مواطن عادي ما تعرفوش.. اسمي أحمد عيسى من الحرفيين.. وكان لازم أقول لك الكلمتين دول وبس.. سلامو عليكم». اجتاحتني السعادة، ليس لأن رقم موبايلي وصل الحرفيين، وأنا الذي ظللت سنين عاطلًا عن العمل أنظر إلى الموبايل أستحلفه أن يرن، لكي لا أضطر للرن على أحد هروبًا من الوحدة والضجر، بل لأنني وجدت مواطنًا من السكان الأصليين لمصر يشعر بحرقة القلب على سرقة لوحة زهرة الخشخاش. كنت قد ذهبت إلى النوم مُنهكًا من التجول بين المواقع الإخبارية أملًا في العثور على خبر يبل الريق عن مصير اللوحة المسروقة، كلما دخلت إلى موقع ووقعت عيناي على تعليقات القراء على أخبار اللوحة، أسارع بالهروب بعيدًا عنها وأنا أتميز من الغيظ قائلًا: «ينبغي أن يحاكم هذا الوزير، ليس فقط لأنه مسئول سياسيًّا وإداريًّا عن جريمة سرقة اللوحة، بل لأنه كبس على نفس وزارة الثقافة سنين طويلة ولم ينجح، وهو الفنان التشكيلي، في إقناع الشعب المصري بأن الفن التشكيلي ليس رفاهية ولا ترفًا، بل هو ضرورة حضارية تخص الفقراء أكثر من الأغنياء».

إذا قلت لي: «ليس عدلًا أن تحمل فاروق حسني مسئولية كهذه لوحده وهي مسئولية نظام الحكم المبارك بأسره»، لن أرد عليك قائلًا: «وهل من العدل إذن أن يتحمل الفنان محسن شعلان وعدد من الموظفين مسئولية سرقة اللوحة ويفلت منها فاروق كعادته؟»، بل سأقول لك: «ألم يكن من الأولى والأجدى أن يعمل الوزير بكل طاقته على نشر الثقافة بين أبناء الشعب، بدلًا من تحويل وزارته إلى وزارة نخبوية هدفها الأسمى إدخال المثقفين في حظيرة النظام ورصهم أمام الرئيس في اللقاءات الفكرية ليهزوا رءوسهم مباركين مهللين؟! ألم يكن من الأولى أن يكف الوزير عن سياساته الاستقطابية الطائشة التي جعلت الوزير يظن أن الشعب المصري هو مجموع المثقفين الملتفين حوله، بينما التيارات المتطرفة تكسب أرضًا كل يوم في الشارع مستفيدة من جملة أفكار صارت غير قابلة للنقض بين ملايين البسطاء ملخصها أن وزارة الثقافة وجميع أجهزتها تريد محاربة الدين، وتُكرِم أعداءه، وتسعى لنشر الانحلال والخلاعة وكل ما يُغضب الله؟! انزلوا إلى أوساط الناس لتتحققوا من ذلك، ثم ابدأوا فتح ملفات وزارة الثقافة في عهد فاروق حسني، وسأعتذر لكم على رءوس الأشهاد إذا ثبت لكم بالدليل القاطع أن الرجل كانت لديه

رؤية مضمونها أن وزارته ليست للمثقفين والنخبة، بل للبسطاء والعامة، وإذا وجدتم أنه استغل علاقاته بأكبر رءوس الدولة من أجل أن تكون الثقافة هي الاهتمام الأول للدولة؛ فلا تعمل بمعزل عن وزارات التعليم والإعلام والأوقاف والشباب، بدلًا من أن يقضي كل وقته في افتتاح منشآت ثقافية لا يدخلها أحد، والتباهي بقدرته على تسييح أسياخ المثقفين الذين بات يلجأ إليهم ساعة الزنقة لتوقيع بيانات المطالبة بإبقائه في الوزارة بعد كل كارثة يرتكبها».

لست أبله لكي أتصور أن أحدًا يمكن أن يحاسب فاروق حسني أو غيره، فنحن نعيش في بلاد ذهب رئيسها وشعبها إلى الاستاد للتشجيع والتهليل بعد ساعات من غرق ألف مصري في مياه البحر الأحمر، ولذلك سأكتفي بحلم أشد واقعية هو ألا أجد على الموبايل، كلما رن، زميلًا صحفيًّا يثني على عبقريتي الدرامية وقدرتي على استشراف المستقبل، وقبل أن أنجعص في موضعي يتضح أنه يظنني مؤلف فيلم «حرامية في تايلاند»، الذي جاء وسط سلسلة أفلام كتبتها لأخي وصديقي كريم عبد العزيز، أقول للمتصل إن الفيلم من تأليف السيناريست الجميل نبيل أمين، فيبادرني: «طيب ممكن نمرته؟». أهِمُّ بإعطائه النمرة ثم أتذكر أخلاقيات المهنة فأقول: «لازم أستأذنه الأول». أتصل بنمرة صديقنا نبيل فأجدها قد تغيرت، وعندما يتصل بي الصحفيون ثانية أقول لهم: «للأسف نمرته اللي عندي ما طلعتش صح». وفي كل مرة أسمع نفس الإجابة: «كنا فاكرينك هتبقى متعاون أكتر من كده».

٢٥ أغسطس ٢٠١٠

شهادتي على مصر

قُبيل إسقاط نظام مبارك

الجزء الثاني



وحياة ربنا المعبود الذي يحب الصابرين، إذا صبروا، أقسم لكم إن هذه السحابة السوداء التي كبست على نفس مصر ستغور، وإنه سيطلع علينا صباح لن نرى فيه هذه الوجوه الكريهة التي كانت تكذب أكثر مما تتنفس فصارت تكذب ولا تتنفس، وأن مصر سترزق بصباح تستحقه، وساسة على قد مقامها، وأيام يمكن احتمالها، وأكاذيب يمكن بلعها، وفساد يمكن التعايش معه، وتخلف له أول من آخر، وإنه سيأتي على مصر صباح يفوق فيه المصري لنفسه، ويتكسف على نفسه عندما يرى كيف أصبح حاله، ويقرر أن لا ينازع الخالق في حكمه على البشر، ويتفرغ لدوره الذي نسيه كمخلوق، صباح يصبح فيه ضرب مواطن فقير على قفاه ألعن من الخيانة العظمى، صباح يعيش فيه المصريون إما فقراء على القد دون أن يفقدوا الكرامة والستر، وإما أغنياء على راحتهم دون أن يفقدوا الإحساس والضمير.

سيأتي هذا الصباح، أنا أضمن لكم ذلك برقبتي، وأنا رقبتي أكبر من أي سدادة تتخيلونها، لكنني للأمانة ولكي لا أخدعكم لا أضمن لكم متى سيأتي، ولا إذا أتى متى يمكن أن ينتهي فتداهمنا سحابة سوداء من جديد، أنتم تضمنون ذلك بأنفسكم ولأنفسكم، أما أنا فأعرف فقط أن ذلك الصباح سيأتي حتمًا ولزمًا، ومصر إذا شمت هواءه النظيف لن تفرط فيه أبدًا.

ربنا كريم ومصر تستاهل.

بلال فضل

١ نوفمبر ٢٠٠٨

ISBN 978-99921-79-13-0





